حضارة مصر في العصر القبطي

تأليف

مراد كامل

حضارة مصر
في
العصر القبطي

تأليف

مراد كامل

مطبعة دار العالم العربى

٢٣ شارع الظاهر بالقاهرة

تليفون ٩٠٦٧٠٦

إهـــداء

إلى الروح الصادقة ،

التى حفزت جمعية التوفيق القبطية ،

على نشر التراث القبطى ،

على نفقتها الخاصة .

مقدمة

دافع شعب مصر عن حضارته وثقافته التى ورثها ،
أمام التيارات الجارفة التى هددتها بالاكتساح ،
وصمد الشعب أمام الأحداث الجسام التى انتابته ورجت أركان حضارته ،

وكانت تحدوه فى ذلك روح وطنية خالصة ،

ولاغرابة فى ذلك ، فإن حضارة مصر وثقافتها مصرية صميمة نبعت من شعب مصرى أصيل ، له كيانه الخاص ، وله شخصيته المميزة ،
ولقد أثرت حضارته فى العالم ، كما شارك الشعب المصرى فى تقدم الإنسانية .

فإلى هذه المشاركة نعزو إثبات وجودنا ،

ومن هذه المشاركة وضحت شخصيتنا ،

وعلى هدى هذه المشاركة فى الحضارة العالمية ، نخطو إلى مشاركة أسمى منها ،

ولنذكر دوماً ما أدته مصر للعالم ، وما ينتظره العالم منها من مشاركة فعّالة .

مدخـــل

فى الشطر الثانى من حكم الرومان ، أى من ديوقلديانوس إلى دخول العرب ، تأثر تاريخ مصر بعاملين رئيسيين وهما : المسيحية والسياسة البيزنطية .

وسنقدم لهذا العصر بكلمة موجزة عن سياسة الأباطرة العامة ، من ديوقلديانوس إلى هرقل ، ثم نتبعها بنظام الإدارة فى مصر والنظام المالى والجيش والحالة الاقتصادية .

وسنعرض فى الفصول الخمسة التى تلى المقدمة الألوان المختلفة لحياة الشعب المصرى من سياسية ولغوية وفكرية وفنية واجتماعية فى هذا العصر ، وسيتضح لنا من هذا العرض كفاح الشعب المصرى للاحتفاظ بشخصيته وكيانه ضد الحاكم المغتصب .

وقد كان للأسكندرية الزعامة الدينية فى الشرق المسيحى ، وفى مصر نشأت الرهبنة التى أخذها عنها العالم المسيحى ، وفى مصر ظهر أعظم رجال الفكر المسيحى . وكانت مصر منذ فجر تاريخها الممعن فى القدم أرضاً خصبة ، بفضل نيلها وطبيعة أهلها الذين اتسموا بالمثابرة على العمل والسماحة والمسالمة . ولم يمنع هـذا أن يعم البؤس البلاد فى هذا العصر ، وذلك بسبب فساد أداة الحكم واستغلال الحكام ، مما دعا الشعب الذى كان يعيش فى هذا الجو الفاسد أن يبغض حكامه ويحتقرهم وأن يتطلع إلى الاستقلال والحرية وحياة أفضل .

وكان دخول العرب فرصة مواتية أحدثت تغييراً شاملا فى السياسة وفى الدين ، ووجهت مصر وجهة جديدة نحو الشرق والاتصال بشعوب الشرق ، بعد أن كانت صلاتها الحضارية مقصورة على الغرب أو بعبارة أدق على الحضارة الإغريقية .

من ديوقلديانوس إلى هرقل (٢٨٤ — ٦٤١)

ديوقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥)

تولى ديوقلديانوس الحكم فوجد نفسه أمام مجموعة من اللوائح والقوانين والنظم — التى تسير عليها سياسة الامبراطورية — لاتتمشى وحاجة عصره . فحاول أن يعالج الموقف بادخال تغييرات أساسية فى سياسة الدولة ، وذلك ليتفادى الانهيار المتوقع للامبراطورية ، وليمنع الاضطرابات التى كانت تسود الدولة عند موت الامبراطور وتولى خليفة له .

أدخل ديوقلديانوس اصلاحات عديدة على النواحى المختلفة فى الدولة ، فجعل من الامبراطور شخصية مقدسة تؤدى لها فروض العبادة بمقتضى طقوس دقيقة مرسومة استمدها من تقاليد الشرق .

كما ركز فى الامبراطور سلطة الحاكم المطلق فأصبح يقبض على كل السلطة الإدارية . وشل سلطة السناتو وألغى وظيفة المستشار وجعل كل الولايات خاضعة للامبراطور فلم تعد هنـــاك ولايات خاضعة للسناتو ، كما ألغى الامتيازات الممنوحة للولايات التى كانت من الأصل

تخضع للامبراطور ، ثم أدمج الولايات فى وحدات إدارية وركز كل إدارات الإمبراطورية فى أيدى موظفين وإدارات تابعة مباشرة للامبراطور ، وفصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية .

وحاول ديوقلديانوس أن يحل المسألتين اللتين كانت تتوقف عليهما سلامة الإمبراطورية ، وهما الدفاع عن البلاد وتنظيم وراثة العرش .

وكان ديوقلديانوس يعتقد أن الدفاع عن حدود إمبراطورية مترامية الأطراف لا يمكن أن يتولى أمره إمبراطور واحد . وقد حمله ذلك على أن يشرك ماكسيميان معه فى الحكم ، وذلك فى سنة ٢٨٦ وأسند إلى ماكسيميان الدفاع عن الغرب واحتفظ لنفسه بالدفاع عن الشرق . أما وراثة العرش فلم يكن لها نظام متبع ، وكانت المطامع فى ارتقاء العرش من المشاكل التى تواجهها الإمبراطورية عند موت امبراطور . وفى سنة ٢٩٣ قرر ديوقلديانوس أن يتولى الحكم إمبراطوران فى نفس الوقت ، أحدهما للشرق والآخر للغرب ، ويحمل كل منهما لقب « أوغسطس » على أن يستعين كل منهما بشريك يكون وريثه فى العرش ويحمل لقب « قيصر » .

من قسطنطين إلى يوستنيانوس (٣٢٣ — ٥١٨) .

اعترفت الدولة رسمياً بالمسيحية فى عهد قسطنطين الذى هو فاتحة التاريخ البيزنطى . وقد شيد قسطنطين على مدينة بيزنطة القديمة مدينة جديدة استمدت اسمها من اسمه وعرفت بالقسطنطينية ، وأصبحت عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية فأخذت تنمو وتزدهر بخطى سريعة .

وأضفى قسطنطين على اصلاحات ديوقلديانوس الصبغة النهائية ، حتى أصبح للامبراطورية البيزنطية طابعها الخاص ، وانحصرت السلطة الإدارية والحكومة فى البلاط الإمبراطورى ، وكان مركز الدولة ، وأصبح الناس يخدمون الإمبراطور بعد أن كانوا يخدمون الدولة .

واعتلى العرش بعد قسطنطين ما يزيد على العشرين إمبراطوراً ، أهم ما يعنينا من أمرهم مناصرة كثير منهم للهراطقة ومناصبتهم الكنسية المصرية عداء شديداً بسبب وقوفها فى وجه أولئك الهراطقة .

وكانت هذه الفترة مليئة بالقلاقل والاضطرابات لااستقرار فيها . فتارة يصير الأمر فيها لامبراطور واحـــد ، وتارة توزع السلطة بين امبراطورين أحدهما فى الشرق والآخر فى الغرب . ويرجع عدم الاستقرار إلى أمور مختلفة أهمها : أن القوى الحية للامبراطورية كانت كلها فى الشرق . وأن المسيحية تطورت فى الشرق بطريقة تختلف عنها فى الغرب . وأن هجمات البربر على الغرب كانت أشد أثراً منها على الشرق .

أسرة يوستنيانوس (٥١٨ — ٦١٠) .

كان حكم يوستنيانوس تطوراً طبيعياً وضرورياً فى تاريخ الإمبراطورية . فقد ضحى أباطرة القرن الرابع بسلطانهم على الغرب فى سبيل سلامة الشرق . ولكن يوستنيانوس أخذ يتطلع إلى الغرب منذ بداية حكمه ، وساقته مطامعه إلى محاولة استعادة الماضى . واستنفد جهداً كبيراً ليبعث من جديد هذا الجزء الميت من الإمبراطورية ، مما أدى إلى إنهاك قوى الجزء الحى .

وكان من جراء فكرته فى استعادة مجد الإمبراطورية الرومانية ، حروبه العديدة ، فأمكنه أن يجعل من البحر الأبيض المتوسط بحراً رومانياً ، ولكن سرعان ما اضطرته حروبه فى الشرق إلى أن يكف عن الحروب ، وأن يقوم بإنشاء سلسلة من التحصينات ، جعلت من الإمبراطورية ميداناً بجزأ .

وقد ظن يوستنيانوس أنه سيعيد تأسيس الإمبراطورية على أساس سليم ، فعمد إلى وضع نظام من شأنه أن يجعل الرخاء يسود كما كان فى روما أيام مجدها . وسلك فى ذلك طرقا ، تتلخص فى أعماله التشريعية وفى اصلاحاته الداخلية .

أعماله التشريعيـة :

كانت روما فى مقدمة البلاد التى عنيت بالتشريع بل تعتبر مؤسسة علم القانون . وعلى أساس هذا العلم أوجدت الدولة نظام الوحدة الذى بنى على سلطة الإمبراطور المطلقة .

وقد أدرك يوستنيانوس عظم الفائدة التى يمكن أن تعود على الإمبراطورية إذا جمع مصادر القانون الرومانى الذى كان معمولا به عندئذ ونشرها على نحو يمكن تداوله والرجوع إليه . وقد نهض بهذا العبء عدد من أبرز فقهاء الرومان . ومنذ ذلك الوقت غدت هذه المجموعة من القوانين المرجع الذى تعتمد عليه المحاكم ومدارس القانون فى الإمبراطورية ، بل أصبحت المصدر الذى استمد منه القانون المدنى الحديث .

وقد أطلق على هذه المجموعة «مجموعةقوانين يوستنيانوس» . وهى تنقسم إلى أربعة أجزاء :

١ — مدونة يوستنيانوس وقد نشرت أولا فى عام ٥٢٩ ، ثم روجعت ونشرت ثانية فىعام ٥٣٤ ،وكانت عبارةعن بمجموعة تشريعات الأباطرة التى كانت لاتزال نافذة المفعول .

٢ — البندكت أو المجمل وقد نشر فى عام ٥٣٣ ، وكان يتضمن مقتطفات مما كتبه أبرز فقهاء القانون الرومانى ، ورتبت هذه المقتطفات بحيث تستكمل مالم يرد فى المدونة من أحكام القانون المدنى .

٣ — القوانين وكانت كتاباً موجزاً وضع خصيصاً ليستخدمه طلبة القانون .

٤ — المراسيم الجديدة التى أصدرها يوستنيانوس بعد سنة ٥٣٤ وعددها ١٦٨ مرسوماً .

ومن الملاحظ أن الأجزاء الثلاثة الأولى كتبت باللاتينية ، وأما الجزء الأخير فكتب باليونانية .

اصلاحاته الداخلية :

التفت يوستنيانوس لتحسين الحياة الداخلية فى الإمبراطورية ، فاتخذ عدة وسائل للاصلاح بعد ما شاهد استياء الشعب من الموظفين ومن سياسة الإمبراطور مما أدى إلى قيام ثورة القسطنطينية نفسها سنة ٥٣٢ . فأصدر تشريعات لأجل إصلاح الوظائف الحكومية كان منها

إلغاء الوظائف الزائدة على الحاجة ، ورفع مرتبات الموظفين ، وإعادة الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية ، واتخذ خطوات إيجابية من شأنها أن تجعل للموظفين بعض الاستقلال فى الإدارة مع ربط الادارات بالسلطة المركزية . وحد من امتيازات كبار الملاك الذين كانوا خطراً داهماً على الطبقة الوسطى ، وعائقاً فعالا فى تقدم الدولة ورفاهيتها .

ولكن كل هذه المحاولات الإصلاحية باءت بالفشل ، والسبب فى ذلك هو الإمبراطور نفسه لأنه كان فى حاجة ملحة إلى المال لمواجهة النفقات الباهظة التى كانت تتطلبها حروبه الكثيرة ومنشآته المختلفة ، فألح على وكلائه فى جمع المال على أية صورة ، وفرضت ضرائب جديدة، ثم غير العملة وجعل الموظفين مسئولين شخصياً عن جمع الضرائب ، فاتخذوا من جانبهم إجراءات تعسفية لجمع المال من الشعب إرضاء للإمبراطور ، فكان هو العامل الأول فى هدم إصلاحاته .

أما سياسته الدينية فقد أصدر يوستنيانوس مراسيم سنتى ٥٢٧و٥٢٨ ضد الهراطقة وأصحاب البدع ، ثم أمر بإغلاق مدرسة أثينا الوثنية سنة ٥٢٩ ، وكان عصره عصر نزاعات مستمرة بين المذاهب المسيحية المختلفة . وعاش الهراطقة بالرغم من الاضطهادات ، بل كان رؤساؤهم يسكنون القسطنطينية نفسها . وفشلت سياسته الدينية وكان سبب فشلها — على الأكثر — سياسة الغرب ، هذه السياسة التى أنهكت قوى الإمبراطورية فلم تعد تحتمل هجمات العدو فى شرقها ، وهى التى استنفدت مالية الدولة وأحبطت الإصلاح الإدارى ، وهى التى أضاعت الفرصة على الدولة فى النهاية لتوحيد المسيحية فى الشرق وهى فى أشد الحاجة إلى ذلك .

الحالة الاقتصادية فى عهد يوستنيانوس :

كانت حياة النساك والرهبان الذين يعيشون فى صحارى مصر وفلسطين داعية لتشجيع الإمبراطور يوستنيانوس والإمبراطورة تيودورا للرهبنة عامة ، فأخذت فى الانتشار والتطور ، وكان لهذا أثره فى الحياة الاجتماعية . كان هؤلاء الرهبان يتمتعون بحرية واسعة جعلتهم يتدخلون بالتدريج فى الحياة السياسية وفى حياة البلاط . وأخذ عددهم يزداد ، وانهالت عليهم الوقفيات والهبات والتبرعات ، وكانت معفاة من الضرائب فى أغلب الأحيان . فظهرت بذلك طبقة جديدة فى المجتمع لها امتيازات ولها أثرها فى الحياة الاقتصادية .

وهناك خاصية أخرى كان لها أثرها فى الحياة الاقتصادية فى عهد يوستنيانوس ، فقد قام بأعمال إنشائية عديدة مثل تعبيد الطرق وإنشاء القناطر وتشييد التحصينات والقلاع ومد أنابيب المياه وبناء الكنائس والأديرة . وكان المظهر الأول لكل هذه المنشآت يدل على أن الدولة فى حالة رخاء ، ولكن سرعان ما اضطرته المحنة المالية — لما استنزفته هذه الأعمال من أموال باهظة — إلى وقفها بعد أن أثقلت الضرائب كاهل الشعب من جديد . أما تجارة الدولة فقد شجع يوستنيانوس بعض المراكز التجارية الأساسية ومنحها بعض الامتيازات فزاد من نشاطها . وكانت مشكلة الإمبراطورية هى صلتها بالشرق الأقصى للحصول على منتجات الهند والصين . وكانت التجارة الشرقية تصل إلى الإمبراطورية ، إما براً عبر الطريق الشمالى الذى كان يمر بوسط اسيا

فبحر قزوين فالبحر الأسود ، وأما بحراً عن طريق الخليج الفارسى أو عن طريق البحر الأحمر . ولما كان الفرس ينقلون جانباً كبيراً من التجارة الشرقية ، فقد حاول يوستنيانوس أن يحول التجارة الشرقية ، إما إلى الطريق الشمالى أو إلى طريق البحر الأحمر ، وذلك من ناحية ، ليتفادى وساطة الفرس ومغالاتهم فى فرض الضرائب ، ومن ناحية أخــــرى ليزيد نصيب الإمبراطورية من التجارة الشرقية . ولكن يوستنيانوس فشل فى ذلك ولم تتمكن بيزنطة من التخلص من منافسة الفرس الاقتصادية .

خلفاء يوستنيانوس (٥٦٥ — ٦١٠) :

مات يوستنيانوس والدولة فى حالة إفلاس وقد عم البؤس أفراد الشعب . وارتاح الجميع لموته ، ولكن خلفاءه لم يجدوا حلا للمشكلة المالية التى ترتبط بها الإدارة الداخلية برباط وثيق . وقامت معارضة قوية ضد سلطة الإمبراطور المطلقة . كما نشأ خلاف شديد بين البابا جريجوريوس وبين بطريرك القسطنطينية . كل هذا والعدو لم يكف لحظة عن مهاجمة حدود الإمبراطورية .

هــــرقل (٦١٠ — ٦٤١) :

كان القرن السابع أكثر عصور التاريخ البيزنطى حلكة ، فقد كان عصر أزمة خطيرة وضح فيها أن كيان الإمبراطورية أصبح فى مهب الريح.

تطرق الركود إلى الحضارة البيزنطية فى القرن السابع فلم يظهر فى

هذا القرن كتّاب أو مؤرخون أو قام أحد بعمل إنشائى ذى بال . وعم الخوف الناس فى هذا القرن وانتشرت فيه الخرافات .

ولم يكن هذا كله ليدل على سقوط الدولة النهائى بل أظهر أن الأزمة متأصلة وأن على الإمبراطورية أن تتفاداها بمحاولة تغيير اتجاهاتها . وكان السبب الأول فى هذه الأزمة هو محاولة يوستنيانوس الفاشلة فى إعادة الروح الرومانية إلى الإمبراطورية، وتوحيد الشرق والغرب.

ولم يبق أمام الدولة إلا أن تخضع للعوامل الجغرافية والجنسية والاقتصادية والدينية والإدارية ، فتغير اتجاهها تغيراً واضحاً، وأصبحت إمبراطورية يونانية شرقية بعد أن كانت إمبراطورية رومانية ، وقد مكنها هذا الوضع من أن تحافظ على ماتبقى لها بعد استيلاء العرب على أهم أقاليمها ، واستيلاء السلاف على شبه جزيرة البلقان . وكتب للإمبراطورية البيزنطية البقاء حتى القرن الخامس عشر .

النظام الإدارى والمـالى

ونظام الجيش والحالة الاقتصادية فى مصر

فى العصر البيزنطى

النظام الإدارى :

عندما اعتلى ديوقلديانوس العرش كان أول ما اتجه إليه هو فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية وتوحيد النظام الإدارى فى كل أنحاء الامبراطورية . ولذلك أعاد تنظيم مصر فقسمها إلى ثلاث مقاطعات : هى مصر الجوبيترية ومصر الهرقلية وطيبة . ويحتمل أن هذه المقاطعات كانت تقابل على وجه التقريب أقسام الدلتا ومصر الوسطى ومصر العليا التى كانت موجودة فى الشطر الأول من العصر الرومانى . وفى عهد قسطنطين الثانى تكونت فى عام ٣٤١ مقاطعة رابعة « الأغسطمنية » من الأقاليم الشرقية فى المقاطعتين الأولى والثانية. وفى عهد ثيودوسيوس الأول أضيفت ليبيا إلى مصر فأصبحت المقاطعات خمسا . وحوالى أواخر القرن الخامس غير إسم المقاطعتين الأولى والثانية فأصبحتا على التعاقب مصر وأركاديا .

ولمـا كان ديوقلديانوس وخلفاؤه حتى يوستنيانوس يرون ضرورة فصل السلطتين المدنية والعسكرية فقد وضع على رأس السلطة المدنية فى

كل أنحاء البلاد حاكم عام كان يهيمن على شئون الإدارة والمالية والقضاء وأسندت قيادة الجند إلى قائد مستقل . وكانت المقاطعة الأولى خاضعة لنفوذ الحاكم العام مباشرة . أما المقاطعات الأخرى فقد كان يتولى حكمها رؤساء يقيم كل منهم فى مقاطعة ويخضع للحاكم العام الذى كان بدوره يخضع « لحاكم أو دوق الشرق » . وعندما ضمت ليبيا إلى مصر منح الحاكم العام لقبا ممتازاً وقسمت قيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص .

وقد تبع تقسيم البلاد إلى مقاطعات إعادة تنظيم الإدارة المحلية فى أوائل القرن الرابع ، فلم يعد هناك وجود عملى للمديريات فإنها قسمت إلى أقاليم أصبحت هى الوحدات الفعلية فى الإدارة المحلية ، وترتب على ذلك بطبيعة الحال إلغاء منصب المدير أو القائد وكذلك إلغاء منصب الكاتب الملكى . وكان أهم الحكام المحليين مراقب جمع الضرائب (إكساكتور) وإليه انتقلت اختصاصات القائد فى الشئون المالية . أما اختصاصات القائد المدنية فإنها انتقلت إلى حاكم آخر (لوجستيس) كان فى الأصل يمثل السلطة المركزية، لكنه أصبح حاكما محلياً دائماً يتمتع بنفوذ فى الأقاليم والمدن على السواء ، وآلت إليه اختصاصات حكام المدينة القدماء فزالوا بالتدريج . وبعد القرن الرابع حل مكان هذا الحاكم (لوجستيس) حاكم آخر (ديفنسور) وقد ظلت مجالس الشورى قائمة ، وألقيت عليها المسئولية كاملة عن الإدارة العامة والإدارة المالية، وغدت عواصم المديريات بلديات على النمط الرومانى تتمتع بحكم ذاتى ، ويدخل فى نطاق كل منها منطقة ريفية .

وكان الهدف من كل هذه التغييرات هو أن تخضع مصر بالتدريج

لعادات وقوانين الولايات الأخرى فى الامبراطورية بالرغم من اختلاف العوامل الجغرافية . وقد كان من آثار الرغبة فى التوحيد والتبسيط أن اعتبرت اللغة اللاتينية لغة رسمية حتى فى الولايات التى كانت اليونانية لغة رسمية فيها مثل مصر . ولكنه لم يكن لهذا القرار أثر فعال فى مصر، فقد ظلت اليونانية لغة المحاكم والإدارات الحكومية . وكانت القرارات العامة تصدر بها . وربما كان الأثر الوحيد لهذا القرار أن المحاضر الرسمية للقضايا أصبحت تصدر فى إطار لاتينى أى أن العنوان والتاريخ وموضوع القضية كانت تكتب باللاتينية ، وقد يكتب الحاكم ملاحظاته باللاتينية ، أما أقوال الطرفين والشهود وأحكام القضاة فظلت تكتب باليونانية . .

وكذلك غيرت طريقة تأريخ الوثائق القانونية فاستبدلت بسنوات حكم الامبراطور سنوات القناصل مع ذكر موقع العام من دورة تقدير الضرائب . وكانت تحدث مرة كل خمسة عشر عاماً . وظلت هذه الطريقة متبعة حتى ألغيت القنصلية فى عصر يوستنيانوس وأعيد نظام التأريخ بسنوات حكم الامبراطور .

لم يكد يوستنيانوس يعتلى العرش حتى أدخل تعديلين على نظام الإدارة فى مصر ، قضى أحدهما على اعتبار مصر وحدة إدارية واحدة ، إذ أن هذا الامبراطور قصر نفوذ الحاكم العام على المقاطعة الأولى ، وسوى بينه وبين حكام المقاطعات الأخرى ، وجعلهم جميعاً خاضعين لدوق الشرق . أما التعديل الآخر فكان الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية وإسنادهما معاً إلى حكام المقاطعات فأصبح كل منهم فى

مقاطعته رئيس الإدارة والشرطة والقضاء والمالية ، لكن حاكم المقاطعة الأولى هو الذى كان يجمع فى الأسكندرية كل ضرائب مصر نوعاً ونقداً ، ثم يرسلها إلى بيزنطة .

وكانت سلطة حكام المقاطعات محـــدودة فكانوا يلجأون إلى القسطنطينية لتمدهم بالجند فى حالة قيام اضطرابات أو ثورات داخلية . وكان هؤلاء الحكام فى أول أمرهم أجانب ، ولكن رأى الأباطرة فيما بعد أن يختاروهم من بين اليونان المقيمين فى مصر ، وأقر هذا التصرف يوستين الثانى سنة ٥٦٩ . وكان الامبراطور يقر تعيين الحاكم الذى يرشحه الأساقفة وكبار الملاك وعظماء البلاد .

الجيش :

منذ قرر ديوقلديانوس فصل السلطتين المدنية والعسكرية ، لم يعد الجيش خاضعاً لحاكم مصر العام فقد أسندت قيادة الجند إلى قائد مستقل. وعندما ضمت ليبيا إلى مصر ، وبذلك أصبح عدد المقاطعات خمساً ، قسمت قيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص . وعندما عدل يوستنيانوس عن فكرة الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية لم يؤد ذلك إلى توحيد قيادة الجيش فى مصر وإنما إلى تقسيمه خمس وحدات بعدد المقاطعات وخضوع كل وحدة منها لإمرة حاكم المقاطعة ، وكان حكام المقاطعات يخضعون لقائد الشرق الذى كان مقره القسطنطينية .

وسرعان ما تفاقمت الأحوال لأن واجبات الحاكم المدنية أبعدته عن حياة الجيش وتبعاً لذلك عن متابعة تطور الفنون الحربية . ولم

يزد عدد رجال الجيش على ثلاثين ألف جندى ، وزعوا على المراكز الحربية المختلفة على الحدود وفى الداخل ثم فى المدن الكبرى . وكان الوجه البحرى محصناً تحصيناً قوياً فى الزوايا الثلاث للدلتا ، فى الفرما شرقاً والأسكندرية غرباً وفى بابيلون « مصر القديمة » حيث كانت بها حامية كبيرة منذ الفتح الرومانى .

وفى الوجه القبلى أنشئت على طول الوادى مراكز حربية فى المواقع الهامة مثل قفط ، وأسوان .

والواقع أن الجيش فى مصر فى العصر البيزنطى كان جيشاً هزيلا يقوده رؤساء غير أكفاء ، ويتكون من جنود مرتزقة لا يتصفون بأية صفة عسكرية . وكان واجبهم هو قمع الاضطرابات الداخلية ومساعدة الحكام على جمع الضرائب أى أن عملهم كان قاصراً على عمل رجال الشرطة . وقد أصبح للجندى حق الزواج واتخاذ مهنة مدنية أثناء مدة خدمته فى الجيش .

النظام المالى :

لما كانت بيزنطة — مثل روما — تستهدف ابتزاز ثروة مصر ، فإن الضرائب لم تتناقص طوال العصر البيزنطى عما كانت عليه من قبل ، بل ازدادت باطراد ، فساءت حال الناس وأصبح جمع الضرائب مهمة شاقة . ولم يتورع الموظفون عن استخدام مختلف ضروب القسوة لجمع الضرائب . ولذلك أخذ الناس فى الإلتجاء إلى الصحراء هرباً من المعاملة القاسية التى كان يعامل بها كل من تأخر فى دفع الضريبة ، فقد كانت

توقع عليه الغرامات والضرائب الإضافية ، ثم تصادر أملاكه ويزج به في السجن ،وويل لمن حاول المقاومة .

وكانت أكثر الالتزامات تقع على عاتق صغار الملاك الذين ازداد عددهم في العصر الروماني إلى أن اضطرهم جور الحكومة إلى النزول عن أراضيهم لبعض جيرانهم الأثرياء ذوي النفوذ ، فأخذت طبقة صغار الملاك تختفي تدريجياً خلال القرن الخامس حتى لم يعد لها وجود في بداية القرن السادس . ولم ينافس هؤلاء السادة إلا الأديرة التي أخذت تضيف باستمرار أملاكاً جديدة إلى ممتلكاتها ، وأصبحت أقاليم كاملة تخضع لسلطان الأديرة التي تمتعت بإعفاء أملاكها من الضرائب ، وازدادت تدريجياً الضياع الواسعة ، فأصبح معظم أراضي الامتلاك الخاص وجانب كبير من أراضي الدولة في قبضة فئة صغيرة من كبار ملاك الأراضي .

الحالة الاقتصادية :

كان قوام ثروة مصر حاصلاتها الزراعية وأهمها الحبوب والكروم والزيتون والنخيل والمواشي ، وكان الجزء الأكبر من هذه الحاصلات يدفع لتسديد الضرائب ويصدر الفائض عن الحاجة إلى خارج البلاد .

وعرفت مصر منذ العصر الروماني بصناعاتها الخزفية والعاجية والزجاجية وبخاصة المنسوجات .

كما عرفت مصر بصناعة أوراق البردي التي ظلت تجارتها مزدهرة حتى القرن السابع الميلادي ، وذخرت مصر بمناجم الذهب وبعض الأحجار الكريمة والمرمر والبازلت والجرانيت وغيرها . ولم يلتفت

الحكام البيزنطيون إلى استغلال المناجم فى مصر ، ولكنهم اكتفوا باستخراج المرمر والبازلت والجرانيت لتصديره .

وكان لأصحاب كل حرفة فى مصر نقابة ، تخضع لموظف مسئول عليه مراقبة الأسعار وتحصيل الضرائب . وكانت هناك أسواق كبيرة سنوية ، وأسواق أسبوعية فى القرى لبيع المحصولات والمنتجات .

وكانت مصر من الناحية التجارية هى الطريق الذى يتوسط الشرق الأقصى والغرب ، وكانت السفن تأتى من الصين والهند مارة بباب المندب محملة بالأفاويه والأخشاب والحرائر والأوانى الخزفية ، فتخترق البحر الأحمر ثم ترسو فى الموانى البيزنطية التى ورثتها بيزنطة عن البطالمة . وكانت أكثر البضائع تفرغ فى منطقة القصير ، ومن ثم تحملها القوافل إلى قفط ، ومنها تشحن فى مراكب تقطع المسافة بين قفط والاسكندرية فى إثنى عشر يوماً . وكانت البضائع الأفريقية تسير فى هذا الطريق قادمة من عدول — ميناء مملكة أكسوم الأثيوبية — وتتضمن الزمرد من بلاد البليميين ، والعاج من أثيوبيا ، والأبنوس من أواسط أفريقيا ، والذهب من المنطقة التى أطلق عليها الرحالة كوزماس اسم ساسو . ومنذ القرن السادس الميلادى اضطر التجار أن يسلكوا طريقاً آخر لأن الطريق القديم أصبح غير مأمون بسبب هجمات البليميين . فكانت البضائع تحمل فى البحر الأحمر حتى القلزم (السويس) ثم تتجه غربا فى القناة التى كانت تصل السويس ببابليون (تقابل الآن ترعة الاسماعيلية) . وكانت البضائع تحمل من بابليون إلى موانى البحر الأبيض المتوسط عن طريق النيل . وفى القرن السابع أصبحت قناة بابيلون غير صالحة للملاحة .

وكانت حاصلات بلاد ما بين النهرين وفلسطين تحملها القوافل فى طريق يصل إلى غزة فالفرما ، وهذا هو الطريق الذى أسماه الفراعنة « طريق حورس » وكانت القوافل تمر بمنطقة قريبة من القنطرة الحالية لتصل إلى بلبيس فأون (هليو بوليس) ومنها إلى الأسكندرية . وكانت البضائع تنقل إما على المراكب فى فروع الدلتا ، وإما فى قوافل من جمال وحمير ، ولم تستخدم الخيل لأنها كانت مخصصة للجيش منذ العصر الرومانى .

كانت التجارة فى العصر الرومانى مزدهرة فى مصر ، ولكنها أخذت تتعثر فى العصر البيزنطى ، فموانى البحر الأحمر مافتئت أهميتها تتضاءل ، حتى لم يبق على البحر إلا ميناء القلزم ، وذلك بسبب منافسة الفرس الشديدة التى أفضت إلى تحويل جانب كبير من التجارة الشرقية إلى الخليج الفارسى . وقد حدا ذلك بالامبراطور يوستنيانوس إلى العمل على التخلص من وساطة الفرس فى التجارة الشرقية وإعادة النشاط التجارى فى البحر الأحمر إلى سابق عهده ، لكنه لم يصب فى ذلك نجاحاً مذكوراً .

وفى عصر يوستنيانوس قام كوزماس التاجر الأسكندرى برحلة فى البحر الأحمر والخليج الفارسى ، وزار أثيوبيا والساحل الشرقى لأفريقيا حتى وصل زنجبار ، ثم عاد إلى مصر من رحلته هذه ، وعكف عند منتصف القرن السادس على كتابة ملاحظاته ومشاهداته القيمة فى كتابه المسمى « الطوبوغرافية المسيحية » . وكانت مصر محط أنظار رجال الفكر فى العالم فتوافدوا إليها لزيارة آثارها ، ولمشاهدة الحياة

الديرية المصرية ، ولتلقى العلم فى مدارسها الشهيرة فى ذلك العصر . نذكر منهم أسيوس القرطبى ، وجريجوريوس النزيانزى ، وصديقه باسليوس ، وأوسبيوس ، والقديس هيرونيموس (جيروم) ، وبولس الأوروسى ، وبطرس الإيبيرى ، وبلاديوس ، وروفينوس ، وكاسيانوس .

وقد شاهد هؤلاء الرجال مصر ووصفوها — كما نراها اليوم — بحقولها النضرة فى الدلتا تخترقها القنوات وفروع النيل ، كما شاهدوا الوجه القبلى وقد حدت الصحراء من منطقته المزروعة . وكانت القرى — كما كانت عليه فى العصر الفرعونى — لم تتطرق إليها الحضارة الإغريقية ، وكانت مصر تعج بالأديرة التى تضم بين جدرانها مئات من الرهبان .

وقد تدهورت الحال فى مصر وحاول الأباطرة عبثاً انعاشها بشتى الطرق الإدارية فكان الحكام على جانب كبير من الضعف ، ولا همّ لهم إلا جمع الضرائب ، وإرضاء الموظفين . وعم البؤس الفلاحين فاضطروا منذ القرن السادس أن يلتجئوا إلى كبار الملاك لحمايتهم ، فأضاعوا أملاكهم وحريتهم ، وكان فى ذلك قضاء على الملكية الصغيرة التى هى كيان اقتصاد الدولة المنظمة وقوام حياتها الاجتماعية . وازداد عدد كبار الملاك ، بالرغم من محاولات الأباطرة المتعددة فى منع هذا الازدياد والحد من تفاقم سلطانهم ، وتكونت الاقطاعيات عما كان له أكبر الأثر فى تدهور أحوال البلاد .

+ + +

كان إنهاك الشعب بالضرائب مصدراً من مصادر شقائه ، كما قاسى

من مغالاة الموظفين البيزنطيين المستمرة فى ارهاقه ليكونوا لهم ثروة خاصة على حسابه . وكانت مصر فى نظر الأباطرة حقلا كبيراً ينتج الحبوب فاستغلوها كما لو كانت مواردها لا تنتهى ، واستغلوا أهلها كما لو كانوا منجماً من ذهب لا ينضب معينه . ولم يهمهم أمر رخاء وادى النيل ، كما لم يهمهم أمر الأمن فى الأرياف ، ولا الفاقة والقحط والجوع الذى كان يجتاحهم بين وقت وآخر .

وقد جر البيزنطيون على مصر الخراب بسياستهم وبتصرف موظفيهم. وكان يوستنيانوس أول من أصدر مرسوما (المرسوم الثالث عشر) يشكو فيه من الوسائل التى يتخذها الموظفون ومن إهمالهم فى ترميم المنشآت العامة . وحاول أن يعالج الشقاء بصرف مقدار كبير من القمح لفقراء الأسكندرية ، وكان لم يصرف لهم أى شيء منذ أيام ديوقلديانوس .

ولم نسمع طوال الحكم البيزنطى أن أحد أبناء الشعب النابهين ظهر لينقذ البلاد من براثن الاستعمار الأجنبى ، أو أن يحد من نشاطهم الهدام ، أو يطالب بأحقيته فى الحكم .

وكان البطريرك — وقد سلمه الشعب قيادته — يمنعه مركزه الدينى وكرامته ووطنيته من الخضوع لإرادة الأباطرة ، ولكنه كان مضطراً لمسالمتهم .

وكان من أهم أسباب انهيار الامبراطورية مقاومة الشعب المستمرة فى تأدية الضرائب المطلوبة ، فكان يتهرب من دفعها ، ويترك أراضيه ، وصناعته ، ويفضل أن يجلب على نفسه الخراب على أن

يدفع الضرائب ، وكانت المعاملة الفظة التى يلاقيها من جامعى الضرائب تضطره إلى دخول الدير أو الانضواء تحت حماية كبار الملاك.

وشل هذا حركة الدولة المالية ، وزاد الطين بلة أن رجال الدين والرهبان أثقلوا كاهل الميزانية فضلا عن أنهم كانوا لا يدفعون شيئاً للدولة .

وكان لسخط الشعب وثوراته وعدم استتباب الأمن فى الأقاليم ، والاضطرابات فى العاصمة ، والاضطهادات ضد الوثنيين واليهود ، أثرها الفعال فى القضاء على التجارة والصناعة ، وذلك بالرغم من طبيعة الشعب فى حب العمل .

كانت هذه الأحوال كلها باعثاً للمصريين على الترحيب بالعرب ، يحدوهم الأمل فى أن يتمتعوا بحياة فيها رخاء وطمأنينة .

الفصل الأول

الحيـــاة السياسية

دخلت المسيحية مصر فى منتصف القرن الأول الميلادى ، فى وقت كانت فيه أفكار الناس حائرة مضطربة بين عشرات المعبودات التى قدمتها لهم الديانات المصرية واليونانية والرومانية بالإضافة إلى الديانة اليهودية وبعض الديانات الشرقية الأخرى . واستطاعت المسيحية أن تتغلغل فى روح المصرى ، بقدر ما كان مستعداً لقبولها ، بما ورثه من ممهدات لذلك فى ديانته المصرية القديمة .

وقد انتشرت المسيحية فى مصر انتشاراً سريعاً ، واستمرت فى النمو حتى قضت نهائياً على الوثنية وانتصرت على اليهودية حتى لم يتبق من اليهود سوى طائفة ضئيلة لا أهمية لها .

ولم يتم هذا الانتشار بسهولة ، وإنما تم بعد صراع جبار كان له ميدانان : أولهما الميدان الفكرى وقد قام بالدور الهام فيه مدرسة الأسكندرية اللاهوتية وعلماء المسيحيين وفلاسفتهم . أما الميدان الآخر فكان ساحة الاستشهاد ، وقد بدأ عمليا بهجوم الوثنيين سنة ٦٨ م على كنيسة الأقباط شرقى الأسكندرية وقتلهم القديس مرقس الرسول بعد أن جروه بالحبال فى شوارع المدينة حتى مزقوا لحمه .

وكان النزاع فى أولى صوره نزاعاً بين دينين : المسيحية والوثنية . ولكن ما أن نمت المسيحية فى مصر حتى أصبحت تمثل الشعب المصرى كله تقريباً ، وظل الحكام الرومان يمثلون الديانة الوثنية ، وظهر عندئذ بوضوح أن هـذا النزاع كان فى نفس الوقت صراعاً بين شعب وحاكميه ، أو بين أبناء وطن ومستعمريه . وهكذا تركز الشعور القومى وتوحد . وأخذ أقباط مصر يتمسكون بقوميتهم كراهة فى كل ما هو أجنبى عنهم ، فكان من نتائج ذلك فيما بعد ظهور الحركة الأدبية القبطية الخالصة التى قادها الأنبا شنوده (القرن الرابع الميلادى) لتنقية اللغة القبطية المصرية من الألفاظ اليونانية الدخيلة ، ورفض أدبيات اليونان وثقافاتهم .

وقد بدأ هذا الصراع بين مصر المسيحية وحكامها الرومان منذ القرن الأول الميلادى ولم ينته إلا بدخول العرب . وصار أباطرة الرومان أعداء سياسيين للشعب المصرى ، كما كانوا له فى نفس الوقت أعداء دينيين طوال العصر الرومانى . واستحكم العداء حتى كان الأباطرة المسيحيون أنفسهم يميلون إلى المذهب المخالف لمذهب مسيحى مصر ، وكما اضطهدت مصر على يد أباطرة الرومان الوثنيين اضطهاداً عنيفاً ، كذلك اضطهدت بنفس العنف من أباطرة الرومان المسيحيين . ولا يستثنى من ذلك إلا عدد ضئيل جداً من هؤلاء الأباطرة كانت فترات حكمهم بمثابة هدنة سرعان ما تنتهى لتستأنف مصر صراعها مع الحكم الرومانى من جديد .

ولكى تتضح لنا حلقات هذا النزاع يمكن أن نقسمه إلى ثلاث فترات مميزة وهى :

[ا] فترة الصراع مع أباطرة الرومان الوثنيين إلى سنة ٣١٣ م

[ب] فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين للهراطقة من سنة ٣١٣ إلى سنة ٤٥١ م

[جـ] فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين لبابا رومه من سنة ٤٥١ م — سنة ٦٤١ م

١ ـ الصراع مع الأباطرة الوثنيين

كان الأباطرة الوثنيون ينظرون إلى المسيحيين عامة كمصدر خطر عليهم ، فاضطهدوهم أينما وجدوا . ولكن الاضطهادات التى حلت بمسيحيى مصر كانت أبشع قسوة وأكثر عدداً ، لما اتصف به الأقباط من الصلابة والثبات على إيمانهم . وقد شعر الأباطرة وولاتهم أنهم أمام شعب شجاع متمسك بدينه ، لا تثنيه الإغراءات وطرق الاستمالة المتنوعة ، فاستخدموا معه كافة ألوان التعذيب الوحشية من حرق وجلد وصلب وسلخ ونشر ورجم وتقطيع أعضاء وتهشيم أسنان وضرب بالسيف وإلقاء إلى الوحوش المفترسة وسجن وغيرها مما لا يدخل تحت حصر من صنوف القسوة .

ومع ذلك لم تجد كل هذه الوسائل فى إضعافهم ، بل كان الناس يأتون من تلقاء أنفسهم إلى الولاة مجاهرين بمسيحيتهم ، حتى أن الأنبا أنطونيوس الراهب الناسك المتوحد ترك وحدته وأتى إلى الإسكندرية وهو شيخ فى حوالى السبعين من عمره لينال شرف الاستشهاد . وتطور الأمر بالولاة والأباطرة ، فبعد أن كانوا يعمدون إلى قتل الأفراد أخذوا يبيدون قرى ومدناً بأسرها وصار عدد الشهداء يقدر بمئات الآلاف .

وأشهر الاضطهادات التى مرت بالمسيحية فى مصر اضطهادات تراجان سنة ٩٨ م ، وسبتميوس سيفروس سنة ١٩٣ م ، ودكيوس

سنة ٢٤٩ م ، وفاليريان سنة ٢٥٤ م . ولكن أعنفها جميعاً كانت المذابح التى أنزلها ديوقلديانوس بالمصريين وكأنه قد جعل هدفه أن يفنيهم إفناء . ولذلك فإن الكنيسة القبطية تجعل بدء تقويمها سنة ٢٨٤ م وهى السنة التى تولى فيها هذا الإمبراطور حكم الإمبراطورية الرومانية، ويسمى هذا التقويم بتقويم الشهداء .

وقد قتل فى حركات الاضطهاد هذه بعض بطاركة الكنيسة القبطية وعدد وافر من أساقفتها ورهبانها وعلمائها ، وتعطلت مدرسة الديداسكالية اللاهوتية فى الاسكندرية مدة من الزمن . وأحرقت الكنائس والكتب المقدسة ، وفاضت الطرقات بالدماء . ومع ذلك صمد المصريون صموداً عنيداً عجيباً ولم يرضخوا للأباطرة الرومانيين ، بل كان عدد المؤمنين ينمو بإطراد ، وكثيرون كانوا ينضمون إلى المسيحية متأثرين بشجاعة المسيحيين واستهانتهم بالموت فى سبيل عقيدتهم .

ولما وجد الأباطرة أن كل هذه الاضطهادات لم تأت بنتيجة سوى زيادة قوة الكنيسة ، وأن المسيحيين قد سرت فيهم موجة طاغية من « شهوة الاستشهاد » حتى كانوا يثيرون الولاة بتوبيخهم على وثنيتهم ولعن أصنامهم لكى ينالوا إكليل الشهادة على أيديهم ، نقول لما لمس الأباطرة ذلك يئسوا أخيراً واضطروا إلى وقف هذه المذابح البشرية لعدم جدواها ، ولأنها خلقت عوامل خراب فى أجزاء الإمبراطورية وأدت إلى تعطيل مصادر الإيراد من زراعة وصناعة وتدهور الحالة الاقتصادية وانتشار المجاعات والأوبئة .

والكنيسة القبطية تطلق لقب خاتم الشهداء على بطريركها الأنبا بطرس الأول ، وكان السابع عشر فى عداد البطاركة ، ليس لأنه آخر شهيد مسيحى ، وإنما لأن قتله كان ختاما لحركات المذابح العامة التى استشهد فيها آلاف المسيحيين ، ولأنه أيضاً كان آخر من استشهد من بطاركة الإسكندرية . ولما قبض على هذا البطريرك وطرح فى السجن التف الشعب القبطى حول السجن ليمنع الجنود من إخراجه ليقتل . ولكن البطريرك خاف على شعبه من أن يعمل فيه الجنود سيوفهم من أجل حماية شخصه فسلم نفسه سراً للجنود بأن طلب من القائد أن ينقب جدار السجن من جهة لا يحيط بها المسيحيون ، فتم ذلك وسلم رأسه للجند فقطعوه ، وكان ذلك سنة ٣١١ م . ولم يعلم الشعب المحاصر للسجن بقتل البطريرك إلا بعد انصراف الجند .

فى كل ذلك ضرب الشعب المصرى وبطاركته أروع المثل فى الاستشهاد . وكان البطاركة وأساتذة المدرسة اللاهوتية يصدرون الرسائل والكتب حثاً للناس على الاستشهاد وتثبيتاً لهم فى دينهم . وكان أفراد الشعب يشجعون بعضهم بعضاً فى ساحات الاستشهاد ، ويزورون المقبوض عليهم فى السجون ، ويقفون إلى جوارهم أثناء المحاكمات ، ويحملون أجسادهم ليدفنوها ، كل ذلك فى غير خوف أو تردد . وكان الشهداء أنفسهم يقابلون الموت فى فرح . وكان الكثيرون منهم يترنمون فى بهجة خلال إقامتهم فى السجون أو أثناء سيرهم فى الطريق إلى ساحة الاستشهاد .

وأخيراً أوقف الأباطرة هذه المذابح ، ولم يلبثوا أن اعترفوا بالأمر الواقع وأباحوا للمسيحيين حق ممارسة عباداتهم دون التعرض لهم . وقد قرر ذلك الإمبراطور قسطنطين وهو الذى اعتنق المسيحية ، وفتح بابها أمام باقى الأباطرة . وهكذا انتهى على يديه عصر اضطهاد الوثنية للمسيحية . ولم تبق من الوثنية فى مصر سوى قلة ضئيلة ذابت بمرور الزمن .

ب ــ الصراع مع الأباطرة المناصرين للهراطقة

هذه الفترة من تاريخ مصر هى فترة آلام ومجــــد . وجه فيها المصريون دفة الفكر المسيحى وقادوا مسيحيي العالم فى المعرفة اللاهوتية . وليس أدل على ذلك من أن قانون الإيمان المسيحى الذى تعترف به كل الكنائس المسيحية هو من وضع وصياغة أثناسيوس الاسكندرى .

وفى خلال هذه الفترة وقف بطاركة الاسكندرية حفـاظاً على الإيمان القويم ، فقاوموا الهرطقات وهى الخرافات الدخيلة على الإيمان أو البدع الخارجة على الدين ، وحرموا الهراطقة من عضوية الكنيسة بعد أن أظهروا لهم وللعالم فساد معتقداتهم .

واشتهر اسم الإسكندرية فى العالم كله ، واعترفت بها المجامع العالمية (المسكونية) كنيسة من الكنائس الخمس الكبرى وهى كنائس رومه والإسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية وأورشليم . وإذا كانت لرومه أهميتها السياسية كعاصمة للإمبراطورية الغربية فإن الإسكندرية كانت أولى كنائس العالم فى التعليم المسيحى وفهم الدين وشرح قواعـده . وليس أدل على قوة الإسكندرية من أن بطاركتها حرموا ثلاثة من بطاركة المدينة العظمى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الشرقية بعـد أن أثبتوا عليهم أنهم مبتدعون فى الدين وهراطقة . وهؤلاء البطاركة الذين حرموا هم : مقدونيوس الذى حرمه تيموثاوس ، ونسطور الذى

حرمه كيرلس ، وفلابيانوس الذى حرمه ديسقورس . ووافقت المجامع على هذه الحروم ، وصدّق عليها الأباطرة ، كما حرموا من قبل أريوس فى مجمع نيقية . وكان لهم فى المجامع المسكونية مركزهم البارز فكانوا إما رؤساءها وإما العنصر القوى الموجه لها .

وقد اشتهر بطاركة الإسكندرية بشجاعتهم وثباتهم الوطيد على الإيمان . فبينما عصفت الأريوسية بكثير من أساقفة العالم الأقوياء حين ناصرها الأباطرة بقوتهم ، وبينما رضخ لها بعض الأساقفة تحت ضغط التعذيب عن ضعف لا عن اقتناع ، نرى أن أساقفة الإسكندرية لم يميلوا قيد أنملة عن الإيمان المستقيم متحملين النفى والعزل وألواناً شتى من الاضطهاد ووقفوا فى وجه الأباطرة وقفات مجيدة مشرفة . ولولاهم لصار العالم كله أريوسياً فاسد العقيدة .

وهذه المقاومة التى ناوأت بها مصر الأباطرة والولاة الرومان ، لم تكن مجرد حركات فردية من البطاركة ، وإنما كانت حركات شعبية شاملة يقوم فيها البطاركة بدور الزعامة ، كما كانت أحياناً حركات شعبية محضة بعيدة عن تأثير البطاركة أو قيادتهم . كان الشعب المصرى حريصاً أشد الحرص على إيمانه ، يرفض تدخل الرومان فى معتقداته . من أجل هذا استطاع أن يرغم الأباطرة أحياناً على الإذعان له ، كما استطاع أن يحتمل اضطهاداتهم فى صبر ورجولة . وليس أدل على ذلك من أنه فى حالة نفى البطريرك أو عزله أو سجنه ، كان الشعب بأسره — بدون بطريرك — يقوم بثورات عنيفة استطاعت فى كثير من الأحيان أن ترغم الأباطرة على سحب أوامرهم والإذعان لقوة الشعب .

ومن المظاهر الواضحة فى هذه الفترة أن الأباطرة كانوا كثيراً ما يعزلون البطريرك المصرى ، ويعينون بطريركا آخر فى مكانه (كبادوكيّا مثلا) إيمانه مخالف لإيمان الشعب المصرى ، تحميه قوة مسلحة يستطيع بها أن يدخل الاسكندرية عنوة ، وأن يصلى فى الكنائس آمناً من أن يطرده منها الشعب ، ثم يبدأ هذا البطريرك الدخيل فى اضطهاد المصريين وقتل الكثيرين منهم ليتبوأ منصب البطريرك المنفى . كل ذلك كان ولا شك يدفع بالمصريين إلى الشعور بقوميتهم المصرية وبأن الرومان عنصر أجنبى مستعمر يستخدم السيف لتحقيق أغراضه وأن البطاركة الدخلاء لايختلفون فى شىء عن الجنود الرومان المغيرين المحتلين لبلادهم . لذلك كانوا يرفضون أن يعاملوهم كبطاركة ، وقد أقدموا فعلا فى إحدى الثورات على قتل أحدهم وهو جورجيوس الكبادوكى .

هرطقة أريوس :

ظهرت هرطقة أريوس فى عهد الأنبا بطرس خاتم الشهداء ، أى فى زمن ديوقلديانوس الوثنى المضطهد . وقد حرم أريوس من الأنبا بطرس ، ثم استشهد بطرس دون أن يعفو عنه ، ولكن هذه الهرطقة لم تنل قوة ولا انتشاراً فى أيام الاستشهاد لانشغال الناس عنها بما هم فيه من ألوان العذاب البشعة . فلما استراحت المسيحية من الاضطهاد الوثنى التفتت إلى هذه الهرطقة وعملت على دحضها . فتجدد حرم أريوس مرة أخرى على يد الأنبا الكسندروس البطريرك التاسع عشر من بطاركة الاسكندرية . ولكن أريوس استمر على عناده ولم يتخل عن هرطقته . وانضم إليه كثيرون من مصر وغيرها من البلاد المسيحية مما أدى إلى عقد مجمع نيقية

المسكونى فى سنة ٣٢٥م بأمر الأمبراطور قسطنطين لمحاكمة أريوس وإرساء قواعد الإيمان .

وقد ضم هذا المجمع ٣١٨ أسقفاً من أساقفة العالم المسيحى ، كان من أبرزهم الأنبا الكسندروس بطريرك الاسكندرية وشماسه اثناسيوس الذى لم يكن يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره .

اثناسيوس وجهاده :

ولد أثناسيوس فى الاسكندرية سنة ٢٩٦ م من أبوين وثنيين . وجمع بين الثقافة الوثنية بحكم مولده ودراساته الأولى ، والثقافة المسيحية بحكم دراسته فى مدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، وأضاف إليهما ثقافة نسكية روحية ، إذ أنه تتلمذ ثلاث سنوات فى البرية على القديس الأنبا أنطونيوس وقد اختاره الأنبا الكسندروس البطريرك تلميذاً له ورسمه شماسا واصطحبه فى سنة ٣٢٥ م إلى مجمع نيقية .

وفى مجمع نيقية بدأت شهرة اثناسيوس العالمية . واستطاع هذا الشماس الشاب أن يقف معلماً للإيمان وسط ٣١٨ أسقفاً يمثلون جميع كنائس العالم ، وتمكن من تفنيد آراء أريوس فى براعة واقناع وتولى بنفسه صياغة قانون الإيمان مدققاً فى اختيار عباراته كلمة كلمة ، وأخذ مجمع نيقية بأقوال أثناسيوس ، وحرم أريوس وعزله من عضوية الكنيسة ، وأقر الأمبراطور هذا الحكم . وانفض المجمع بعد أن نظر فى أمور أخرى كانت معروضة عليه ، وأصدر عشرين قانوناً كنسياً .

وهذه الزعامة الفكرية رفعت من شأن أثناسيوس فى العالم المسيحى ،

وأهلته لأن يخلف الأنبا الكسندروس ويصير بطريركا للاسكندرية سنة ٣٢٦ م ، غير أنها ألبت عليه حسد ومؤامرات الأريوسيين ، وخاصة من كانوا من حاشية الإمبراطور ، مما جعل حياة الأنبا أثناسيوس سلسلة من الجهاد والآلام فى سبيل الدفاع عن الإيمان المسيحى . وذلك لأن هرطقة أريوس لم تنته بقرارات مجمع نيقية . فقد بذل أريوس جهده حتى ضم إليه بعضاً من الأساقفة ، وتظاهر بالتوبة وأقنع الإمبراطور قسطنطين بذلك فطلب من الأنبا إثناسيوس أن يقبل أريوس ، ولكنه رفض طلب الإمبراطور . وهكذا بدأت أول حلقة من حلقات صراع مصر ضد أباطرة الرومان المسيحيين .

وقد احتمل اثناسيوس فى سبيل ذلك النفى عن كرسيه خمس مرات فى عهود كل من قسطنطين وقسطنطيوس ويوليا نوس وفالنس . ووقف أمام كل هؤلاء الأباطرة كالصخرة الصلبة لا يلين . ولو لم يقف هذا الموقف الحازم لصار العالم كله أريوسيا . فلم يكن أثناسيوس زعيما شعبياً فى مصر فحسب ، يطيعه المصريون عن حب وثقة ويخضعون له ، بل كان فوق ذلك ممثلا للإيمان السليم فى العالم المسيحى كله ، تنظر إليه كل الكنائس كمعلمها الأول .

وفى هذا الصراع الذى اجتازه أثناسيوس ضد أباطرة الرومان كان الشعب المصرى كله يؤيده . وقد دلت الحوادث على أن الأمر لم يكن عملا فردياً من جانب البطريرك وإنما كان عملا جماعياً صادراً من الأمة كلها . فلما رفض البطريرك قبول أريوس ، أمر قسطنطين بنفيه عن كرسيه ، وأدى ذلك إلى قيام ثورة شعبية فى مصر بقيادة فيلومينوس ، واتهم اثناسيوس بأنه كان السبب فيها .

وبعـــد موت قسطنطين خلفه قسطنطيوس فى حكم الشرق ، وكان أريوسياً . فعين بطريركا أريوسياً على الكرسى الاسكندرى بدلا من اثناسيوس واسمه جريجورى . ولما لم يسمح له الشعب بدخول الاسكندرية ، زوده الأمبراطور بقوة عسكرية استطاع بها دخول المدينة ، واستمرت هذه القوة معه لحمايته خوفاً عليه من حركات الشعب . فعقدت كنيســـة الاسكندرية مجمعاً ضده من الأساقفة المصريين ، فتدخل سيريانوس قائد الحامية — وكان أريوسيا — وعمل على فض المجمع متوعداً بتدمير المدينة كلها . حينئذ انسحب اثناسيوس وهرب إلى رومه ، فارتجت المدينة لهذا البطل المصرى ذى المظهر البسيط الفقير . وانعقد مجمع فى رومه أقر براءة أثناسيوس ووجوب رجوعه إلى كرسيه ، كما انعقد مجمع آخر فى سرديكيا سنة ٣٤٣ م من مائتى أسقف حكم بشرعية رئاسة اثناسيوس لكرسى الاسكندرية . وكتب قسطنس إمبراطور الغرب إلى أخيـــه قسطنطيوس ، إمبراطور الشرق ، ليطلب منه ارجاع أثناسيوس ، وقد كان هدف اثناسيوس هو توحيد العالم المسيحى ضد الأريوسية بعد أن عاضدها الإمبراطور ، واســـتطاع بقوته وتأثيره أن ينال تأييد العالم المسيحى . أما فى مصر فكان الشعب فى اضطرابات مستمرة طيلة مدة غيابه عنهم ، حتى أنهم طردوا من الأديرة جميع الذين اعتنقوا المذهب الأريوسى وحطموا كنيسة الاسكندرية التى كان الأريوسيون قد استولوا عليها . وخاف الامبراطور من اندلاع حرب بينه وبين أخيه فكتب إلى اثناسيوس سنة ٣٤٦ ثلاث رسائل متتالية يطلب إليه فى احترام ولباقة أن يرجع إلى كرسيه . فرجع الأنبا اثناسيوس إلى مصر واستقبله الشعب استقبالا عظيما لم يحظ بمثله الأباطرة .

ولما كان الامبراطور لم يرجع اثناسيوس إلا بدافع الخوف ، فانه ما كاد يتوفى أخوه قسطنس حتى عاد إلى اضطهاد اثناسيوس وأمر بطرده من مصر . وعطل اثناسيوس هذا الأمر عاماً كاملا دون أن ينفذه حتى تقدم القائد سريانوس على رأس قوة كبيرة بأمر الامبراطور واقتحم الكنيسة التى كان يصلى فيها اثناسيوس . وعندما التف الشعب المصرى حول زعيمه وراعيه أعمل الجند سيوفهم فى الشعب أما الأنبا أثناسيوس فقد حمله بعض الرهبان وخرجوا به من الكنيسة ، وفتح الشعب أبواب بيوته لإخفائه . وأرسل الامبراطور رسله إلى مصر يحملون الاوامر بضرورة إحضار أثناسيوس حياً أو ميتاً ، لكنهم لم يستطيعوا العثور عليه .

وعقد الامبراطور مجمعاً فى ميلان سنة ٣٥٥م ضد الأنبا اثناسيوس ، وكانت غالبية أعضاء هذا المجمع من الاريوسيين ، وتنفيذاً لرغبة الامبراطور قرر المجمع عزل اثناسيوس ، فاحتج على ذلك أصدقاؤه من أساقفة الغرب .

وتلا ذلك تعيين جورجيوس الكبادوكى بطريركا على الاسكندرية بوساطة الاريوسيين ذوى الحظوة لدى الإمبراطور ، ثم اتخاذ اجراءات تعسفية ضد الأقباط أتباع أثناسيوس . فقد استخدم جورجيوس القوة العسكرية لإرغام الشعب على قبول المذهب الاريوسى، فلما رفض ، أعمل فيه القتل وشرد الكثيرين من الأساقفة المصريين ، وزج باثنى عشر منهم فى السجون ، واقترح على الامبراطور فرض ضريبة جديدة على المنازل فى الاسكندرية .

وفى عهد الامبراطور يوليانوس (٣٦١ — ٣٦٣) الذى ارتد عن المسيحية إلى الوثنية قام الشعب بثورة عنيفة أدت إلى قتل جورجيوس البطريرك الدخيل ، وعادأثناسيوس إلى كرسيه.ولكن هذا الامبراطور أيضاً أمر بطرده من الاسكندرية على اعتبار أنه ما يزال منفياً وأنه عاد بدون إذن ، وكتب إلى والى الاسكندرية مهدداً إياه بفرض غرامة كبيرة عليه وعلى موظفيه إذاظهر أثناسيوس فى أرض مصر كلها . ولكن أثناسيوس اختبأ فى قبر أبيه ستة أشهر ولم يغادر المدينة .

ولما تولى الامبراطور فالنس (٣٦٤ — ٣٧٨) وكان أريوسياً ، أمر بنفى أثناسيوس مرة أخرى . فرفض الشعب القبطى تنفيذ الأمر ولو أدى إلى استشهادهم جميعاً . وقامت ثورة عنيفة فى مصر ، واضطر الامبراطور إلى الإذعان لرغبات الشعب .

وقضى أثناسيوس السنوات السبع الباقية من حياته فى سلام حتى توفى سنة ٣٧٣م بعد أن احتمل الكثير من اضطهاد الاباطرة ومناصرتهم للأريوسية ، دون أن يخضع أو يلين فى سبيل المحافظة على الإيمـــان المسيحى فى العالم كله وصونه من الانحراف . وفى خلال هـــذه الاضطهادات التى نزلت به اختبأ فى مغارات الرهبان فى الجبـــال وفى أديرتهم فى الصحراء وفى بيوت المؤمنين فى الاسكندرية ومرة فى قبر أبيه ومرة أخرى فى بئر جافة.وكان خلال فترات اختفائه يعمل باستمرار ، فقد كتب كثيراً من المقالات اللاهوتية للرد على الهراطقة والدفاع عن موقفه وعن مجمع نيقية ، كما كتب رسائل تشجيع للمؤمنين وللرهبان ، وبفضل كل ذلك استطاع أن يؤلب العالم أجمع ضد الاباطرة .

واستمر الإمبراطور فالنس فى اضطهاده للمصريين بعد وفاة الأنبا أثناسيوس ، فنفى خليفته الأنبا بطرس الثانى (٣٧٣ — ٣٨٠) ، وعين بدلا منه لوكيوس الأريوسى وأيده بقوات الإمبراطورية . وأصدر فالنس قانوناً جديداً عمل على تنفيذه بالقوة ، وكان يقضى بإلغاء امتياز الإعفاء من الخدمة العسكرية الذى كان ممنوحا فيما مضى للرهبان وكذلك لسكان بعض المدن والمقاطعات التابعة للأديرة مثل الفيوم ، وإرغام كل هؤلاء على الانخراط فى الخدمة العسكرية بالقوة . وقد فضل كثير من هؤلاء المصريين أن يلقوا حتفهم وهم يقاومون الإمبراطور على أن يدخلوا فى خدمة قوات الإمبراطور .

فترة هدوء :

ومضت الاضطهادات العنيفة التى أنزلها الأباطرة الرومان بمصر وتحملها المصريون فى شجاعة وصبر إبان عهدى البطريركين الأنبا أثناسيوس والأنبا بطرس الثانى . ثم آن لمصر أن تتمتع بفترة هدوء عند ما مات الإمبراطور فالنس الأريوسى وتولى العرش الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير (من ٣٧٨ — ٣٩٥ م) وهو الذى اعترف بالديانة المسيحية ديانة رسمية للدولة . وساعد هذا القرار على إضعاف الوثنية ، فأمكن تحويل الكثير من معابدها إلى كنائس . وقد أرجع هذا الامبراطور الأنبا بطرس الثانى من منفاه ، ولما توفى هذا البطريرك سنة ٣٨٠ م اختار الشعب بعده الأنبا تيموثاوس بطريركا . وفى عهده وقع مقدونيوس أسقف القسطنطينية فى هرطقة حول الروح القدس ،

فاجتمع سنة ٣٨٠ م بجمع فى القسطنطينية من مائة وخمسين أسقفاً وقرر حرمه وحرم هرطقته . وقد حضر الأنبا تيموثاوس هذا المجمع ، وقام فيه بدور رئيسى .

ثم خلفه فى البطريركية الأنبا ثيوفيلوس (سنة ٣٨٥ — سنة ٤١٢) ، وكان عهده عهد سلام وعمران ، سواء فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس أو خليفته أركاديوس (سنة ٣٩٥ — سنة ٤٠٨ م) .

الأنبا كيرلس وبدعة نسطور :

ثم خلف هذين الإمبراطورين ثيودوسيوس الصغير (الثانى) ، وكان مؤمناً صالحاً تولى الحكم وهو صغير السن وحكم من سنة ٤٠٨ إلى سنة ٤٥٠ وكان محباً للكنيسة ولرهبان الأقباط ، يرسل إليهم ليتبرك بهم ويستشيرهم فى كثير من أموره الخاصة . وقد تمتع فى عهده الأنبا كيرلس الكبير بحرية واسعة فى التصرف ، حتى قيل أن بطاركة الاسكندرية فى تلك الفترة من التاريخ كانوا هم الذين يتحكمون فى تاريخ مصر ، بل أطلق البعض على هذا البطريرك « فرعون مصر » .

وكان القديس كيرلس هذا خليفة للقديس أثناسيوس فى المعرفة اللاهوتية وقيادة الفكر المسيحى . اعتلى كرسى البطريركية سنة ٤١٢ م فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس الصغير وتمتع فى عهده بشبه استقلال فى مصر ، ودافع عن الإيمان المسيحى . فبدأ بكتابة خطاب إلى الامبراطور ومنحه فيه البركة ، وشرح له الإيمان السليم ، ورد على الكتب التى كان قد وضعها قبلا الامبراطور يوليانوس ضد المسيحية .

ولما لاحظ الأنبا كيرلس أن نسطور بطريرك القسطنطينية قد وقع فى هرطقة لاهوتية أرسل إليه يتفاهم معه . لكن نسطور تمسك برأيه ورفض الإذعان لتعليم كيرلس . واستمال إلى جانبه يوحنا أسقف إنطاكية ، واعتمد على مالقيه من عطف الامبراطور الصغير ، ثم تحدى كيرلس علانية واتهمه بأنه عنيد وبأنه يقوم فى مصر بدور فرعون .

ولم يجد القديس كيرلس مناصاً من أن يستخدم سلطته كمعلم أول فى الكنيسة ، فكتب إلى أساقفة العالم يشرح هرطقة نسطور ، كما كتب إلى الإمبراطور ثيودوسيوس وأمه وإخوته ، وبعث برسالة إلى نسطور نفسه يشرح له فيها قواعد الإيمان وما يترتب على مخالفتها من جزاء .

وانتهى الأمر بعقد مجمع مسكونى فى أفسوس حضره مائتان من أساقفة العالم . وكان مندوب الإمبراطور فى المجمع نسطورياً وهو كانديديانوس . وقد عمل نسطور على تهـــديد الآباء المجتمعين فى أفسوس بأن دخل المدينة محاطاً بفرقة مدججة بالسلاح ، ورفض حضور جلسات المجمع على الرغم من استدعاء الآباء له أكثر من مرة . وإزاء ذلك اضطر المجمع إلى الاجتماع بدونه . وبعد قراءة رسالة القديس كيرلس ، حكم المجمع بخلع نسطور عن كرسيه وتجريده من رتبته الكهنوتية . وقد وافق الإمبراطور على خلع نسطور بمجرد وصول القرارات إليه .

وعندما أقام الآباء أسقفاً جديدا على القسطنطينية ، أرسل إلى القديس كيرلس خطاباً يقول له : « إن رغباتك فى إعلان الحق قد تحققت يا خادم الله . . . » وكذلك أرسل أسقف رومه إلى القديس

كيرلس يهنئه بقوله : « هنيئاً لك ، فأنت الرجل الجرىء المستهين بكل خطر » .

ويقول المؤرخ ستانلى فى كتابه : « محاضرات فى تاريخ الكنيسة الشرقية » ما نصه « لقد أصبح البطريرك السكندرى بعد مجمع أفسوس قاضى العالم ، تطاع أحكامه فى جميع أنحاء العالم المسيحى » .

وقد خلف كيرلس أيضاً كتباً كثيرة قيمة فى اللاهوت وفى تفسير الكتاب المقدس .

جـ — الصراع مع الأباطرة المناصرين لبابا رومة

وعند ما ارتقى مرقيانوس (سنة ٤٥٠ — سنة ٤٥٧) العرش أخذت العلاقات بين مصر وأباطرة الدولة الرومانية تدخل فى أعنف وأقسى صورها ، فاجتازت مصر طوال الفترة الباقية من حكم الرومان ، محتملة اضطهاداً مراً عنيفاً لم يتخلله سوى هدنة قصيرة فى عهد الملكين زينون وانسطاسيوس (٤٧٤ — ٥١٨) .

وقد بدأت هذه الفترة بخلاف بين كنيستى رومه والاسكندرية أدى إلى انقسام استمر من سنة ٤٥١ حتى يومنا هذا . وعرف أتباع كنيسة رومة باسم « الكاثوليك » بينما عرف أتباع كنيسة الاسكندرية ومن سار على نهجهم باسم « الأرثوذكس » ويتبعهم أيضاً السريان الذين أطلق عليهم فيما بعد اسم « اليعاقبة » .

ولما رفض الأنبا ديسقورس بطريرك الإسكندرية الموافقة على مسائل إيمانية أوردها لاون أسقف رومه حول طبيعة المسيح ، استخدم لاون نفوذ الإمبراطور فى نفى ديسقورس عن كرسيه وفى محاولة إرغام المصريين على قبول ما رفضه بطريركهم وحرمان كل من لا يوافق على مقالته حول طبيعة المسيح . وتعرض المصريون من أجل الثبات على إيمانهم لمذابح مروعة وخاضوا حركة استشهاد جديدة كالحركة التى خاضوها فى عهد أباطرة الرومان الوثنيين ، بل إن عدد الذين استشهدوا منهم على

أيدى المسيحيين ، من أتباع مذهب الطبيعتين المخالف لمذهبهم ، قد يزيد بكثير على عدد الذين استشهدوا على أيدى الوثنيين .

وكان الملك كلما اختار الشعب المصرى بطريركا قبطياً ، أمر بعزله عن منصبه ، فينفى من مصر أو يهرب مختفياً فى أرجائها ، ويعين بدلا منه بطريرك ملكى من أتباع مذهب الطبيعتين ، وينصب هذا البطريرك الدخيل بالقوة أملا فى إرغام الأقباط على قبول مذهب غير مذهبهم ، فإذا رفضوا هذا البطريرك الدخيل ومذهبه أعمل الإمبراطور فيهم القتل والسجن وكافة أنواع الاضطهاد .

ولكى يزداد الاضطهاد بشاعة لجأ الأباطرة منذ عهد يوستنيانوس إلى جعل البطريرك الملكى يجمع أيضاً إلى وظيفته الكهنوتية منصب الوالى المدنى لتجتمع لديه السلطتان معاً ، ولما كانت جميع كنائس الأسكندرية فى أيدى هؤلاء الدخلاء فإنهم استطاعوا أن يطردوا منها جميع البطاركة والأساقفة الأقباط وأن لا يمكنوهم حتى من دخول مدينة الأسكندرية ، ولما كانت فى أيديهم القوة العسكرية أيضاً فإنهم استخدموها فى اضطهاد الأقباط كما يشاءون . وقد استمرت هذه الحال حتى دخول العرب مصر ، فكان البطريرك القبطى الأنبا بنيامين هارباً من الرومان مختفياً فى البلاد والأديرة المصرية ، بينما كان المقوقس يجمع بين وظيفتى الوالى الرومانى والبطريرك الملكى ويضطهد المصريين .

وأمام كل هذه الأوضاع الشاذة التى اختلط فيها الاستعمار السياسى بالاستعمار الدينى وقف الشعب المصرى صامداً لا يلين ، يرفض كل بطريرك ، متحملا فى سبيل ذلك صنوف العذاب ، ويرفض كل معتقد

يخالف إيمان كنيسته القبطية ، ويؤيد بطريركه القبطى ويطيعه وهو غائب عن كرسيه مشرداً فى أرجاء القطر أو متنكراً فى مكان ما . وكذلك أظهر البطاركة شجاعة عجيبة وصبراً واحتمالا ، كلما اضطهدوا انتقلوا من مكان إلى مكان يثبتون الأقباط فى إيمانهم ويشجعونهم على الصمود أمام عنف العدو المستعمر .

فعل الأقباط هذا بينما خارت قوى غالبية أسقفيات العالم المسيحى ، واضطرت إلى الخضوع لسيطرة أباطرة الرومان وبابوات رومه . ولم تقف إلى جوار الأسكندرية غير أسقفية أنطاكية التى لاقت صورة مشابهة من الاضطهاد فتحمل أساقفتها العزل والنفى ، وتحمل شعبها القتل والاضطهاد فى سبيل الإيمان الواحد الذى دافع عنه ديسقورس الأسكندرى .

بدء انقسام الكنيسة :

لما قامت هرطقة أوطاخى ، انعقد بسببها فى أفسوس سنة ٤٤٩ م مجمع ، سمى مجمع أفسوس الثانى وكان رئيسه الأنبا ديسقورس بطريرك الأسكندرية . ولما مثل أوطاخى أمام هذا المجمع وسأله الأنبا ديسقورس عن إيمانه ، أنكر هرطقته إنكاراً باتاً ، وقدم إيمانه مكتوباً يوافق ما أمر به الآباء ، ولما نوقش شفاها أجاب بنفس الكلام أيضاً ، فعرض الأنبا ديسقورس أمر أوطاخى على آباء المجمع ، فقرروا براءته عما نسب إليه ، وقبوله فى الكنيسة هو ورهبان ديره الذين ناب أحدهم عنهم فى إثبات صحة إيمانهم . كما قرر هذا المجمع أيضاً حرم فلابيانوس أسقف القسطنطينية لثبوت تهم قدمت ضده .

ثم حدث أن دعا لاون أسقف رومه سنة ٤٥١ م إلى عقد مجمع مسكونى ودعا إليه ديسقورس ، وكان ديسقورس يرى ألا داعى لعقد مجمع جديد لأن الكنيسة كانت فى سلام من جهة الإيمان . ولكن الظاهر أن لاون أسقف رومة ملكه الحسد والغيرة من بطاركة الأسكندرية ، ودفعه ذلك إلى أن اتهمهم بأنهم لا هم لهم سوى عقد المجامع والترأس عليها ، فأراد فى هذا المجمع الجديد أن يدبر مكيدة للتخلص من ديسقورس .

ولما وصل ديسقورس إلى القسطنطينية حيث كان المجمع مزمعاً أن ينعقد ، دهش من وجود بعض من أساقفة النساطرة المحرومين مجتمعين مع الآباء فأمر بطردهم ؛ ثم قرئت على المجتمعين رسالة من بابا رومه ، فلما سمعها ديسقورس أخذ عليه وقوعه فى هرطقة الطبيعتين بينما قررت أقوال الآباء صحة مذهب الطبيعة الواحدة . ووقف وسط الأساقفة يشرح هذه المسألة فى قوة وإقناع حتى صاح الجميع « نحن على إيمان ديسقورس » . ولما رأى الإمبراطور مركيانوس ذلك — وكان حاضراً الاجتماع — أوعز إلى اتباع لاون بأن يؤجلوا جلسة المجمع إلى اجتماع آخر .

وفى خلال ذلك دعى ديسقورس إلى اجتماع خاص فى قصر الإمبراطور ، ولما أصر على إيمانه ، وعلى حرمه للأسقف لاون المنادى بمذهب الطبيعتين ، اعتدى عليه وسجن ، وانعقد المجمع فى خلقدونية بآسيا الصغرى سنة ٤٥١ م ، وتحت تهديد القوة بدأ الضغط على الأساقفة حتى قرروا : عقيدة الطبيعتين ، وعزل ديسقورس ، واتهامه بالأوطاخية

لتبرئته أوطاخى ، الذى كان قد رجع مرة أخرى إلى هرطقته ، وأثبت بذلك أن توبته الأولى أمام ديسقورس فى مجمع أفسس الثانى توبة زائفة، كما حكم المجمع أيضاً بتبرئة لاون أسقف رومه . ولما عرضت قرارات المجمع على ديسقورس ، حرم أعضاء مجمع خلقدونية كلهم ، بسبب انحراف الإيمان الذى وافقوا عليه . فنفى ديسقورس إلى جزيرة غاغرا . وأرسل المجمع الخلقدونى إلى أساقفة الكرسى السكندرى يدعوهم للإيمان بمذهب الطبيعتين فرفضوا وقرروا عدم الاعتراف بمجمع خلقدونية ، فبدأ الإمبراطور باستخدام القوة لإرغام رجال الدين وأفراد الشعب على قبول مذهب لاون والاعتراف بقرارات مجمع خلقدونية ، فلما رفضوا الأمرين قامت مذابح فى الأسكندرية وفى الأديرة قتل بسببها شعب كثير ، وانقسمت المسيحية إلى مذهبين ، ومع أن ديسقورس وقف وحده وخاف الأساقفة من الانضمام إليه بعدما رأوا ما فعلته القوة به وبشعبه ، إلا أن ثورات شعبية أخرى قامت فى أورشليم وبلاد أنطاكية احتجاجاً على قرارات مجمع خلقدونية ، فاستخدمت القوة ضدهم أيضاً واستشهد منهم عدد كبير .

وظل ديسقورس فى منفاه حتى توفى سنة ٤٥٧ م . وكان أصحاب مذهب الطبيعتين قد عينوا مكانه بطريركا من مذهبهم إسمه بروتوريوس، فرفضه الشعب المصرى وطرده من البطريركية ، حتى اضطر إلى الاستعانة بالقوة المسلحة للتمكن من دخول الكنيسة . وإذ أعرض الشعب عنه وبدأ يترك الكنيسة له ولمن يناصره من جنود الرومان ، أمر الجنود فأعملت فيهم السيوف فقتل فى ذلك اليوم عدد وفير ، كما قتل كثير من

الرهبان . وأحاط الحراس بهذا البطريرك الدخيل ، واتخذت بعض إجراءات مدنية، كإيقاف الألعاب الرياضية وغلق الحمامات العامة وتهديد الشعب بسحب امدادات القمح .

ولكن الشعب المصرى ظل متمسكاً ببطريركه المنفى إلى أن توفى فى منفاه سنة ٤٥٧ م . ولم تدم بطريركية بروتوريوس المكروهة أكثر من هذا التاريخ لأن الشعب السكندرى انتهز فرصة استدعاء قائد الحامية الرومانية إلى مصر العليا فى عهد الإمبراطور ليون الأول (سنة ٤٥٧ — ٤٧٤) وقام بثورة عنيفة تخلصوا فيها من بروتوريوس واختاروا راهباً قبطياً أقاموه بطريركا باسم تيموثاوس الثانى . ولكن الإمبراطور تحدى الأقباط وعزل الأنبا تيموثاوس الذى اختاره الشعب ونفاه كسلفه ديسقورس ، إلى جزيرة غاغرا ، وعين مكانه بطريركا من مذهب الطبيعتين اسمه سالوفاسيولس . وكان السبب فى ذلك هو أن الأنبا تيموثاوس الثانى جمع سينودا من أساقفته فى الكرسى السكندرى سنة ٤٥٨ م وأصدر قراراً بحرم مجمع خلقدونية . فاضطر ليون الأول أن ينفيه واستمر سبع سنوات فى منفاه إلى أن مات هذا الإمبراطور فرجع البطريرك الأسكندرى إلى كرسيه .

فترة هدوء :

ثم تمتعت الكنيسة بفترة هدوء خلال حكم زينون (٤٧٤ — ٤٩١) . واستطاع البطريرك القبطى الأنبا تيموثاوس بعد عودته من منفاه أن يعقد مجمعاً فى القسطنطينية كان من بين أعضائه بطرس القصار بطريرك

أنطاكية وقرر رفض المجمع الخلقدونى ورسالة لاون أسقف رومه . كما وزع منشوراً بذلك وبرفض عقيدة أوطاخى ووجوب التمسك بمذهب الطبيعة الواحدة . ولذلك فإن المؤرخ الكاثوليكى فلاديمير يقول فى كتابه عن التاريخ الكنسى أن « تيموثاوس الذى وضع هذا المنشور لم يكن أوطاخيا » .

ولما توفى الأنبا تيموثاوس الثانى ، خلفه الأنبا بطرس الثالث (٤٨٠ — ٤٨٨) ، وتمتعت الكنيسة بسلام فى عهده أيضاً ، وبذلت محاولات للتقريب بين كنيستى الأسكندرية والقسطنطينية ، وعقد من أجل ذلك مجمع فى القسطنطينية سنة ٤٨١ م انتصرت فيه الآراء القويمة التى تمسكت بها الكنيسة المصرية . وأصدر المجتمعون مرسوماً أسموه « كتاب الاتحاد » صدّق عليه الملك زينون . ولكن الأسكندرية اشترطت على أساقفة القسطنطينية رفض قرارات مجمع خلقدونية صراحة . وتبودلت رسائل بين أكاكيوس بطريرك القسطنطينيةوبين بطرس الثالث الأسكندرى ، رفض فيها أكاكيوس مجمع خلقدونيةوسماه « مجمع المخالفين » ، كما رفض رسالة لاون وآراء نسطور . فقبله بطرس الثالث ، فلم يرق هذا لبعض أساقفة الكرسى الأسكندرى واحتجوا على بطريركهم قائلين له « كيف قبلت أكاكيوس الذى حضر مجمع خلقدونية ووافق عليه ؟ » فرد عليهم بقوله « إنما قبلته لرجوعه عن ذلك الرأى » . ولكن الظاهر أن هذا الأمر كان انضماما وقتياً إلى مذهب الطبيعة الواحدة فى عهد ملك أرثوذكسى مثل زينون ، لأنه بمجرد موت زينون عاد اضطهاد مذهب الطبيعة الواحدة وعادت كنيسة القسطنطينية

إلى التمسك بقرارات مجمع خلقدونية ، وفى الواقع أن كنيسة الأسكندرية كانت صامدة فى موقفها ثابتة على الإيمان لا تزحزحها عنه الاضطهادات ، ولم تثبت معها فى ذلك سوى كنيسة أنطاكية .

وقد استمرت فترات الهدوء أيضاً خلال حكم انسطاسيوس (٤٩١ — ٥١٨) ، وفى هذا العهد توطدت أواصر التعاون بين كنيستى الأسكندرية وأنطاكية لاتفاقهما فى الإيمان الواحد .

عودة الاضطهادات

ولما تولى الحكم الامبراطور يوستينوس الأول (٥١٨ — ٥٢٧) وكان على كرسي الاسكندرية البطريرك تيموثاوس الثالث (٥١٧ — ٥٣٥)، حاول هذا الأمبراطور إرغام كنيستى الاسكندرية وأنطاكية على قبول معتقد مجمع خلقدونية . فلما رفض ساويرس بطريرك أنطاكية نفاه عن كرسيه فجاء إلى مصر ، وظل فيها هارباً يتنقل من مدينة إلى مدينة ومن دير إلى دير محاطاً بمحبة المصريين الذين قبلوه كزعيم معلم فى الكنيسة ، وظل هو من جانبه يشجعهم ويثبتهم فى الإيمان. كما أخذ هذا الامبراطور يضطهد الأنبا تيموثاوس بطريرك الاسكندرية وأمر بنفيه ، وجرت بسبب ذلك مذبحة هائلة قتل فيها نحو مائتى ألف نفس من الأقباط أرادوا حماية بطريركهم من الجنود الرومانيين الذين تمكنوا على الرغم من ذلك من القبض عليه وتم نفيه ، وبقى فى منفاه ثلاث سنوات رجع بعدها إلى مركزه ، واستمر مدافعاً عن الإيمان بالاشتراك مع ساويرس بطريرك أنطاكية حتى توفى سنة ٥٣٥ ميلادية فى عهد الإمبراطور يوستنيانوس الأول .

وخلفه على كرسى الإسكندرية الأنبا ثيئودوسيوس الأول (٥٣٥ — ٥٦٧) . وقد عرض عليه الامبراطور أن يقبل رسالة لاون ويساعده على نشرها فى مقابل أن تكون له الرئاستان « البطريركية والولاية » ويكون جميع أساقفة أفريقيه تحت طاعته . فرفض ذلك

وقال لرسل الامبراطور « ليس للملك سلطان إلا على جسدى . . . فمهما أردتم فافعلوه وأما أنا فأتبع إيمان آبائى » ، وترك كرسيه حسب أوامر الإمبراطور فى حالة الرفض وذهب إلى الصعيد ، فحاول الإمبراطور ملاطفته وإغراءه فلم يلن البطريرك فنفاه ، وأرسل بدلا منه بولس التنيسى ليكون بطريركا على الاسكندرية وقام برسامته مينا بطريرك القسطنطينية . فلما وصل هذا البطريرك الدخيل إلى الاسكندرية لم يقبله أحد وكانوا يسمونه « يهوذا الخائن » ، ولم يقبل أحد أن يصلى معه . فأرسل إلى الإمبراطور يخبره بذلك فأمره بغلق الكنائس لمدة سنة ولم يجد الشعب المصرى مكاناً للصلاة فبنوا كنيستين سراً فى المكان المعروف باسم السوارى غربى الاسكندرية . ولم تبق للبطريرك القبطى المنفى سوى هاتين الكنيستين لأن الإمبراطور أمر بألا يدخل كنائس الاسكندرية إلا أتباع البطريرك الدخيل ، وأقام الأنبا ثينودوسيوس باقى حياته فى المنفى .

وقد خطا يوستنيانوس خطوة أوسع فى اضطهاد المصريين وإرغامهم على قبول مذهب الطبيعتين ، فبعد وفاة بولس التنيسى عين من قبله أبوليناروس بطريركا على الاسكندرية وحاكما لها فى نفس الوقت . وقصد من ذلك أن يجعل فى يد الرئيس الدينى القوة العسكرية التى تمكنه من تنفيذ أوامره . وقد بدأ هذا البطريرك الدخيل عهده بمذبحة كبرى قتل فيها عدد كبير من أفراد الشعب الذين رفضوا اتباع عقيدته ، وحاولوا رجمه فى الكنيسة حين وقف ليخاطبهم . وبهذه المذبحة تمكن من التخلص من أعنف العناصر المعارضة . وهذا العمل لم يجعل من هذا

البطريرك الدخيل سوى حاكم مدنى ، لأنه لم يتمكن من ممارسة شىء من السلطة الدينية التى ظلت فى يد البطريرك الشرعى الذى اختاره الشعب . ولكن أساقفة الأقباط لم يستطيعوا على الرغم من ذلك أن يظهروا فى الاسكندرية .

ولذلك فعندما رسم البطريرك القبطى الأنبا بطرس الرابع سنة ٥٦٧ بعد وفاة سلفه ثينودوسيوس ، أقام فى كنيسة تبعد عن الأسكندرية بمقدار تسعة أميال ثم اختفى فى دير تابور بالقرب من الأسكندرية متنكراً فى درجة أسقف لا بطريرك ، ودبر أمور الشعب من هناك . ولما سمع بذلك أهالى أنطاكية قلدوا كنيسة الأسكندرية ، فرسموا لهم بطريركاً بعد وفاة القديس ساويرس أسموه ثيئوفانوس أقام مختفياً فى دير أمونيوس لأن أصحاب الطبيعتين هناك منعوا الأساقفة الأرثوذكس من دخول مدينة أنطاكية متبعين معهم نفس السياسة التى قامت فى الأسكندرية .

ثم قام البطريرك الأنبا داميانوس الأسكندرى وخلف بطرس الرابع سنة ٥٦٩ م وأقام مدة رئاسته التى بلغت ستاً وثلاثين سنة مختفياً فى دير تابور أيضاً فى درجة أسقف .

ثم تولى البطريركية انسطاسيوس سنة ٦٠٥ م وزاد اضطهاد الرومان للأقباط حتى أن الرومان حرموا على الأقباط دخول الكنيستين اللتين بنوهما سراً غربى الأسكندرية .

ثم تولى البطريركية الأنبا أندرونيقوس سنة ٦١٦ م واستطاع أن يقيم فى الأسكندرية معتمداً على قوة أسرته التى كانت غنية جداً

وتتولى بعض المناصب الإدارية الكبيرة فى المدينة . ولم تستطع قوة الرومان أن تخرجه منها . ولعل السبب فى ذلك هو أن الدولة الرومانية كانت وقتذاك فى حالة يرثى لها ، إذ اجتاحت جيوش الفرس كثيراً من أراضيها . ولما ازداد ضغط الجيوش الفارسية على الحدود الشرقية للامبراطورية هاجر كثير من أهالى سوريا وفلسطين لاجئين إلى مصر، وعجز يوحنا البطريرك الملكانى عن إعالتهم وحمايتهم فهرب من المدينة وترك البلاد للفرس . وقد قتل الفرس آلافاً من الرهبان الأقباط وخربوا كثيراً من الأديرة .

وفى سنة ٦٢٢ م تولى بطريركية الأسكندرية الأنبا بنيامين الذى عاصر الفتح العربى لمصر . وبعد تسع سنوات من بطركته عين هرقل سنة ٦٣١ م بطريركاً ملكانياً (ملكياً) إسمه كيرس وهو الذى اشتهر باسم المقوقس،وجمع لهذا البطريرك بين وظيفته الكهنوتية وبين وظيفة الوالى ليكون أقوى على قهر الأقباط وضمهم إلى مذهب القائلين بالطبيعتين . ويبدو أن هرقل لم يكن موفقاً فى اختيار هذا الرجل الذى كان ضيق الصدر ، فإنه لما عسرت عليه استمالة المصريين إلى مذهبه المخالف اضطهدهم إضطهاداً رهيباً مما نفرهم منه فى وقت كانت الامبراطورية فيه محتاجة أشد الاحتياج إلى استرضاء الأقباط بسبب حرج موقفها فى حربها مع الفرس .

أما البطريرك القبطى الأنبا بنيامين فاختفى هو وسائر أساقفة مصر جميعاً ، وظل يتنقل بين الكنائس والأديرة دون أن يقع فى أيدى الرومان .

واستغل هرقل هـذه الفرصة فأقام أساقفة من الملـكانيين فى بلاد مصر كلها من الأسكندرية إلى أنصنا ، فنـكلوا بالأقباط تنـكيلا شديداً .

ولـكن هذه الحالة لم تستمر طويلا إذ أتى عمرو بن العاص بجيوشه العربية إلى مصر ، وفتحها سنة ٦٤١ م ولما استتبت له الأمور أعطى أمانا للأنبا بنيامين ، فرجع إلى كرسيه فى الأسكندرية بعد غيبة دامت ثلاث عشرة سنة ، وبدأ يعيد إلى الـكنيسة أولئك المسيحيين الذين ضغط عليهم هرقل فى قبول قرارات مجمع خلقدونية ، وصرح عمرو له بفتح الـكنائس وإقامة العبادة فيها .

الاضطهادات العشرة

تؤرخ الكنيسة القبطية لشهدائها برقم الاضطهاد ، وقد بلغ عددها عشرة :

الأول : هو الاضطهاد الذى وقع على مسيحيي الأسكندرية فى عهد نيرون الملقب بالملك الدموى من سنة ٦٥ إلى سنة ٦٨ ميلادية ، حدث هذا عند ما اختطف الوثنيون القديس مرقس من كنيسة بوكاليا بالأسكندرية ، وهجم الدهماء على المسيحيين فسلبوا أموالهم وأعملوا فيهم القتل .

وكان أول دم شهيد أريق على أرض مصر هو دم القديس مرقس وذلك فى ٣٠ برمودة الموافق ٢٦ إبريل سنة ٦٨ ميلادية ودفنت رفاته فى الكنيسة التى أنشأها بالأسكندرية ، ثم نقل جسده فيما بعد إلى مدينة البندقية .

الثانى : اضطهاد دوميتيان (٨١ — ٩٦م) الذى أمر باضطهاد أتباع المسيح ، وذلك بعد أن خيل إليه أن أحد أقرباء المسيح سيأتى ويسلبه مملكته ، ثم عنّ له أن يستدعى كل من يمت للمسيح بقرابة إلى رومه . ولما واجههم ، وجدهم جماعة من الفقراء والمعوزين فأخلى سبيلهم ، وسمح لهم بالعودة إلى بلدهم .

الثالث : اضطهاد تراجان (٩٨ — ١١٧م) كان تراجان يخشى من

التآمر على عرشه فأصدر سنة ٩٩م أمراً يمنع فيه الاجتماعات السرية ، ولما كان المسيحيون لا ينقطعون عن الاجتماع للعبادة ، فقد أمر سنة ١٠٤م باضطهادهم أينما وجدوا ، وأخذ فى استئصال قادة الشعب من رجال الدين ، وممن استشهد فى هذا الاضطهاد الأنبا كردونوس البطريرك الرابع من باباوات الكرسى الأسكندرى .

الرابع : اضطهاد هدريانوس (١١٧ — ١٣٨م) أباح هدريانوس للرعاع أن يقتلوا المسيحيين دون أن يقدموا للمحاكمة مهما بلغ عدد الضحايا ، وكان يرمى من وراء ذلك أن يمنحه الكهان الوثنيين لقب « حامى الوثنية الأعظم » ، واحتج الكتاب المسيحيون على هذا التصرف غير القانونى ، وكان لكتاباتهم صدى فى بلاد الإمبراطورية ، واضطر هدريانوس إلى التراجع عن إجراءاته التعسفية .

الخامس : اضطهاد مرقس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠ م) كان متعصباً للفلسفة الرواقية ، فأخذ يرغم المسيحيين على اعتناقها بقوة السلاح ، وكان يخشى على سلامة الإمبراطورية من انتشار المسيحية ، ولهذا كان يعامل المسيحيين بكل قسوة ، ولم يفد احتجاج القديس ميليتون أسقف ساردس وأثيناغوراس الفيلسوف فى منعه من الاستمرار فى الاضطهاد .

السادس : اضطهاد سبتيموس سويروس (١٩٣ — ٢١١م) لم يكد المسيحيون يتنفسون الصعداء فى عصر كومودوس (١٨٠ — ١٩٢م) حتى تولى الحكم سبتيموس سويروس خلفاً له ، فأمر على أثر ثورة

اليهود بقتل كل من يدين بالمسيحية ، وذلك بمرسوم أصدره سنة ٢٠٣م واستمر ابنه كراكلا (٢١١ — ٢١٨م) فى تنفيذ ما بدأه أبوه ، وكان الخطيب ليونيدس . والد أوريجانوس ممن استشهد فى هذا الاضطهاد .

السابع : اضطهاد مكسيموس التراكى (٢٣٥ — ٢٣٨م) أعلن سخطه على المسيحيين وبخاصة رؤساء الدين وأمر باضطهادهم .

الثامن : اضطهاد دكيوس (٢٤٩ — ٢٥١م) أصدر أمراً سنة ٢٥٠ باستئصال المسيحيين وإرغام أتباعها على اعتناق الوثنية .

التاسع : اضطهاد فاليريان (٢٥٢ — ٢٦٨م) أصدر أمراً سنة ٢٥٧ بنفى الأساقفة من كراسيهم إلى جهات بعيدة ، ولما رأى أن ذلك لم يؤثر فى سير العمل فى الكنيسة أمر باضطهاد المسيحيين وقتل كبار رجال الدير ومصادرة أموال المسيحيين ، ومنع الفرسان المسيحيين من التمتع بكافة حقوقهم المدنية .

العاشر : اضطهاد ديوقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥م) كان أكثر الاضطهادات عنفاً ، أثاره ديوقلديانوس سنة ٣٠٣ حين أصدر مرسوما بهدم كنائس المسيحيين وحرق كتبهم المقدسة ، وأخذ يبطش بالأساقفة ويقتل المسيحيين . وكان هذا آخر الاضطهادات ، إذ فى سنة ٣١٢ م قرر قسطنطين (٢٧٤ — ٣٣٧م) الاعتراف بالدين المسيحى فى الإمبراطورية . وفى سنة ٣١٣ م وقع مرسوم ميلان الذى أباح فيه الحرية الدينية .

الفصل الثاني

الحيـــاة اللغوية

اللغة هي الأداة التي يعبر بها الإنسان عن أفكاره ومشاعره . ولا يحدث أن يرتقي شعب ، وتتنوع الأعمال فيه ، دون أن تكون له لغة غنية تيسر له التعبير عن مختلف نواحي الحياة . ولما كانت مصر القديمة قد وصلت إلى درجة كبرى من الرقي ، فقد تطورت لغتها حتى سايرت أسباب الحضارة فيها بألفاظها المتنوعة وقواعدها التي تضبط التركيب ، وتعبيراتها ومصطلحاتها في شتى العلوم . كما كان أدبها الواسع في الميدان الديني والعلمي والشعبي ، وغير ذلك من الميادين داعياً إلى نشاط اللغة وحيويتها . واللغة كائن يولد ويكبر ويتطور .

مراحل تطور اللغة المصرية :

مرت اللغة المصرية في خمس مراحل :

١ — اللغة المصرية القديمة : وهي لغة الأسر من الأولى إلى الثامنة منذ حوالي سنة ٣٤٠٠ ق . م إلى سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد . ولقد وصلنا منها وثائق رسمية وجنائزية ونصوص مقابر ، ومنها نصوص الأهرام ، وسير لبعض الأشخاص .

ولهذه اللغة خصائص ميزتها فى بعض تعبيراتها واملائها .

ب — اللغـة المصرية المتوسطة : هى لغـة الآداب من الأسرة التاسعة إلى الأسرة الثامنة عشرة ، منذ حوالى سنة ٢٤٠٠ ق . م إلى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد . وصارت لغة الأهلين نحو ثلثى هذه الحقبة .

حـ — اللغـة المصرية الحديثة : وهى لغة الأهلين من الأسرة الثامنة عشرة إلى الرابعة والعشرين اى منذ حوالى سنة ١٥٨٠ إلى سنة ٧١٠ قبل الميلاد . ووجد مدوناً بها وثائق خاصة بالمعاملات والرسائل ، وبعض الحكايات والقصص الأدبية ، ودونت بهـا نصوص تاريخية للأسرة التاسعة عشرة وما بعدها ، على أننا لم نعثر منها إلا على القليل . وقد بدأ فيها ظهور كلمات دخيلة .

ى — الديموطيقيـة : وهى المستخدمة فى الكتب والوثائق التى كتبت منذ الأسرة الخامسة والعشرين إلى آخر عصر الرومان من سنة ٧٠٠ إلى سنة ٤٧ قبل الميلاد .

هـ — القبطية : هى اللغة المصرية القديمة فى صورتها الأخيرة من مراحل تطورها .

ظلت اللغة المصرية القديمة فى مراحلها المختلفة لغة الكتابة والتخاطب فى مصر حتى قيام دولة البطالمة فأصبحت اليونانية لغة البلاد الرسمية . وبمضى الزمن أخذ كثير من المصريين يتعلمونها ويستخدمونها فى وثائقهم وخطاباتهم حتى ولو كانوا يجهلونها . ولا جدال فى أن اللغة المصرية

كانت لاتزال تستخدم فى الكتابة الدينية والتخاطب فضلا عن تحرير العقود والرسائل . ولا يفوتنا أن نذكر أن غالبية المصريين كانوا لا يستطيعون كتابة أو قراءة أى لغة وبطبيعة الحال كانوا لا يعرفون اليونانيـة .

وقد صحب ازدياد استخدام اللغـة اليونانية ونقص استعمال الديموطيقية تدوين هذه اللغة بحروف يونانية . وتبع وضع الأبجدية القبطية تنظيم هذه اللغة المصرية الدارجة لرفعها إلى مصاف اللغـــات الأدبية ، وأدى ذلك إلى أن ظهرت اللغة القبطية بآدابها منذ أواسط القرن الثالث الميلادى .

اسمهـا : سميت بالقبطية لأن المصريين فى ذلك الوقت كانوا يسمون أقباطاً ، وقبطى معناه مصرى .

كانت الشعوب السامية المجاورة تسمى مصر قديماً باسم « مصر » . هكذا تسمى فى الأشورية وسميت فى الآرامية « مصرين » وفى العبرية « مصرايم » وعرفها العرب باسم « مصر » . والمصر فى اللغات السامية بمعنى الحد وقدأطلقت الشعوب السامية ، من أشوريين وآراميين وعبريين وعرب على البلاد المتاخمة لهم « مصر » كما أسموا سكانها بالمصريين . ثم أطلقت كلمة مصر على القطر عامة . (ومما يستحق الملاحظة أن كلمة فينيس فى اللاتينية بمعنى حد ، وقد أطلق الرومان هذه الكلمة بصيغة الجمع على القطر أيضاً) .

وسمى القبط مصر كيمى « السواد » أى الأرض السوداء . وأسماها الآشوريون فى نقوشهم المسمارية « هيكوبتاه » وهو الإسم الذى كان

يطلقه المصريون على عاصمة مملكتهم منف ومعناه « بيت روح بتاح » ، وكان اطلاق هذا الإسم على المملكة كلها من سبيل اطلاق العاصمة على القطر كما تعونا ذلك فى المحافظات الآن .

وسمع اليونان هذا الإسم فأخذوه عنهم منذ عصور قديمة وأسموها « ايجبتوس » وورد اسمها هذا عدة مرات فى شعر هوميروس . فإذا حذفنا علامة الرفع (و س) فى اليونانية ثم الحركة الأولى التى ظنها العرب حرف استهلال خاص لنا بعد ذلك اسم قبط .

أما المراحل التى اجتازتها كتابة هذه اللغة فهى :

ا — الخط الهيروغليفى : الذى اكتسب صفة القدسية ، ولذا أعطى هذا الإسم « هيروغليفى » المأخوذ من كلمتين يونانيتين هما « هيروس » أى مقدس ، و « غليفوس » أى نقش .

ب — الخط الهيراطيقى : وهو أيسر من الهيروغليفى بعض الشىء واستعمله الكهنة فى كتاباتهم . والتسمية مأخوذة أيضاً من اللغة اليونانية ، ومعناها « خاص بالكهنة » .

ح — الخط الديموطيقى : وهو من اليونانية ومعناه « خاص بالشعب » . فالخط الديموطيقى هو الصورة المبسطة التى أخذ الشعب المصرى يستخدمها فى كتاباته فى العصور المتأخرة .

ى — الخط القبطى : قامت محاولات فردية من المصريين لتدوين لغتهم بحروف يونانية ، وكان ذلك فى العصور الوثنية ، بدليل العثور

على نصوص قبطية من العصر الوثنى لغتها مصرية وحروفها يونانية وبها بعض حروف ديموطيقية ، وهذه النصوص محفوظة فى كل من متحفى باريس ولندن .

وكافة هذه المحاولات كانت وليدة الحاجة لسبب أو لآخر ، دون أن يكون لذلك أى شأن بالمسيحية . وانتهى الأمر بأن استطاع شخص أو جملة أشخاص استحداث ما نسميه الآن بالخط القبطى وكتبوا لغتهم بحروف يونانية وأضافوا إلى الأبجدية اليونانية سبعة أحرف أخذوها من الخط الديموطيقى ، تعبر عن أصوات ليس لها مقابل فى اللغة اليونانية وهى الأحرف السبعة : شاى (ش) وفاى (ف) وخاى (خ) وهورى (هـ) وجنجا (چ) وتشيما (تش) وتى (ت) .

اللهجات القبطية : المعروف أن اللغة المصرية القديمة كانت تضم لهجات شتى ، وهذا ما نراه واضحاً بين سكان مصر الآن . وهـذا طبيعى فى اللغات إذا انتشرت فى منطقة واسعة وتوالت عليها العصور . ولا ريب أن بعض الاختلافات التى كانت قائمة فى المصرية القديمة كانت أساساً لما وجد منها فى اللهجات القبطية المتعددة .

قسم العلماء اللهجات القبطية إلى قسمين :

١ — لهجات مصر السفلى .

ويعرف منها الآن البحيرية نسبة إلى البحر أى لغة الأراضى المجاورة للبحر أو ربمـــا كانت منسوبة لمحافظة البحيرة . وهى اللهجة

الأولى التى وصلت إلى درجة اللغة الأدبية وكان ذلك فى مدينة الاسكندرية .

ب — لهجات مصر العليا :

١ — الصعيدية نسبة إلى صعيد مصر وهى لهجة طيبة ، وأصبحت فيما بعد لهجة الوجه القبلى ، وكانت تسمى بالطيبية .

٢ — الفيومية ، انتشرت فى الفيوم .

٣ — الأخميمية ، تكلم بها أهل مدينة أخميم ثم أفسحت المجال للصعيدية .

هذه اللهجات الأربع هى اللهجات الرئيسية وتفرع عنها بعض لهجات :

١ — المنفية ، سادت فى منطقة منف وحلت محل البحيرية .

٢ — الأخميمية الفرعية أو الأسيوطية . انتشرت فيما بين البهنسا وأسيوط وقد اشتقت من الأخميمية .

٣ — البشمورية ، اشتقت من البحيرية وقد ذكرها العلماء الأقباط ولكنها ضاعت، ويرجح أنها كانت لهجة قبطية تكلم بها اليونان فى شرقى الدلتا وكتبت بحروف يونانية عادية .

٤ — واشتق من الفيومية لهجة أخرى عثر على نص منها فى البجوات بالواحات الخارجة ويرجح أنها كانت خاصة بالواحات .

هذا وكانت اللهجة الصعيدية تتكون من عدة لهجات اندمجت بعضها فى بعض كما نلاحظ هذا أيضاً فى البحيرية ، ودليلنا على ذلك وجود صيغ مختلفة لكلمة واحدة . ويلاحظ على اللغة القبطية بالنسبة للمصرية القديمة ما يأتى :

١ — أنها كتبت بأبجدية يونانية بعد أن كانت تكتب بحروف معظمها ديموطيقية.

٢ — دخلت عليها مفردات وتعبيرات يونانية، وبخاصة فى العصر المسيحى.

٣ — أبدلت بعض الحروف فى الكلمات وبخاصة الحروف السائلة ل م ن ر ، كأن يقال « لس » بدلا من « نس » أى لسان ، كما دخل القلب على بعض الكلمات مثل « اتبى » بدلا من « بت » أى سماء .

٤ — كتبت القبطية بالحروف الصامتة والمتحركة ولم يعرف الخط القديم إلا الحروف الصامتة .

٥ — حملت لنا القبطية كلمات لم نعثر عليها فى المصرية القديمة .

٦ — وأهملت القبطية كلمات مصرية قديمة .

اللغة القبطية والبرديات العربية :

ان دراسة البرديات العربية تعبر عن الحياة فى مصر منذ الفتح العربى حتى منتصف القرن الرابع الهجرى (أواخر القرن العاشر الميلادى) بما فيها من معاملات ، وبما تدل عليه من تقاليد فتظهر ما كان عليه عامة الناس وخاصتهم فى تلك الفترة .

ولعل أول ما دونت الألفاظ القبطية الدخيلة كانت فى أوراق البردى. والقدر الذى وصلنا من هذه الألفاظ والتعبيرات ضئيل، لأن مانشر إلى الآن من البرديات لايعدو الألفين بردية ، والعدد المقدر للبرديات العربية فى العالم ستة عشر ألف بردية .

إن النصوص التى كتبها عامة الناس سواء من القبط أو من العرب ، كتبوها فى أكثر الأحيان بالألفاظ والتراكيب التى كانوا يستخدمونها فى عصرهم ، وهى لذلك تكشف عن مرحلة هامه فى تاريخ اللغة العربية فى مصر فى القرون الأولى من الفتح العربى . وتدل لغة البرديات على مدى اختلاط العرب بالأقباط والأثر اللغوى الذى خلفوه فى مصر ، كما تدل على تأثر الأقباط بالعربية تأثراً لم يكن سريعاً .

انتشر العرب فى مصر وأفادوا من زرعها ، ونعموا بخيرها ، وكانوا لايزرعون وإنما يزرع لهم القبط ، ومن ثم كان الاختلاط الحتمى الذى فرضه الواقع وأقرته المصلحة بين العرب وبين الأقباط .

اتخذ هذا التأثر سبيله فكان أسرع فى الوجه البحرى منه فى الوجه القبلى .

وخلف التأثر والامتزاج سمات فى ألفاظ اللغة العربية المصرية وتراكيبها كما خلف ألفاظاً دخيلة .

وإذا تركنا ماوردمن ألفاظ قبطيةفى الأوراقالبردية نجد أن ماوصل إلينا بعد ذلك مدوناً لايكاد يذكر . وقد أراد بعض العلماء أن يعزوا أسباب ذلك إلى الطابع القومى ، ولكن بقى علينا أن ننظر إلى أن تعذر كشف أثر اللغة القبطية فى عربية مصر يرجع إلى طبيعة مصادرنا ، فلو أن مصر منيت بكاتب مثل الجاحظ الذى أولع بتصوير لغة الطبقات الدنيا والوسطى بين سكان المدن فى القرن الثانى الهجرى فى العراق والحجاز ، لأفادنا بما كان قائماً فى مدن مصر من العلاقات اللغوية ، لأنها كانت لاتختلف كثيراً عن البصرة والكوفة وغيرهما .

ونجد العربية فى مصر قد تأثرت بالإصطلاحات المصرية ،فالمصريون هم الذين يحددون الجهات بالبحرى والقبلى بدلا من الشمالى والجنوبى .

وقد وجدنا فى البرديات العربية بعض الألفاظ القبطية ، كما وجدنا آثراً للجهات القبطية فى مثل إسم العلم أركليدس فقد ورد الكليدس ، وظاهرة إبدال الراء لاما موجودة فى لهجة الفيوم القبطية . ومما ورد فى البرديات من آثار القبطية فى التركيب العربى استعمال المفرد بدل الجمع، فى مثل تسعة دينار بدلا من دنانير وأربعة ألف بدلا من أربعة آلاف.

ووردت كذلك فى البرديات العربية ألفاظ لاتينية ويونانية معظمها من ألفاظ الإدارة التى دخلت القبطية وشاعت عند الناس، ومنها دخلت العربية مثل مازوت أى قاضى وجمعوها على موازيت ، وطبل أى لوحة وجمعها طبول وهى من اليونانية ، وأقنيز من اليونانية ومعناها فنجان ثم أطلقت على مكيال معيّن ، وأسيه وهى الآن وسيه من اليونانية أى ملك أو التزام ، ونواتيه أى البحارة من اللاتينية . وكذلك وردت أسماء الشهور القبطية فى البرديات العربية بطريقة نطقها القديم .

احتضار اللغة القبطية :

أخذت اللغة العربية تناهض اللغة القبطية ابتداء من القرن التاسع الميلادى ، وطبيعى أن حلول العربية محل القبطية فى الكتابة سبقه انتشار العربية كلغة للتخاطب بين أفراد الشعب ، فقد أصبحت العربية لغة الدواوين ، ثم صارت لغة التعليم ، وقد جاء القرن الثالث عشر والعلماء القبط يؤلفون فى اللاهوت باللغة العربية مما يدل على أنها كانت لغة العلم

السائدة وكان يفهمها أغلب سكان مصر ، ويتكلم بها أغلب سكان الوجه البحرى . وظلت القبطية لغة التخاطب فى الوجه القبلى حتى القرن السابع عشر.

ويقول المقريزى فى القرن الخامس عشر عند كلامه عن دير موشه « والأغلب على نصارى هـــذه الأديرة معرفة القبطى الصعيدى وهو أصل اللغة القبطية ، وبعدها اللغة القبطية البحيرية . ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لايكادون يتكلمون إلابالقبطية الصعيدية » . ويقول ماسپرو « ولكن من المؤكد أن ســـكان صعيد مصر كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس عشر » .

وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر انتهى الكلام بالقبطية ، ولكنها بقيت لغة الكنيسة تستخدم فى الصلوات وقراءات الكتب المقدســـة . ويعرفها بعض الأفراد من الأقباط ، فى الأديرة أو المدن ، عن طريق اتصالهم بهذه الصلوات واهتمامهم بها ، هذا طبعاً غير العلماء الغربيين والشرقيين المهتمين بدراستها .

أثر اللغـة القبطيـة خارج مصر :

بالرغم من أن اللغة القبطية لغة قومية ، إلا أننا نرى لها آثاراً عالمية ، فهذه بعض ألفاظ قبطية انتشرت فى اللغات الأوروبية مثل الواحـــة (وازيس) ، وكومى أى الصمغ (فى الايطالية جوما ، وفى الفرنسية جوم وفى الانجليزية جم) ، والسوسن ، والأيبيس وشيهات ، وهى منطقة وادى النطرون (اسقيط) ، ومنها إسم الناسك فى اللغات الأوربية) ،

والآبنوس » ولعل كلمة طوبة أى (الآجر) مثل من الألفاظ التى نعرف تاريخ انتشارها فى الخارج ، فقد أخذها العرب عند فتحهم لمصر عن القبطية وحملوها معهم إلى الأندلس فدخلت الأسبانية . ثم فتح الأسبان جنوب أمريكا فانتشرت هناك لفظة (أدوبى) ثم اتصل الأمريكيون الشماليون بأمريكا الجنوبية فدخلت الكلمة فى اللغة الإنجليزية بشكلها الأسبانى .

ومن أثر القبطية أيضاً أن القديسين كيرلس المسمى بالفيلسوف وأخاه ميتودوس عندما وضعا الأبجدية الروسية فى القرن التاسع الميلادى أدخلا بعض الحروف القبطية المأخوذة عن الديموطيقية فى الأبجدية الروسية .

اللغة القبطية وأثرها على العربية :

بالرغم من أن اللغة القبطية قد اختفت أمام العربية إلا أن ذلك لم يحل دون أن تضفى شخصيتها المصرية على اللغة العربية وأن تصبغها بصبغة جعلت اللغة العربية فى مصر ، تظهر بمظهر خاص يختلف عنه فى الأقطار العربية الأخرى ، كما ظلت العادات المصرية القديمة حية حتى الآن فى مصر . فمن الكلمات القبطية التى دخلت العربية أسماء لمسميات مثل برسيم ، أردب ، يم ، أم قويق ، حاق ، تلبس ، بقوطى ، كعك ، قلة ، كحة ، لقمة ، لبشة ، ماجور ، تمساح . نبوت ، مقطف ، ننوس ، نونو ، ناف ، بصارة ، رقاق ، مشنة سلة ، سمان ، طورية ، ذهبية ، تندة ، سنط ، شرش ، شونة ، شوب ، شوطة ، شورية ، حلوم ، خن ، رمان ، شوشة ، شبورة ، بلح .

ومن أنواع السمك : البورى ، والبنى ، واللبيس ، والراى ، والشال ، والشلبه ، وفى لغة الأطفال كلمات قبطية مثل تاتا ومعناها يمشى ، أمبو أى ماء ، واوا معناها ورم ، بيبه أى برغوث . ومنها أفعال مثل شأشأ ، فرفر ، هلوس ، هوّش ، لـكلك ، نـكت ، نط ، فتفت . دمس (دفن) ، شلشل ، شن ، بشبش .

وكذلك تعبيرات مثل : الورور للعجل الصغير ، ولقلاق ووجبة (الساعة أو الوقت) والكاس بمعنى الألم ، وتوت للحاوى بمعنى اجتمع ، وليلى بمعنى افرح ، ونحن مازلنا نرددها فى « ليلى ياعينى » ، وبح بمعنى انتهى ، وكانى مانى وأصلها كانى نانى أى سمن وعسل .

ومنها استعمال أداة الاستفهام فى آخر الجملة ،

ولعل من أهم مظاهر القومية المصرية مانلحظه فى أسماء المدن المصرية ، فبالرغم من اختفاء الأسماء المصرية القديمة منذ تسعة قرون وهى مدة سيادة اللغة اليونانية ، ورغماً من فرض أسماء يونانية على المدن المصرية مثل : أبولوتوبوليس لقوص ، وأكسيرنخوص للبهنسه ، وليتوبوليس لأوشيم ، وبانوبوليس لأخميم ، وهرموبوليس للأشمونين ، وهيراكليوبوليس لأهناس ، فإن الأسماء المصرية لهذه المدن لم تلبث أن ظهرت ثانية بعد دخول العرب ، وكان ذلك لمحافظة اللغة القبطية على هذه الأسماء القديمة .

الفصل الثالث

الحيـــاة الفكرية

١ ــ الانتاج العقلى والفلسفة

الحالة الفكرية وقت ظهور المسيحية :

كانت الإسكندرية قد وصلت إلى درجة عظيمة من الأهمية ، حتى أصبحت تعتبر بحق العاصمة الثقافية للعالم وقلب العالم الهلينى النابض . وكانت مكتبتها تزخر بمن يفد إليها من العلماء والفلاسفة وطلاب المعرفة ، لا من بلاد اليونان فحسب وإنما من كل جهات العالم ، يجلبون معهم علوم بلادهم وثقافتها . وازدحمت المدينة بأناس من شتى الأجناس والأديان والثقافات ، حتى لكأنها كانت معهداً ثقافياً .

كان فيها المصريون الوطنيون بدياناتهم المعروفة ومعابدهم وآلهتهم المصرية ، وإلى جانبهم عاش اليونان بلغتهم العالمية وفلسفاتهم وآلهتهم الإغريقية والمتمصرة ، والرومان بأنظمتهم وقوانينهم وثقافتهم وعباداتهم ، وكان هناك اليهود يمثلون عنصراً هاماً فى المدينة ولهم فيها حى خاص ومعهم دياناتهم الإلهية وكتابهم الموحى به وتقاليدهم الموروثة ، وكانت هناك أجناس أخرى شرقية فى المدينة لها أيضاً عباداتها وثقافتها .

وقد التقى كل أولئك فى شوارع المدينة وأسواقها . وقامت مناقشات دينية وعقلية حامية كانت تؤدى الحماسة لهـــا أحياناً إلى معارك ومنازعات . كما تقابل علماء كثيرون فى المكتبة وتناقشوا فى خصومة حيناً وفى تفاهم حيناً آخر ، وكانوا يأخذون من الحكام مساعدات مالية ، وهكذا تأسست مدرسة الإسكندرية المشهورة وأخذت الإسكندرية مكان أثينا كمركز أدبى للعالم اليونانى .

ومن ذلك كله حدث لون من الامتزاج الفكرى تولدت عنه أفكار وفلسفات ومذاهب جديدة . بل حدثت محاولات للتوفيق بين الأديان المتعددة فى حركة عرفت باسم « التوفيق » .

واليهود الذين كانوا منعزلين عن الأمم ، بقيت جماعة منهم محتفظة بتقاليدها بينما اختلط الباقون بغيرهم من الشعوب ، وعملوا على التقريب بين ديانتهم والفلسفات القائمة فمزجوا بين الاثنتين . حتى أنه فى القرن الثانى قبل المسيح كتب أرسطوبولس تفسيراً للتوراة حاول فيه التوفيق بين تعاليمها والفلسفات المعاصرة ، بل قال إن فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو تأثروا بكتابات موسى النبى واعتمدوا عليها فى كتاباتهم . وفيلون الفيلسوف اليهودى الاسكندرى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى حاول هو أيضاً التوفيق بين العقل والوحى ، وتأثر بالأفلاطونية ، وكان له تأثيره على المسيحيين فيما بعد .

ولكن كل هذه المحاولات للتقريب أضافت إلى الأفكار المتضاربة أفكاراً جديدة ، ولم تستطع أن تصل بالناس إلى الحق الواحد ،

بل ظل العقل البشرى حائراً يتساءل أين توجد الحقيقة . واحتدم النزاع بين فلسفات وفلسفات ، وبين أديان وأديان ، وبين الفلسفة والدين ، وبين العقل والإيمان .

الصراع بين المسيحية والفلسفة الوثنية :

وسط كل ذلك ظهرت المسيحية فى الإسكندرية حوالى سنة ٦٥ م وانتشرت فى فترة وجيزة فى مصر كلها . وكان عليها لكى تبقى أن تصمد أمام اضطهادات الحكام ، وأن تتصارع مع كل الأديان والفلسفات والمذاهب سواء منها الوثنية أو اليهودية .

وهكذا حدثت مفارقة عجيبة فى الاسكندرية ، فاتخذ كل من الفريقين أسلحة الآخر ليحاربه بها . فدرس المسيحيون الفلسفة للرد على الفلاسفة ودرس الوثنيون الكتاب المقدس لمهاجمة المسيحيين . وهكذا نرى « كلسوس » و « بورفيريوس » وغيرهما يهاجمون المسيحية فى تعاليمها التى درسوها فى الأناجيل محاولين أن يخطئوها تاريخياً وفلسفياً . ومن ناحية أخرى نرى ديديموس الضرير يكتب كتابه عن « الثالوث » مستشهداً فيه بكثير من آراء الفلاسفة والعلماء والشعراء الوثنيين .

واتهم الوثنيون المسيحيين لدى الحكام باتهامات كثيرة فى تعاليمهم وعبادتهم وأخلاقهم ، وأدى هذا الصراع إلى ظهور فئة من العلماء يدافعون عن المسيحية نذكر من بينهم أثيناغورس أحد أساتذة المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية ، فقد كتب دفاعه إلى مرقس أوريليوس قيصر سنة ١٧٦ م .

كذلك حاول أعداء المسيحية أن يؤلفوا كتباً على نسق الأناجيل لها أبطال ، سيرتهم تشبه سيرة السيد المسيح حتى يخلطوا المسيحية بتلك الأساطير الخرافية . ومن ضمن كتب هؤلاء « حياة فيثاغورس » التى ألفها بورفيريوس وهى لا تختلف كثيراً عن حياة أبولونيوس التى كتبها فيلوستراتوس . ورد المسيحيون على كل ذلك معتمدين على التاريخ والعلوم والفلسفة واللاهوت فى ردودهم .

هذا الصراع بين الفلسفة والدين ، أعنى بين العقل والإيمان الذى يسلم بالمعجزات وأمور فوق العقل ، كان من نتائجه ظهور فلسفة الغنوسية ، وفلسفة الأفلاطونية الحديثة .

الفلسفة الغنوسية :

الغنوسية وتاريخها ومدارسها : الغنوسية معناها « المعرفة » واسمها مأخوذ من الكلمة اليونانية «جنوسس» ، وقد ميز «الغنوسيون» أنفسهم بهذا الاسم عن « المؤمنين » ، وغالوا فى رفع قيمة المعرفة والحط من قيمة الإيمان . هم وضعوا العقل فوق الإيمان ، والفلسفة فوق الدين ، وجعلوا الفكر الخالص رقيباً على الوحى ، يستطيع أن يرفض منه بعض المعتقدات ، وينكر المعجزات والأشياء الخارقة للطبيعة .
واعتقدوا أن الإنسان يتكون من ثلاثة عناصر : روح ونفس وجسد .
وقسموا الناس حسب العنصر السائد فيهم إلى ثلاث طبقات :

(ا) الروحيين وهم الغنوسيون الذين رفعتهم المعرفة إلى مستوى عال فوق المادة والحس ، ويسودهم العنصر الإلهى .

(ب) الجسدانيين وهم العوام الخاضعون لتأثير المادة والحس .

(ح) النفسانيين وهم متوسطون بين الاثنين ، يمكن أن ترفعهم المعرفة إلى درجة الغنوسيين الروحيين ، ويمكن أن تنحدر بهم المادة إلى درجة الجسدانيين .

وهكذا نرى أنهم حسبوا أنفسهم أرستقراطية عقلية قريبة من الله ، وحطموا من قيمة المادة جداً واعتبروها شراً . فسلك بعضهم طريقة تصوفية تحـــاول السمو عن المادة والحس ، كما انحدر بعضهم إلى الدعارة زاعمين الانتصار على الحس بالانهماك فيه . وكان الغنوسيون فى مصر من النوع الأول الناسك .

ليس معنى هذا أن الغنوسيين كانوا جميعهم وثنيين ، وإنما كان منهم مسيحيون أيضاً . ولكن هؤلاء نظروا إلى نزعتهم التى اختاروها واعتبروا أنفسهم أشخاصاً روحيين ، على حين اعتبروا باقى المسيحيين نفسانيين فقط غير قادرين على النهوض من الإيمان الأعمى إلى المعرفة الحقيقية ، واعتبروا باقى الناس عاديين أو جسدانيين . ورأوا أن نظرية الفداء فى المسيحية هدفها تخليص الإنسان من المادة والجسد ، وقالوا إن هذا كان هو عمل المسيح الفدائى . ولكن لأن الغنوسية قد اشتملت على عقائد كثيرة تخالف الإيمان المسيحى فقد طردتها الكنيسة من صفوفها ، وابعدت من يؤمنون بتلك العقائد ، واعتبرت الغنوسية بذلك الوضع هرطقة وحاربتها .

ومؤرخو الفلسفة يرجعون الغنوسية إلى أيام تلاميذ السيد المسيح ،

ويرون أن سيمون الساحر الذى حرمـــه بطرس الرســول كان أحد مؤسسيها الأول . على أن الغنوسية لم تظهر فى قوتها إلا منذ القرن الثانى الميلادى ، حين انتشرت فى مصر .

وقد تكونت مدارس كثيرة للغنوسية فى سوريا ومصر وآسيا الصغرى وفى رومه أيضاً وفى بلاد الغال وقرطاجنة ، وانتشرت هـذه المدارس على الأخص فى البلاد التى كانت فيها المسيحية على اتصال قريب باليهودية والوثنية . وتفرعت منها فروع تميز كل منها بطابع خاص مثل النيقولاويين والماركونيين والمانيين . ولكن أقوى وضع ظهرت فيه الغنوسية كان على يد فيلسوفها الكبير فالنتينوس الأسكندرى الذى يقول عنه « شاف » إنه « أسس أكبر مدرسـة للغنوسية ، وكانت له فلسفة خاصة ، ولهذا تمثل طريقته أحسن وضع انتشرت فيه الغنوسية » .

فالنتينـوس :

هو مؤسس أعمق وأمتع الأنظمة الغنوسية وأكثرها تأثيرا ورواجاً . كان مصرى الجنسية واسكندرى الثقافة درس الغنوسية ونشرها فى طابع جديد شاعرى له جمال فنى . وبعـد أن قضى فترة فى الاسكندرية ذهب إلى رومه حيث قوبل بترحاب كبير . وأسس هناك مدرسة غنوسية واجتمع حوله عدد كبير من تابعيه ، وكان من أوائل الغنوسيين الذين علّموا فى رومة . وقضى بهـا حوالى سبع عشرة سنة ، أو أكثر من ذلك على رأى بعض المؤرخين ، ثم تركها وذهب إلى قبرص حيث أسس مدرسة أخرى للغنوسية لاقت رواجاً كبيراً حتى قال

عنه القديس إبيفانوس أنه « كاد يقضى على الإيمان هناك » ، واستمر هناك حتى مات حوالى سنة ١٦٠م . وكان له تلاميذ كثيرون سواء فى إيطاليا أو فى بلاد الشرق ، ومن أشهرهم برديصان وبطلميوس وهراكليون وثيودوتس ، وقد نشروا تعاليمه فى صور متنوعة . وقد هاجم تعاليمه كثير من كبار رجال المسيحية فى العالم ، منهم ترتليانوس وأوغسطينوس فى إفريقية ، وإيريناوس فى بلاد الغال ، وإبيفانوس فى قبرص وغيرهم .

الوثائق القبطية :

عثر الباحثون على وثيقة قبطية هامة عن الفلسفة الغنوسية تدعى « حكمة الإيمان » يرجع تاريخها إلى وقت ازدهار فلسفة فالنتينوس فى أواخر القرن الثانى الميلادى أو أوائل الثالث . وتسجل هذه الوثيقة العقائد العامة لنظام فالنتينوس . وموضوعها مقابلة خيالية بين السيد المسيح وتلاميذه حدثهم فيها عن كثير من الموضوعات اللاهوتية ، وأسلوبها شاعرى مؤثر .

كما عثر سنة ١٩٤٦ فى نجع حمادى على حوالى ألف صفحة مكتوبة بالقبطية على البردى بها ٤٧ رسالة فى الغنوسية . وهى محفوظة الآن فى المتحف القبطى بمصر القديمة . وقد أبدى العلماء اهتماماً شديداً بها لأنهم يتوقعون أن تلقى ضوءا على هذه الفلسفة ، وأخذوا فى نشرها .

الغنوسيون الأرثوذكس :

إذا كان قد انضم إلى الغنوسية كثير من الوثنيين واليهود أو من

المسيحيين الذين طردتهم الكنيسة واعتبرتهم هراطقة ، فإنه قد انضم إليها أيضاً جماعة من المسيحيين من كبار معلمى الكنيسة . ولكن هؤلاء لم يؤمنوا بمعتقدات الغنوسية التى حاربتها المسيحية ، وإنما كان لهم رأيهم الخاص فى الغنوسية بمعناها السليم الذى لا يتعارض مع الدين . وعلى رأس هؤلاء القديس اكليمنضس الاسكندرى أحد مشاهير من تولوا إدارة المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية . وقد وضع كتاباً مقسماً إلى ثمانية كتب وسماه « المتنوعات » وعارض فيه الغنوسية الوثنية . . وقال إن الغنوسية الحقيقية يجب أن تبنى على أسس من الإيمان والمعرفة العليا التى هى الحكمة الإلهية . ولم يهاجم الفلسفة كما هاجمها غيره من المسيحيين الذين اعتبروها خطرة على المسيحية ، بل إنه أعلن أن « الفلسفة خادمة اللاهوت » ، وأن الله أعطى الفلسفة لليونان وغيرهم من الأمم لتعدهم للإيمان المسيحى كما كانت الشريعة بالنسبة لليهود . وهكذا اعتبر الفلاسفة « أنبياء الوثنية » . ودعا المسيحيين إلى دراسة الفلسفة ، وأخذ ما فيها من حقائق . ورأى أن الغنوسى الحقيقى يجب أن يتزود بكافة أنواع المعارف لتساعده على الإيمان وتثبته فيه . واعتبر أن جميع المسيحيين الحكماء المتعمقين فى فهم الحق هم الغنوسيون الحقيقيون أو الغنوسيون الأرثوذكس .

وصار هذا المبدأ من أهم أسس التعليم فى المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، وسار عليه مشاهير مديريها من أمثال : أوريجانوس وديديموس الضرير وغيرهما ، ونشروه بين الجموع التى لا تحصى من تلاميذهم .

ولكن جميع هؤلاء — على عكس فلاسفة الغنوسية الآخرين —

قد وضعوا اللاهوت فوق الفلسفة ، والوحى فوق العقل ، ونادوا بعدم تناقض الإثنين .

الأفلاطونية الحديثة :

وهى فلسفة جديدة ولدت فى الإسكندرية على يد « أمونيوس سقاص » . وقد قدمت للبشرية فكرة إمكان الإتصال المباشر باللاهوت ، وانتشرت انتشاراً عظيما حتى وصلت إلى جميع العقول من عقل الإمبراطور إلى عقل العبد . وانتشرت بسرعة وسط العامة الذين استطاعوا أن يتفهموها ، وكذلك بين كبار المثقفين فاهتم بدراستها وأعجب بها فلاسفة عظماء مثل القديس أوغسطينوس . وكان لها تأثيرها العميق على كثير من قادة المسيحية .

أمونيوس سقاص :

ولد من أبوين مسيحيين فى الإسكندرية ، وكان من أسرة فقيرة . ولكنه بعد فترة من الدراسة والتأمل أنشأ مدرسة فلسفية فى الإسكندرية ، نشر فيها تعاليمه التى أخذها من دراسة نقدية لأفلاطون وأرسطو حاول فيها أن يوفق بين آراء هذين الفيلسوفين . وليس ممكناً أن نحدد مقدار التأثيرات المسيحية التى اشتملت عليها فلسفة سقاص ، ولكننا نقول أن الفلسفة أخذت على يديه اتجاهاً يختلف عن اتجاهات سابقيه . لأن الأفلاطونية الحديثة لم تكن مجرد فلسفة وإنما كانت أيضاً نظاماً دينياً ، أو كما يقول البعض إنها « حولت الهيلينية إلى لاهوت » .

وقد توفى أمونيوس سقاص حوالى سنة ٢٤٣م دون أن يخلف لنا كتباً . وإنما استطعنا أن نفهم فلسفته من كتابات تلميذه بلوتينوس (أفلوطين) وبورفيريوس خليفة أفلوطين .

ولد أفلوطين فى أسيوط سنة ٢٠٤م ودرس الفلسفة فى الأسكندرية لمدة إحدى عشرة سنة على يد أمونيوس سقاص ، ثم ذهب إلى بلاد الفرس ليدرس دياناتهم ، واستقر سنة ٢٤٥ م فى رومة حيث أنشأ مدرسة الأفلاطونية الحديثة على غرار المدرسة الغنوسية التى أسسها هناك فالنتينوس الأسكندرى . واستمر يدرس فى رومة حتى وفاته سنة ٢٧٠ م .

وخلفه تلميذه بورفيريوس الذى وضع ٥٤ مؤلفاً شرح فيها تعاليمه ، غير أن بورفيريوس خرج على المسيحية وهاجمها مهاجمة عنيفة . وكان ذا عقلية فلسفية كبيرة وشهرة واسعة . وقد وضع خمسة عشر كتابا ضد المسيحية هاجم فيها كثيراً من تعاليمها . ولا شك أن انتصار قادة الفكر المسيحى على أمثال هذا الفيلسوف الخطير كان دليلا على ما وصل إليه هؤلاء القادة من نبوغ خارق فى الفلسفة والعلم .

وبعد مرسوم ميلان سنة ٣١٣ م لم تعد الوثنية هى ديانة الدولة الرسمية ، ولكن الوثنية احتفظت برغم ذلك بنفوذها الثقافى ممثلا فى الأفلاطونية الحديثة ، التى أصبحت فلسفة العصر ، وانتشرت فى مدارس الامبراطورية الرومانية .

فأنشأ تلاميذ بورفيريوس مدرسة فى سوريا ، وذهب إلى هناك كثير من طلاب العلم يدرسون على أيديهم الأفلاطونية الحديثة ليحملوها إلى مدارس آسيا الصغرى واليونان وإلى الاسكندرية ذاتها .

واستمر ذلك إلى نهاية القرن الرابع حتى كانت كتب أفلوطين تتداول فى أيدى المثقفين أكثر من محاورات أفلاطون ، ومثل هذا يقال أيضاً عن مؤلفات بورفيريوس .

٣ — مدرسة الاسكندرية اللاهوتية
وأثرها الثقافى

الحاجة إلى إنشاء هذه المدرسة :

انتشرت المسيحية انتشاراً سريعاً وازداد عدد المنضمين إليها ، وكان من الضرورى أن يوضع التعليم المسيحى على أسس منهجية منظمة، لإعطاء هؤلاء المتحولين إلى المسيحية ما يؤهلهم للمعمودية والانضمام إلى الكنيسة ، وكذلك لتثقيف المؤمنين أنفسهم بمبادىء دينهم وتعاليمه ، وتزويد الراغبين منهم بما يريدونه من الدراسات العليا والتعمق فى فهم الفلسفة واللاهوت. وهكذا تأسست مدرسة الاسكندرية للتعليم المسيحى.

ولم تكن هذه الأسباب الإيجابية فقط هى الداعية لإنشائها ، إنما كان هناك سبب آخر لا يقل عنها خطورة . ذلك أن العالم الوثنى كان يقف للمسيحية بالمرصاد ، يحاول بكل قواه وبكافة الطرق العلمية والعقلية والنقدية أن يقضى على هـذه الديانة الجديدة ، وهكذا واجهت الكنيسة هجمات فكرية شديدة من فلاسفة الوثنية ورجال السياسة فيها . وكان لابد أن توجد مدرسة عليا تزود الكنيسة بقادة للفكر، وتقدم للمسيحيين المعرفة الكافية التى تمكنهم من الرد على خصومهم سواء كان ذلك فى مجادلات فردية أو جماعية . وكان غرض المسيحية من هـذه المدرسة اللاهوتية هو الرد على الفلاسفة الوثنيين وأتباعهم ، وحماية المؤمنين

عما يثيرونه فيهم من شكوك ، وتبشير أولئك جميعاً بالمسيحية وتعريفهم طريق الحق .

وهكذا تركزت كل تلك الاحتياجات الفكرية فى المدرسة اللاهوتية. وبتطور تلك الاحتياجات وازديادها كانت المدرسة تعدل فى مناهجها وتضيف إليها مواد جديدة لتفى بحاجة العصر . وهكذا كان نمو المدرسة نتيجة لطبيعة الاحتياجات التى واجهتها ، والتى تطورت بها حتى أصبحت معدة لتزويد الطلاب بكل أنواع المعارف الدنيوية والكنسية .

تاريخ المدرسة وشهرتها :

وتاريخ هذه المدرسة يرجعه يوسابيوس القيصرى والقديس هيرونيموس إلى زمن القديس مرقص الرسول ويقول إنه هو الذى أسسها فى النصف الأخير من القرن الأول الميلادى ، وعهد بإدارتها إلى تيطس الذى صار فيما بعد أسقفا للاسكندرية . على أن شهرتها ظهرت بوضوح منذ القرن الثانى وأوائل القرن الثالث على أيدى مديريها الفلاسفة المشهورين مثل بنتينوس واكليمنضس وأوريجانوس وديونسيوس . ثم توقف نشاطها قليلا أو تعطل بعض الشىء فى أواخر القرن الثالث ، إذ شتت الاضطهاد أساتذتها وطلابها ، إلا أنها ما لبثت أن رجعت فى القرن الرابع إلى سالف مجدها على يد مديرها العظيم ديديموس الضرير . واستمرت إلى أوائل القرن الخامس ، ثم سلمت زمام القيادة الفكرية للرهبنة فى الأديرة .

فى الواقع لم تكن مدرسة الاسكندرية هى المــــدرسة اللاهوتية الوحيدة فى العالم المسيحى ، وإنما كانت هناك مدارس مسيحية فى بلاد

أخرى . ولكن لم تستطع واحدة منها الوصول إلى مثل سيطرة مدرسة الاسكندرية وتفوقها، فكانت مدرسة الاسكندرية أهم مدرسة من حيث إمتداد نفوذها فى المسيحية ، يأتى المسيحيون إليها من شتى الأقطار للدراسة على أساتذتها الذين بلغوا درجة كبيرة من الشهرة ، وتخرج على أيديهم أساقفة وبطاركة عظماء لكثير من البلدان المسيحية الهامة . وكان مدير المدرسة يعتبر الثانى بعد البطريرك فى الاسكندرية . وكثيراً ما اختير بطاركة الاسكندرية من بين مديرى هذه المدرسة اللاهوتية . وقد أعطى هذا لبطاركة الاسكندرية مركز الزعامة الفكرية والعلمية فى العالم المسيحى كله ، إذ كان كثير من أساقفة العالم المشهورين تلاميذ لهم تخرجوا على أيديهم أو على أيدى تلاميذهم فى مدرسة الاسكندرية ، وظلوا بعد رسامتهم أساقفة ، على صلة بأساتذتهم الاسكندريين يستشيرونهم فى مشاكلهم . ولذلك لقب بطريرك الاسكندرية بلقب « قاضى المسيحية فى العالم » . وكانوا يعتبرون فى المجامع المسكونية حجة ومصدراً للتعليم الصحيح .

مشاهير أساتذتها :

قدم إلينا القرن الثانى للميلاد ثلاثة مديرين للمدرسة كانوا فلاسفة وثنيين ، تعمقوا فى الفلسفة اليونانية ثم درسوا المسيحية ليتفهموها أو ليفندوها ، غير أنهم ما لبثوا أن آمنوا بها ودافعوا عنها ، وتطوروا حتى صاروا مديرين لمدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، وهم أثيناغوراس (سنة ١٧٦ م) ، وبنتينوس (سنة ١٨١ م) ، واكليمنضس

(سنة ١٩٠ م) . وقد ظل أثيناغوراس يرتدى زى الفلاسفة وهو مدير للمدرسة المسيحية .

وخلفه تلميذه بنتينوس الذى نجح نجاحاً كبيراً فى إدارة المدرسة ، فبدأ الراغبون فى العلم والدين يقصدونها من كافة أنحاء العالم : وكان ممن استمعوا إليه تجار من الهند فأعجبوا به جداً واعتنقوا المسيحية بحماسة عظيمة ولم يكتفوا بذلك بل حركتهم غيرتهم الدينية على خلاص مواطنيهم أن يرسلوا — بعد رجوعهم إلى بلادهم — وفداً إلى البابا الأسكندرى ديمتريوس يلتمسون منه أن يسمح بإرسال القديس بنتينوس إلى بلادهم لتبشيرها بالمسيحية ، فأوفده فى بعثة إلى هناك سنة ١٩٠م فترك المدرسة فى يدى تلميذه اكليمنضس وذهب فى رحلته الموفقة إلى هناك . وفى رجوعه من الهند عرج فى زيارة تبشيرية على الحبشة وبلاد العرب .

ويرجع إليه الفضل فى تقديم أقدم ترجمة قبطية للكتاب المقدس ترجمها بمساعـــدة تلميذه اكليمنضس الذى عاونه فى إدارة المدرسة وخلفه فيها .

اكليمنضس الأسكندرى :

وهو واضح السياسة التعليمية الجريئة التى سارت عليها مدرسة الأسكندرية المسيحية فى كافة عصورها . وكان قبل تحوله إلى المسيحية فيلسوفاً وثنياً ، درس فلسفة اليونان ثم جال يطلب العلم فى بلاد اليونان وإيطاليا وفلسطين ومصر وبلاد الشرق الأدنى ، غير أنه لم يجد معلماً خيراً من أستاذه بنتينوس . وقد نبغ مثل معلمه فى كافة العلوم الدينية

والكنسية . وتظهر معارفه الواسعة فى مؤلفاته ، وفى الطابع الجديد الذى اتخذته على يديه مدرسة الأسكندرية وحدد فيه العلاقة بين الفلسفة والدين ، كما فتح الباب أمام تلاميذه لجميع أنواع المعرفة . وقد وضع كتباً كثيرة لها أهميتها الدينية والعقلية . ومن أشهر كتبه الفلسفية كتاب « المتنوعات » ألفه ليعارض به الغنوسية المنحرفة ، ووضع فيه الأسس التى ينبغى أن يسير عليها الغنوسى الحقيقى أو الفيلسوف المسيحى . ولما ثار اضطهاد الامبراطور سبتيموس ساويرس هجر الأسكندرية سنة ٢٠٢م تاركاً المدرسة فى يدى تلميذه العلامة أوريجانوس ، الذى فاقه شهرة وعلماً .

أوريجانوس :

لم تعرف المسيحية فيلسوفاً نابغاً مثل أوريجانوس. فهو أشهر عقلية مسيحية فى مصر وفى العالم المسيحى كله طوال عصوره المتتابعة . وقد سار فى قيادة مدرسة الأسكندرية على سياسة أستاذه أكليمنضس .

ولد حوالى سنة ١٨٥م وكان له ذكاء خارق للعادة ، وقدرة عجيبة على الاستذكار ، وصبر على الدرس والاطلاع . واستطاع فى سن مبكرة أن يستوعب قدراً ضخماً من المعلومات فألم بالفلسفة والمنطق والهندسة والرياضيات والموسيقى والبلاغة ، وجمع بين معلومات المدرستين المسيحية والوثنية ، فدرس على القديس اكليمنضس الأسكندرى ، كما درس على أمونيوس سقاص ، مؤسس الأفلاطونية الحديثة . وفى سنة ٢٠٢ وهو فى السابعة عشرة من عمره ، سيق والده إلى الاستشهاد فى

أيام الاضطهاد الذى أثاره سبتيموس ساويرس . فبينما جزعت والدته أرسل هو إلى والده يشجعه ويقول له «لا تتراجع ولا تضعف بسببنا» .

وتحت ضغط الاضطهاد اضطر القـــديس اكليمنضس إلى ترك الأسكندرية ، فعهد البطريرك ديمتريوس بإدارة المدرسة اللاهوتية إلى أوريجانوس وهو بعد فى الثامنة عشرة .وكان هذا إعترافاً منه بما وصل إليه هذا الشاب النابغ من عبقرية فذة . وقد نجح أوريجانوس نجاحاً كبيراً فى عمله فى التدريس بل صار أعظم أستاذ عرفته الدراسات المسيحية .

وتوافد عليه طلاب العلم من كافة الأقطار ، وتخرج على يديه أساقفة وبطاركة وقادة للشعوب ، كما درس عليه فلاسفة وثنيون وهراطقة واستطاع أن يجذب كثيرين منهم إلى الإيمان . وكان قدوة فى الفضيلة والنسك حتى أنه لم يذق الخمر ولا اللحم فى حياته ، ولم يكن له غير ثوب واحد . وقال عنه يوسابيوس «أنه كان مثالا فى الأعمال للفيلسوف الحقيق : كما يتكلم ، هكذا أعماله ، وكما هى أعماله ، هكذا يتكلم » .

ولم ينثن عن التعليم مع عنف الاضطهاد ، وكان هذا الاضطهاد لا يجعل التعليم صعباً فحسب بل كان يجعله خطراً أيضاً . ولم يكن للمدرسة بناء خاص فكان التلاميذ يقطنون حول مسكن أوريجانوس أو يأتون إليه لتلقى العلم . وقد اشتد الاضطهاد على أوريجانوس لدرجة أنه لم يوجد فى المدينة كلها أى مكان له وإنما انتقل من منزل إلى آخر وكان يطرد من كل مكان يعلم فيه نتيجة للأعداد الوفيرة التى كانت تؤمن على يديه .

وكان فى أثناء الاضطهاد يزور تلاميذه فى السجن ويصطحبهم إلى حيث المحاكمة ويتبعهم إلى مكان الاستشهاد ، لايبالى أن يكون معهم تحت سمع وبصر جلاديهم ، يقبلهم ويشجعهم إلى أن يسلموا الروح ، بل أنه وضع كتاباً فى الحض على الاستشهاد .

أما عن إنتاجه العلمى فهو أضخم إنتاج لمؤلف ، حتى قيل أنه كتب ستة آلاف مؤلف ، وأقل تقدير يجعل مؤلفاته حوالى الألف . وكان يملى على عدد كبير من النساخ ، وقد قال عنه هيرونيموس أنه كان يقرأ أو يملى حتى وهو يأكل . ومن أشهر الأعمال التى قام بها جمع نسخ الكتاب المقدس وترجماته القديمة ، ومقابلتها ومراجعتها وتصحيح ما احتاج إلى تصحيح . وقد استمر فى هذا المجهود الجبـــار ٢٨ عاماً ، فوضع « الهكسبلا » أى ذات الأعمدة الستة لأنه قارن بين ست ترجمات للكتاب المقدس جمعها فى أسفاره الكثيرة . كما وضع كتاب « المبادىء » وكتاب « الرد على كلسوس » وتفسيرات عديدة للكتاب المقدس حتى وصفه الكسندر أسقف أورشليم بأنه « أستاذ الأساقفة وأمير مفسرى الكتاب » ورقاه إلى رتبـة الكهنوت أثنـاء مروره بفلسطين فى أحـد أسفـاره .

وقد استاء من هذا العمل البطريرك ديمتريوس وجميع مجمعا حرم فيه أوريجانوس ، فترك الاسكندرية وأسس مدرسة فى قيسارية فلسطين على نهج مدرسة الاسكندرية ، وازدحم عليه طلاب العلم هناك . وموضوع حرم أوريجانوس ما يزال حتى يومنـا هذا مثـار جدل بين اللاهوتيين حول أسبابه ومدى الحق فيه . على أن البطريركين اللذين خلفا

ديمتريوس فى كرسى الاسكندرية كانا من تلاميذ أوريجانوس ، ويقال أن أولها أعفاه من ذلك الحرم .

ويعتبر أوريجانوس أول من أقام علم اللاهوت على أسس منظمة ، وإليه يرجع الفضل فى تبويب عقائد الكنيسة .

ولم يقتصر نشاط أوريجانوس على التعليم والتأليف بل امتد إلى التبشير ، فسافر إلى رومه وإلى بلاد العرب للقضاء على بعض البدع فيهما ، وسافر مرتين إلى أثينا كما ذكر ذلك « هارناك » .

ولما تولى ديكيوس عرش الامبراطورية الرومانية أثار اضطهاداً شديداً على المسيحيين . ولم ينج أوريجانوس من هذا الاضطهاد بل قبض عليه سنة ٢٥٠ م وسجن وعذب عذاباً أليماً . ويقول يوسابيوس « يصعب على الكاتب الماهر وصف ما قاساه أوريجانوس وما احتمله فى صبر وارتياح من العذابات المرة والآلام القاسية أثناء هذا الاضطهاد » . ولكنه لم يلن فأخلى سبيله بعد أن تدهورت صحته وكاد يشرف على الموت . ولم يعش بعد ذلك سوى سنتين أو ثلاثا حتى انتقل من هذا العالم بعد أن ترك فيه شهرة لاتمحى .

ديديموس الضرير :

أما ديديموس الضرير فقد ولد فى الاسكندرية سنة ٣١٣ م فى السنة التى وقف فيها اضطهاد الوثنية للكنيسة . وفى حوالى الرابعة من عمره فقد بصره لمرض أصابه فى عينيه . فبدأ يدرب ذاكرته تدريباً دقيقاً

حتى أصبحت تساعده على حفظ كل ما يسمعه . ولما كبر بدأ يعلم نفسه القراءة بحفر الحروف على قطع خشبية يتحسسها بأصابعه ، كما شهد المؤرخ سوزمين بذلك. وهكذا استطاع ديديموس الضرير أن يسبق طريقة برايل بخمسة عشر قرناً . وتمكن من اتقان علوم كثيرة ، فألم بالشعر والبلاغة والفلك والهندسة والحساب ونظريات الفلسفة على تنوعها . كما برع فى العلوم اللاهوتية ودراسة الكتاب المقدس حتى استحق أن يعينه القديس أثناسيوس مدرساً للمدرسة اللاهوتية بالاسكندرية .

وفى ذلك الوقت كانت الحركة الأريوسية على أشدها ، وكان التعليم محفوفاً بالمتاعب بسبب تدخل الحكام المدنيين بآراء ضد الإيمان السليم مما عرض الأساقفة والمعلمين للنفى والاضطهاد . ولكن ديديموس لم تثنه اضطهادات أباطرة الرومان لبطريركه أثناسيوس الذى نفى عن كرسيه خمس مرات بل وقف يجاهد معه بكل قوته فى سبيل الإيمان ضد الأريوسية التى يناصرها الأباطرة ، كما حارب بقايا الوثنية الممثلة فى الأفلاطونية الحديثة وسائر الفلسفات .

وقد كان مهذباً فى نضاله ضد الأريوسيين والوثنيين ، إذ كان كل جهده مركزاً فى أن يقنعهم ويحولهم إلى الحق لا أن يهزمهم ، وهكذا تحاشى السباب . وجاءت كل كتاباته موسومة بروح الاعتدال ، ومن أجل ذلك جاء إليه كثير من الهراطقة يلتمسون العلم على يديه — كما حدث لأوريجانوس — واهتدى على يديه كثير من أمثال أوريجانوس إلى الإيمان .

وقد ذاع صيت ديديموس وامتدحه القديس أنطونيوس بقوله

« لا يحزنك فقد بصرك إذ نزعت منك أعين جسدية كالتي يمتلكها الفئران والذباب . وأحرى بك أن تبتهج لأن لك أعيناً كالملائكة ترى بها اللاهوت وتدرك نوره » كما امتدحه كثير من قديسي الغرب وكتابه . وكان القديس هيرونيموس يفتخر بأنه تلميذ لديديموس وأنه اتخذه قدوة له في دراسة الكتاب المقدس كما ترجم له أحد كتبه . وممن تتلمذ على يده روفينوس أيضاً وقد تتلمذ عليه ثماني سنوات .

وهكذا استطاع ديديموس أن يعيد لمدرسة الاسكندرية المجد الذي كان لها أيام اكليمنضس وأوريجانوس . واستمر في عمله كمعلم حتى نهاية حياته سنة ٣٩٨ . وخلف حوالي ٤٨ مؤلفاً قيماً في اللاهوت والتفسير . وكان سنداً لأثناسيوس وحصناً فكرياً للكنيسة حطم قوة الأريوسية ، وفند كل مغالطاتها العقلية .

باقي الأساتذة :

يكتب يوسابيوس القيصري في منتصف القرن الرابع فيقول « أن المدرسة استمرت إلى أيامنا وسمعنا أنه أدارها رجال أقوياء في علومهم ، وغيورون على الأمور اللاهوتية » . ويكفي أن الإثنين اللذين خلفا أوريجانوس صارا بطريركين للأسكندرية ، أحدهما القديس ديونسيوس صاحب الصيت الذائع في المعرفة اللاهوتية ، وثانيهما بيوريوس الذي كان نابغة في الفلسفة والعلوم اللاهوتية ويقول عنه القديس هيرونيموس أنه « درّس تلاميذه كل أنواع المعرفة بمهارة وكتب مقالات في شتى العلوم حتى لقب بأوريجانوس الصغير » .

العلاقة بين المدرستين الوثنية والمسيحية :

كانت المدرسة الوثنية قد بلغت ذروتها فى العلوم والفلسفة فى القرون الأولى للمسيحية ، ولم تكن توجد أية مدرسة فى العالم القديم تعادلها كمركز للدراسات الطبيعية والعلمية فى الطب والتشريح والرياضيات والفلك والجغرافيا وحتى فى النقد الأدبى . وإذا كانت أثينا قد تميزت بدراسة الفلسفة ووجدت فيها فلسفات كثيرة مستقلة الواحدة عن الأخرى فإن مدرسة الأسكندرية الوثنية درست فيها كل هذه الفلسفات معاً ، تدارسها علماء يمثلون كل فلسفة اجتمعوا معاً فى المكتبة والسرابيوم . بل إن الأسكندرية أنجبت « الأفلاطونية الحديثة » وتزعمت « الغنوسية » ونشرت هاتين الفلسفتين فى أرجاء العالم المثقف . لهذا كله كانت هذه المدرسة الوثنية القوية منافساً خطيراً للمدرسة المسيحية الناشئة التى كانت تمثل أعلى مجهود للمسيحيين فى نزاعهم الفكرى مع الوثنية .

ومع ذلك عاشت المدرستان جنباً إلى جنب ، كل منهما كان لها طابعها الجامعى ، وكانتا كمرآة تعكس الحالة الثقافية فى الأسكندرية وقتذاك . وقد أثرت كل منهما فى الأخرى . مثال ذلك أن أمونيوس سقاص كان فى المكتبة يحمل التعليم الذى تلقاه سابقاً عندما كان مسيحياً ، بل ربما كان اتجاهه نحو الأفلاطونية الحديثة من تأثير المسيحية . ومن ناحية أخرى ، تأثر أوريجانوس بمحاضرات أمونيوس فى المكتبة ، واستمر مثل أثيناغوراس يلبس زى الفلاسفة حتى بعد أن صار أستاذاً فى المدرسة اللاهوتية .

ولكن هدف التعليم فى المدرستين كان مختلفاً ، فتاريخ التدريس فى المدارس الوثنية يدلنا على أن الطلبة كانوا يعدون ويتمرنون ليتبوأوا مناصب الدولة ، بينما لم يكن هذا من أهداف المدرسة المسيحية ، وإن كان خريجوها يصلحون لذلك عن طريق غير مباشر . وبينما كان المهم فى المدرسة الوثنية هو التقدم الثقافى وكان المستوى الأخلاقى للأساتذة منحطاً ، فإن الحياة الفاضلة والأخلاق كانت من أبرز خواص المدرسة المسيحية سواء فى المدرسين أو فى الطلبة. ولعل أهم اختلاف وأوضحه هو أن الفلسفة والعلوم كانت تدرس فى المدرسة الوثنية لمجرد الثقافة بينما كانت تدرس فى المدرسة المسيحية لغرض دينى .

فارق آخر بين المدرستين وهو أن طلبة المدرسة الوثنية كانوا من مستوى ثقافى واجتماعى معين وكانوا ذكوراً ، بينما كان التعليم عاماً فى المدرسة المسيحية يتلقاه السيد والعبد ، الكبير والصغير ، الذكر والأنثى ، بغض النظر عن الدين والجنس والثقافة . وهكذا حطمت المدرسة المسيحية كل الفوارق الاجتماعية ، وفتحت بابها أيضاً للفلاسفة الوثنيين والهراطقة ، وازداد عدد طلبتها ازدياداً كبيراً .

على أن المنافسة الجبارة بين المدرستين كان أثرها الفعال القوى فى نهضة وازدهار العلوم والفلسفة واللاهوت فى تلك القرون الأولى للمسيحية ، فاضطرت المدرسة المسيحية أن تدخل فى برامجها كل المواد التى تدرس فى منافستها الوثنية ، حتى لا يشعر طلبتها بأنه ينقصهم نوع من الثقافة تمتاز به المدرسة الوثنية ، وحتى يستطيعوا الرد على هجمات الفلاسفة والعلماء الوثنيين .

وهكذا أدخلت الفلسفة الوثنية بشتى فروعها فى منهج المدرسة

المسيحية على يد القديس أكليمنضس الأسكندرى الذى نادى بأن الفلسفة خادمة للاهوت ، وأن الغنوسى الحقيق من المسيحيين يجب أن يزود نفسه بكل أنواع المعارف البشرية « آخذا من كل فرع من فروع الدراسة ما فيه من الحق » . وارتقت دراسة الفلسفة فى المدرسة المسيحية حتى أن كثيرا من الفلاسفة الوثنيين كانوا يلجأون إلى أوريجانوس يدرسون على يديه الفلسفة الدنيوية واللاهوت .

وأدخل أكليمنضس دراسة الفلسفة فى المدرسة المسيحية ، وأدخل إلى جانبها دراسة اللغات والبلاغة والشعر والمنطق والفنون والموسيقى والعلوم الطبيعية والهندسة والرياضيات والفلك والجغرافيا . كل ذلك وجد له موضعا فى منهج أكليمنضس ووجدت له علاقة بدراسة اللاهوت . وسار خلفاء أكليمنضس على هذا النهج . وهكذا قال أوريجانوس عن العلوم اليونانية « يجب أن نستخدمها حتى نتمكن من فهم الكتاب المقدس ، لأنه ما دام الفلاسفة قد درجوا على القول بأن الهندسة والموسيقى والشعر والخطابة والفلك كلها علوم تؤدى بنا إلى دراسة الفلسفة ، فالفلسفة إذا درست دراسة حقيقية ، تؤدى بنا إلى دراسة المسيحية » .

ولم يكتف أساتذة المدرسة المسيحية بتدريس جميع هذه المعارف فحسب ، وإنما ساعدوا طلبتهم أيضاً على القراءة — تحت إرشادهم — فى كتابات كافة المؤلفين دون أن يمنعوهم عن شىء . فكان الطلبة يطوفون بكل أنواع المعارف ويفحصونها ، ولم يرفض الأساتذة فى محاضراتهم مناقشة أى موضوع يسألون فيه .

وأضافوا إلى كل ذلك دراسة الأخلاق وتدريب الطلبة عليها تدريباً عملياً . وكان المدرسون قدوة صالحة لطلبتهم فى الحياة الفاضلة المثالية ، وما حثوهم على فضيلة إلا كانوا قد مارسوها هم أنفسهم قبلا ونقدوها .

وهكذا كان من نتائج المنافسة بين المدرستين قيام نهضة عملية وفكرية واسعة النطاق ، لانظير لها فى أى بلد آخر من بلاد العالم المثقف . وأصبحت الأسكندرية بحق عاصمة العالم الثقافية سواء للمسيحيين أو للوثنيين ، وصارت مقصد كل راغب فى الدراسات العليا فى شتى العلوم الدنيوية والدينية .

ولما كانت المعرفة لا تحد فقد كانت مدة الدراسة فى المدرسة المسيحية غير محدودة . فالقديس أغريغوريوس صانع العجائب — بعد أن أكمل دراساته فى الفلسفة واللغة والبلاغة فى أثينا وبيروت — تتلمذ ست سنوات على أوريجانوس ، وكان يشتهى لو أتيح له أن يقضى بقية حياته فى المدرسة .

نجحت المدرسة المسيحية كل هذا النجاح على الرغم من أنه لم يكن لها بناء خاص ولا مكتبة خاصة ، وإنما كان أساتذتها يلقون دروسهم فى منازلهم أو فى قاعات يستأجرونها لهذا الغرض . وكان الطلبة والأساتذة يذهبون إلى مكتبة الأسكندرية العامة للقراءة والاطلاع .

٣ – الانتاج العلمى والأدبى والثقافة الشعبية

الإنتاج العلمى :

ورث الأقباط عن أجدادهم الفراعنة براعة فى الطب والتشريح والكيمياء والصيدلة ، والهندسة والفلك . واستمروا على نبوغهم فى هذه العلوم طوال العصرين اليونانى والرومانى ، حتى أصبحت مدرسة الأسكندرية الوثنية القديمة هى أقوى مدارس العالم فى هذه الدراسات ثم تأسست المدرسة القبطية المسيحية واضطرت أن تدرس هذه المواد أيضاً . ونتج عن كل ذلك نهضة علمية لا مثيل لها ، ونبغ من الأقباط أساتذة تخرج عليهم كثير من علماء العالم القديم .

وظهر فيهم هيروفيلاس مؤسس علم التشريح ، وإيريستسراتوس مؤسس علم وظائف الأعضاء ، وديموكريتوس صاحب نظرية الذرة . كما ظهر العالم الماهر كرنيليوس كلسوس الذى وضع تذكرته الطبية الشهيرة لمنع تلف الأسنان ، وسرابيون الاسكندرى الذى تعمق فى دراسة عقاقير قدماء المصريين ، ولاسيما الكريهة الطعم منها ، وهو الذى قدمها للعصور المتتابعة فظلت مستعملة إلى القرن الثامن عشر .

ووضع القبط فى الأسكندرية غالبية المصطلحات الطبية ، ومنها مثلا كلمة medicina عقاقير و medicamentus دواء أو سم و apotheca مخزن الدواء . وأخذ عنهم العالم هذه المصطلحات التى ماتزال مستعملة .

وهذه الشهرة التى نالتها مصر المسيحية فى الطب والصيدلة والكيمياء جذبت إليها العلماء من أقطار العالم للدراسة على أساتذتها . ومن أمثلة ذلك جالينوس العالم المشهور ، الذى ظهر فى القرن الثانى للميلاد والذى تنسب إليه مجموعة العقاقير الجالينوسية المستعملة فى العصور الحديثة ، تتلمذ هذا العالم فى الأسكندرية ، وأخـذ من جامعتها فلسفته وطبه وصيدلته .

وقد نشط العالم لدراسة المخطوطات القبطية الخاصة بالدراسات الطبية ولمس ما فيها من فائدة . وقد ظهر بحث للأستاذ « تل » فى العقاقير الطبية القبطية يتبين منه مدى تقدم الأقباط فى الصيدلة والكيمياء والطب . كما وضع الأستاذ « دوسن » سنة ١٩٢٤ م كتاباً عن تاريخ الطب عند الأقباط فى القرون الأولى للمسيحية ، وشرح بالإضافة إلى العقاقير أدوات الجراحة التى كانوا يستخدمونها .

ومن أهم ما وصلنا من المخطوطات الطبية القبطية بردية « شاسيناه » التى تمتاز بعلاج أمراض العيون ومداواة الخراجات وعلاج بعض أمراض النساء والأطفال . وقد وصفت كثيراً من العلاجات لأمراض العيون وبعض القطرات والمساحيق ، منها قطرة قابضة لمنع النزيف . ولا تقل بردية « زينون » أهمية عن بردية شاسيناه . وهذه البرديات ترينا مدى ما وصل إليه صيادلة الأقباط من معرفة بأصول فن صناعة الدواء وتحضير اللصقات ، كما تدل على علمهم الوافر بالتفاعلات الكيميائية المختلفة وبالأخص التى تتم على النار .

ويقول « نيتولتسكى » فى كتابه الطب الشعبي المقارن ، إن كثيراً من العلاجات والمستحضرات العلاجية المعروفة فى أوروبا منذ القرون الوسطى تحمل الطابع المصرى القديم ، كما أن الكثير من هذه الوصفات لا زال مستعملا فى مصر وفى كثير من بلدان الشرق .

ولم يقتصر نبوغ الأقباط العلمى على الطب والصيدلة والكيمياء وإنما برعوا فى الحساب والرياضة أيضاً . وليس أدل على ذلك من أنهم تولوا الأعمال الحسابية والمالية والإدارية طوال العصر الإسلامى . بل ظلوا إلى عهد قريب يشغلون غالبية وظائف الدولة فى هذا الميدان .

ولم يقل نبوغهم فى الهندسة وأعمال البناء عن نبوغهم فى الطب والحساب . وتشهد على ذلك الكنائس الفخمة التى بنوها والأديرة ذات الأسوار والحصون الضخمة . وليس أدل على ذلك من آثار « أبامينا » بمريوط ، والديرين الأبيض والأحمر فى منطقة سوهاج ، وغير ذلك من الآثار المعمارية الكثيرة الدينية وغير الدينية . بل إن هذا النبوغ استمر معهم فقد ذكر « الأزرقى » فى كتاب أخبار مكة أن الكعبة طغى عليها قبيل ظهور الإسلام سيل عظيم صدع جدرانها ، فأعادت قريش بناءها مستعينة فى ذلك بنجار قبطى كان يسكن مكة . وأثبتت الأوراق البردية التى عثر عليها فى مصر أن الوليد استعان بالقبط فى بناء مسجد دمشق والمسجد الأقصى ، وقصر أمير المؤمنين هناك . ويذكر « البلاذرى » فى فتوح البلدان أن الوليد استعان بالقبط فى إعادة مسجد المدينة .

ولما أعاد عمر بن عبد العزيز بناء الجامع النبوى فى المدينة عهد بذلك إلى معماريين من القبط بنوا فيه أول محراب مجوف فى الإسلام ، وقد أخذوا شكله من حنية الكنيسة . وأثبت العلماء أن قصر المشتى فى شرق الأردن الذى يرجع بناؤه إلى منتصف القرن الثامن الميلادى قد تأثر فى زخارفه بالزخارف القبطية وفى تخطيطه بتخطيط الديرين الأبيض والأحمر بسوهاج . وتتجلى البراعة الفائقة فى بناء مهندس قبطى هو سعيد ابن كاتب الفرغانى لجامع ابن طولون مستخدماً فى ذلك عمودين فقط بعد أن قال المهندسون لابن طولون إذ ذلك العمل يحتاج إلى ما لا يقل عن ٣٠٠ عمـــود . وبين « كريزويل » الأثر القبطى على فن العمارة الاسلامى المتقدم فى مقال له نشره فى مجلة جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٣٩

ومن آثارهم فى الفلك حساب الأبقطى الذى وضعه فى القرن الثانى للميلاد الأنبا ديمتريوس بطريرك الاسكندرية . وصار الأقباط هم الذين يعهد إليهم بتحديد الأعياد والأصوام للعالم المسيحى كله . ومثال ذلك أن مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م فوض لبطريرك الاسكندرية تحديد التاريخ المضبوط لعيد القيامة بعد أن تضاربت أقوال علماء المسيحية فى ذلك .

صناعة الورق :

وجدنا من مخلفات العصر القبطى الكثير من البرديات التى تثبت أنهم أجادوا صناعة سبعة أصناف من الورق للكتابة ، وقد استغل المصرى هذا الورق أحسن استغلال فى تدوين علومه وآدابه منذ أقدم عصور حضارته .

فالمصرى فى كل عصوره — إذا ما تناول الفن أو العـــلم — أظهر

ثباتاً على مصريته ومحافظة على تراثه . وذكر الأستاذ « چوجيه » فى معرض كلامه عن مدرسة الاسكندرية فى مقال له عن عصر الانتقال فى مصر من اليونانية إلى القبطية ما ترجمته « لقد سعى الاسكندر الأكبر سعيه ليصبغ الروح المصرية بالصبغة الهيلينية ، واقتفى البطالمة أثره فى ذلك ، وحاولوا جهدهم أن يستميلوا المصريين ويضفوا على الفكر المصرى مسحة يونانية بحتة . وقد ثابروا فى هذا السبيل مدة ستة قرون يحاولون فيها الوصول إلى غرضهم . وخيل إليهم أنهم نجحوا فى الوصول إلى هدفهم لما رأوا المصرى وقد شغف بمختلف أنواع الثقافات ، يأخذ منها أينما وجدها ، ويستمتع بالفن حيثما يلقاه . ولكن المصرى له قدرة عجيبة على تكييف الفنون وفق مزاجه ، ويستسيغ العلوم بحسب ذوقه وهو — بعد هذا كله — مصرى تأصلت جذوره فى هذه التربة التى ازدهرت فوقها حضارته العريقة . فالمصرى — مع كل ما يهضمه من علوم وفنون غريبة — فخور بماضيه، شغوف ببلاده ، فهذا الفخر وهذا الشغف متأصلان فيه إلى حد بعيد الغور ، فهو ثابت فى مصريته بحيث لا يمكن اقتلاعها منه أو تحويله عنها مهما تنوعت المؤثرات » .

نضيف إلى كل هذا أن أقباط مصر وبطاركتها ظلوا عمد التشريع الكنسى طوال القرون الأولى للمسيحية وكانوا يعتبرون حجة فى تنظيم قانون الكنيسة للعالم المسيحى .

التاريخ الكنسى :

١ — تاريخ بطاركة الاسكندرية :

كان لمصر مكانة رفيعة بين دول العالم فى نواحى الحياة كلها مجتمعة

إبان عهود الفراعنة . وكانت المعبودات المصرية فى دلالتها تنم عن فكر سام رفيع . إذا قيست بمعبودات الشعوب الأخرى . بل استعارت البلاد الأخرى أحياناً المعبودات المصرية لعبادتها .

فلما دخلت المسيحية مصر وانتشرت بها ، غدا للكنيسة المصرية نفس المركز الدينى الرفيع بين كنائس العالم ، وساعد على ذلك ما عرف عن علماء مصر من تعمق فى معارفهم وعلومهم . ولما أخذ الجدل الدينى يشتد ابتداء من مطلع القرن الرابع الميلادى ، عقدت المجامع العالمية (المسكونية) بدعوة من أباطرة الدولة البيزنطية . وكانت رئاسة تلك المجامع — التى حضرها أساقفة مندوبون عن كنائس العالم المسيحى كله — تسند فى أغلب الأحيان إلى بطاركة الكنيسة المصرية .

هكذا كان لبطاركة الكنيسة المصرية مركز سام فى العالم أجمع ، وكان الأباطرة المسيحيون يجلونهم ويلتمسون بركتهم ويقيمون لهم وزناً ، لأنهم كانوا زعماء يمثلون قوة شعبية جبّارة . طالما أقضت مضاجع أولئك الأباطرة .

ومن ثم كان التأريخ لهؤلاء البطاركة — الزعماء الشعبيين — أمراً هاماً للغاية . فقد اشتركوا فى الحوادث السياسية التى دارت والتى كان لها طابع دينى على الأغلب ، فقد يحدث أحياناً أن يعتنق الأمبراطور الرومانى مذهباً دينياً معيناً فى نطاق المسيحية ، ويريد أن يرغم رعيته فى أنحاء أمبراطوريته على اعتناق مذهبه حتى يضمن بذلك التجانس بين شعوب الأمبراطورية تبعاً لوحدة المعتقد ، فيسبب هذا بين الشعب والحاكم الصدام والحروب والثورات ، وكان البطاركة بحق زعماء شعبيين فى

تلك الأوقات العصيبة ، قادوا الشعب ولم يعبأوا بالحديد والنار . واضطروا أولئك الأباطرة أن يحنوا الرؤوس لهم إجلالا واحتراماً ، فأرخ الناس لهم ولعصرهم ، حتى لتستطيع أن تلم بالكثير من التقاليد والعادات المصرية، بل وبنواحى الحياة المختلفة من مجموع هذه التراجم التى تظهر لنا روح العصر الذى عاش فيه هؤلاء البطاركة .

المصادر التاريخية لسير البطاركة :

عرض مؤرخون كثيرون لسير بطاركة الكنيسة المصرية ولعل من أشهرهم :

(ا) يوحنا النقيوسى

فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى ، كتب تاريخاً يبدأ بخلق العالم إلى ما بعد الفتح العربى لمصر بزمن يسير . ويحوى تاريخه أخباراً متصلة عن الآباء البطاركة من مرقس الرسولى الذى بشر بالمسيحية فى فى مصر فى القرن الأول إلى البابا بنيامين البطريرك الذى عاصر الفتح العربى .

(ب) ساويرس بن المقفع :

أسقف الأشمونين (مركز ملوى) عاش فى النصف الأخير من القرن العاشر وأوائل الحادى عشر وعاصر الخليفة الفاطمى المعز لدين الله . وضع كتابا أسماه « تاريخ البطاركة » ويعتبر تاريخه أهم مرجع بين هذه التواريخ جميعها . وذلك نظراً لما امتاز به هذا الأسقف من العلم الغزير

وتمكنه من اللغات القبطية واليونانية والعربية : بل لعله أول كاتب صنف مؤلفاته باللغة العربية من بين الأقباط . وقد جمع تاريخه من عدة مصادر قديمة عثر عليها فى الأديرة أو عن مصادر نقلت عنها وقد أرخ ساويرس للبطاركة من مرقس الرسولى إلى البطريرك يوساب الأول (٨٣٠ — ٨٤٩) . وقد ذكر ساويرس أنه ترجم هذه السير إلى العربية من مخطوطات قبطية ويونانية ترجع إلى عصر المؤرخ له أو بعده بقليل، ومما يجدر ذكره أن معظم هذه الأصول قد خرج من مصر ، وهى موجودة الآن فى المكتبات الكبرى فى العالم ، ويقوم العلماء بنشرها تدريجياً .

والكتاب بوضعه الراهن يعتبر موسوعة تاريخية عن خصائص العصر الذى عاش فيه البطاركة أصحاب التراجم . وقد نقل المقريزى عن هذا الكتاب جانباً كبيراً مما سجله فى كتابه « الخطط » كما أخذ عنه أيضاً القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » .

وقد ترجمه « إيفتس » ونشره بالعربية مع ترجمة إلى الانجليزية فى مجموعة الآباء الشرقيين .

(ج) الأنبا ميخائيل أسقف تنيس :

عاصر الأنبا ساويرس بعض الوقت وزامله فى جمع تواريخ البطاركة من الأديرة . وأرخ للبطاركة من خائيل الثالث (٨٨٠ — ٩٠٧ م) إلى سانوثيوس (١٠٣٢ — ١٠٤٦) .

[ء] الأنبا يوساب أسقف فوة :

من رجال القرن الثالث عشر الميلادى . وقد قام بجمع سير البطاركة ووضع سير معاصريه .

وقد أكمل تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية حتى عصرنا الحاضر على يد علماء كثيرين من مصر وغيرها .

وتعتبر تواريخ البطاركة حلقة هامة فى تاريخ مصر العام .

٢ — السنكسار :

وهو الكتاب الذى يضم سير الآباء القديسين . ويحوى قصصاً دينياً يصور لنا النواحى الاجتماعية فى العصر الذى عاش فيه الآباء أصحاب التراجم . فهو بذلك يكمل التاريخ ويساعد على فهمه . وقد نشره « باسيه » بالعربية مع ترجمة فرنسية ، ثم نشره « أوليرى » مرتباً بحسب الحروف الهجائية .

وثمة كتب أخرى تكمل السنكسار وتفسره . وأشهر من دونوا سير الاباء « بلاديوس » الذى كتب سير الرهبان المصريين ، واثناسيوس الرسولى بطريرك الاسكندرية فى القرن الرابع ، الذى كتب سيرة القديس انطونيوس ، والقديس « جيروم » . وجيروم هو الذى دون بدوره سير القديسين والشهداء المصريين . وقد نشرها فى مجلدين العلامة « بدج » ، كما وضع القديس يوحنا كسيان (القرن الرابع) عدة كتب ضمنها بعض سير الرهبان المصريين نشرها « لوشانوان » بعد ترجمتها إلى

الفرنسية ، كما نشرت ترجمة إلى الإنجليزية فى المجلد الحادى عشر من موسوعة « آباء نيقية ومابعد نيقية » .

٣ — تاريخ المجامع :

أرخ الأقباط — بطابعهم القبطى الخاص — للمجامع المحلية والعالمية ، مما كان له أكبر الأثر فى المحافظة على هذا التاريخ .

[ا] المجامع المحلية :

وكانت تعقد فى مدينة الاسكندرية برئاسة البطريرك ، للنظر فيما يهم الكنيسة بوجه عام وحل المسائل المختلفة التى كانت تطرأ .

[ب] المجامع العالمية (المسكونية) :

وكانت تعقد فى القسطنطينية أو فى مدينة تتوسط أنحاء الامبراطورية . وكان الامبراطور البيزنطى هو الذى يدعو لانعقادها للنظر فى البدع الدينية التى تظهر فى إقليم من أقاليم الدولة . وكان أعضاؤها مندوبين يمثلون جميع الكنائس فى العالم المسيحى . وعلى المجمع أن يتخذ القرارات التى تدحض تلك البدع من جهة وتقوى الإيمان من جهة أخرى . وقد شغلت الخلافات المذهبية حيزاً كبيراً فى تاريخ الدولة البيزنطية أنهكت قوتها ومزقت أوصالها . ولذلك تؤلف تلك المجامع فصولا رئيسية فى تاريخ الدولة البيزنطية .

وفى التاريخ العام كان للأقباط إنتاجهم الكبير الملحوظ فيما وضعوه

من مؤلفات عديدة بالنسبة إلى التاريخ الكنسى ، وكذلك بالنسبة إلى التاريخ المـــدنى . ومن أشهر الكتب التى ألفت فى هذا المضمار الكتاب الذى أرخ فيه يوحنا النقيوسى للعالم من بدء الخليقة إلى الفتح الإسلامى . ويعتبر الجزء الأخير منه هو المصدر الأول لتاريخ فتح العرب لمصر .

يوحنا النقيوسى :

كان معاصراً لفتح العرب لمصر . كان فى بدء حياته راهباً عرف بالتقوى وكثرة العلم وحسن السيرة ، فرسم أسقفاً على نقيوس (ومكانها الآن قرية بشادى بمحافظة المنوفية) ، ثم رقى رئيساً لأساقفة الوجه البحرى ، ثم عين فى شيخوخته سنة ٦٩٤م مدبراً لأديرة وادى النطرون . وعلى الرغم من علمه وتقواه وخدمته للكنيسة ، فقد حكم الأساقفة بوقفه عن مباشرة عمله الكهنوتى بسبب عنفه الشديد فى تأديب راهب على خطيئة ارتكبها .

وقد خلف لنا كتاباً هاماً أرخ فيه من بدء الخليقة إلى ما بعد دخول العرب مصر بقليل . وكتابه مقسم إلى ٢٢ باباً . الأحد عشر الأخيرة منها خاصة بالفتح العربى حيث تكلم عنه بتفصيل وإسهاب . ويعتبر الكتاب هو المرجع الأول والأصيل فى هذا الموضوع لأن كاتبه سجل ما رآه عياناً بنفسه .

وقد وضع هذا الكتاب باللغة القبطية ثم ترجم إلى العربية

والحبشية وربما إلى اليونانية أيضاً . ولكن لم يصل إلينا غير الترجمة الحبشية .

ويدل الكتاب على ما وصل إليه يوحنا النقيوسى من علم غزير وتعمق فى البحث واعتماد على المراجع الأصلية القديمة ، كما تظهر فيه الحرية التى توخاها الكاتب فى سرد التاريخ .

وليس صحيحاً ما ذكره زوتنبرج الذى نشر تاريخه من أن الكتاب وضعت غالبيته باليونانية على حين وضعت الأخبار المحلية بالقبطية .

١ — لأنه من المستبعد على كاتب قبطى متمسك بقوميته أن يكتب لمواطنيه تاريخ العالم بلغة مضطهديهم الروم .

٢ — كانت اللغة اليونانية قد أخذت فى الانقراض من مصر منذ القرن الخامس على يد الأنبا شنوده .

٣ — صيغة أسماء الأعلام فى النص الحبشى تدل على أنها أخذت عن أصل قبطى .

وقد ظل الأقباط يحملون لواء العلوم إلى ما بعد دخول العرب مصر بقرنين . وظهر فيهم كيرلس وكولوتس ويؤانس . وعرف فى القرن السادس يوحنا فيليبونوس النحوى الذى ألف فى الأدب والطب والرياضة . ومن المعروف أنه منذ القرن السادس كان رجال الدين من الأقباط يتولون تدريس العلوم فى المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، ونذكر من بينهم سرجيوس وهارون القس .

وقد ورثت الدولة الإسلامية فيما بعد كثيراً من هذا التراث العلمى فى حركة الترجمة التى قامت بها . فقد أمر خالد بن يزيد بن معاوية بأن ينقل إلى العربية كثير من الكتب اليونانية والقبطية التى تناولت البحث فى صناعة الكيمياء العملية . وتبعه فى هذا المضمار كثير من خلفاء وولاة المسلمين ، وكان استقرار الخلافة فى بغداد وازدهار العلوم فيها باعثاً على انتقال العلماء من مصر إلى الشرق ، ويقول « المسعودى » فى مروج الذهب أن مجلس التعليم (الجامعة) نقل من الاسكندرية فى أيام عمر بن عبد العزيز إلى أنطاكية ، ثم نقله المتوكل إلى حران .

الانتاج الأدبي والثقافة الشعبية

المخلفات الأدبية المؤلفة بالنثر : وتشمل فروعاً كثيرة أهمها :

١ — ترجمة الكتاب المقدس :

وهي في الدرجة الأولى من أدبيات اللغة القبطية . وقد أخذت هذه الترجمة عن اليونانية منذ القرن الثاني ، وتعتبر من أدق الترجمات لأن الذين قاموا بها كانوا ملمين إلماماً تاماً باللغتين . وقد كانت الحماسة الدينية بالغة حتى أنه لم يحل القرن الرابع أو الخامس إلا وكان الكتاب كله مترجماً إلى اللهجتين البحيرية والصعيدية وبعض أجزاء منه إلى اللهجتين الأخميمية والفيومية .

٢ — أقوال الآباء :

وهذه اشتملت على فروع كثيرة منها : الأقوال النسكية التي كتبها آباء الرهبنة أو سمعت عنهم فسجلت . وكلها تحض على النسك والتجرد من العالميات وعلى الترويض على الفضيلة وتنقية النفس . ومن أمثلتها الرسائل العشرون التي أرسلها القديس أنطونيوس إلى تلاميذه ، والأنظمة التي وضعها القديس باخوميوس لتنظيم حياة الرهبان ، وما خلّفه القديس يوحنا التبايسي من ميامر (مواعظ) عميقة في الحياة الروحية ، وكذلك تشمل المواعظ والخطب الدينية التي كانت تلقى في أيام الآحاد أو الأعياد

أو بعض المناسبات الأخرى ، ومن أشهرها خطب الأنبا شنوده فى أثناء كفاحه ضد الوثنية وفى نشره لتعاليم المسيحية ، وإليك مثل فى موعظة للأنبا شنودة (القرن الرابع) .

« زعموا أن بعض الشهداء ظهروا لبعض الناس وكشفوا لهم عن الأماكن التى دفنت فيها عظامهم ، وعند البحث وجدوا أنها بقايا كلاب . وزعموا أيضاً أن بعض المبانى والتوابيت التى كان يكشف عنها خلال أعمال البناء أو الهدم كان بها مايدل على أنها تضم أجساد الشهداء . إنما هى الشياطين التى كانت تظهر لهؤلاء الناس فى أحلامهم فى ثياب الشهداء ، وبذلك كانت تبنى لهم هياكل فى الكنائس ، وليس لمثل هذه الهياكل من أثر إلا أنها تفقد الهياكل الحقيقية قيمتها .

وأنها إذن لمجازفة عظيمة أن تبنى الهياكل على عظام لا يعرف كنهها أو مصدرها . وعلى كل حال ليس هناك فى الأناجيل أية إشارة تدعونا إلى بناء الهياكل ، حتى فوق الرفات الحقيقية للشهداء أو الرسل .

ثم قال : إن آباءنا الذين رقدوا فى أيامنا — كما أعلم وأشهد — يوصوننا أن لاندع إنساناً يبحث عن أجسادهم ، ويجب أن يصبح المرء قطعة من الطين ممزوجة بالتبن تدوسها الأقدام » .

ومع أن الآباء كانوا قلما يكتبون ، اكتفاء بتحقيق الهدف العملى وهو التسامى فى ممارسة الفضيلة ، إلا أن ما وصلنا منهم كثير فى قدره وفى قيمته .

٣ — سير القديسين :

وهى كثيرة جداً تزخر بوصف حياة وجهاد الشهداء والرهبان والمتوحدين والنساك وبعض الآباء البطاركة والأساقفة . ولم تكن هذه السير مجرد تاريخ جاف ، وإنما كانت موضوعة فى أسلوب أدبى عميق بالغ الأثر حتى كان من نتائجها إقبال كثيرين على الرهبنة وعلى السير فى الحياة الفضلى . وهى فى الواقع تجسيم لفضائل معينة يمثلها هؤلاء القديسون الذين كتبت سيرهم مع لون من الإيحاء فى الكتابة .

٤ — القصص :

وبعضه دينى فيه خيال وتصور مثل قصة ملكة سبأ ومقابلتها لسليمان الحكيم أو قصة الملك يوحنا ورئيس الدير . والبعض وطنى نفّس به الأقباط عن شعورهم القومى الذى ظل مكبوتاً فترات طويلة تحت نير المستعمر .

وليس الأدب القبطى أدب دينى فحسب بل أن الآثار الأدبية الدنيوية فى الأدب القبطى لا تقل روعة عن الآثار الدينية .

وقد وصلتنا بعض آداب دنيوية بالرغم من انصراف القبط فى العصور الأولى عن تدوينها لغلاء ورق البردى أو الرق وقصرهم التدوين على أدب الدين تقريباً .

فقد عثرنا على الكثير من الرسائل والوثائق بالقبطية استقينا منها أغلب معلوماتنا عن الحياة فى الأديرة ومدى نشاطها .

وازدهر الأدب القبطى فى القرنين الرابع والخامس ثم كبا من أثر الاضطهادات . وكان فتح العرب لمصر صدمة عنيفة للأدب القبطى إلا أنه صحا صحوة كتلك التى تعقب تجرع السم . فنى النصف الأخير من القرن السابع وفى القرن الثامن قامت بين القبط نهضة أدبية ثانية كان لها طابع الشعبية والدنيوية أكثر من النهضة الأولى وربما يرجع ذلك إلى أن نظام الأديرة وقتئذ كان أقل صرامة بحيث أتيح للرهبان الاشتغال بشتى الحرف . وإذا كانوا قد أصبحوا يقرأون الكتب الدنيوية فى الأديرة فما الذى يمنعهم من كتابتها وبخاصة أن الورق قد حل محل ورق البردى وأصبح فى متناول الجميع .

وكتب ذلك الأدب الجديد باللهجة الصعيدية ، وكان به أشعار وروايات وبالرغم من ذلك فقد وصلنا منه النذر اليسير ، ونشير إلى بعض هذا الأدب الدنيوى ، فقصة ثيودوسيوس وديونسيوس التى ترجع إلى أوائل القرن الثامن بطلها صانع مصرى ، وفق إلى بلوغ منصب إمبراطور اليونان . وقد نسى زميلا له كان صانعاً مصرياً ، ثم يلقاه ثانية ويعينه رئيساً لأساقفة العاصمة اليونانية .

وكذلك وجدنا بعض أجزاء لقصة الاسكندر مترجمة إلى الصعيدية وربما أوحت هذه القصة إلى كاتب قبطى بكتابة رواية قمبيز .

ورواية قمبيز قصة أصيلة بالقبطية تتضمن تاريخا خياليا بحتا عن غزو مصر على يد قمبيز الذى كان ملكا على الفرس ، وتبدأ القصة برسالة يكتبها قمبيز إلى الشعب الذى يسكن مصر طالباً إليهم الطاعة يقول :

أنا قمبيز ، لم أكتب إليكم لإرغامكم ، ولكنى أود زيارتكم ، لاحرج

عليكم إذا أردتم الحضور ، بل تعالوا إلىّ ، أنا الذى سيمنحكم أمجاداً أكثر مما تتمتعون به الآن . وربما حدثتكم نفسكم بعدم الخضوع لى ، فحينئذ تكونون قد وضعتم ثقتكم فى هؤلاء الناس السائرين إلى الدمار وهم ملوك مصر وعشائرهم المتنقلة — إنهم سوف لا يقدرون على تخليصكم من قواتى وآلاتى الحربية . وطالما كانت لى تلك القوة فلن يستطيع أحد أن ينقذكم من غضبى .

ثم يستطرد على اعتبار أنهم سيرفضون الخضوع ويردف : انظروا أنا قمبيز أكتب إليكم هكذا الآن ،كونوا مستعدين لملاقاة جام الغضب الذى سينصب على رؤوسكم جزاء عصيانكم لى ، إننى سيد الأرض كلها وما أكتبه سيعود عليكم بالويلات حين اقتص من مصر . فلما سمعوا ذلك وعلموا أن قمبيز قادم إليهم اشتد حنقهم وثبتت عزيمتهم وتشاوروا فيما يفعلون ، ثم استقر رأيهم على رفض طلب قمبيز بالخضوع للفرس .

ولما سمع الجند بهذا الحديث أرادوا أن يذبحوا الرسل . وكان بين الجند شخص يدعى يوشهور ، وكان رجلا ذكياً فى نصحه ، حكيما فى حديثه كما كان قوى الشكيمة ومغواراً فى الطعن والنزال مما أهله لإسداء النصح إليهم ، بأن يصرفوا الرسل ويبعثوا برسالة تهديد إلى قمبيز هذا نصها : يكتب هذا جميع المصريين إلى أولئك الذين يقطنون أقاليم الغرب والذين يعيشون فى الهند ، نكتب إليك أيها الجبان الرعديد قمبيز ، الذى اسمه فى لغتنا « سانوت » وتفسيره الجبان . ألا فانظر ، لقد تركنا رسلك تذهب بسلام لا خوفاً منك بل افتخاراً وتعظيما لسيدنا فرعون الذى يحكمنا بمجد عظيم . لقد تركناهم وشأنهم ولم نذبحهم ،

ولكن إذا أثرتم بخطنا فلسوف تعلمون ما نحن فاعلون . فبحق قوة فرعون ومجد مصر والإله هابى وشرف التاج وبطش صناديدنا واحتشاد جيشنا فى القتال ، فما دام الإله هابى فى منف ، وآمون فى تفناس ، وما دام ملوكنا يعيشون كل فى مملكته وما دامت الأنهار تفيض بمياهها ، وما دامت مدننا موطدة الدعائم ، وما دام كل ذلك قائماً ، فلسوف تعلم أيها العبد ما سيحل بك . ماذا أنت فاعل حيال ذلك ، سنوردك موارد التهلكة لو لحقنا بك ، فأولا سنخرج أمعائك من بطنك ونذبح أولادك أمام عينيك، وسنلقى بأتباعك الظالمين خارجا ، وسنحرق آلهتك المرافقين لك ، وأما أنت فلن نضيع الوقت فى طهى قطع من لحمك ، بل سنمزقه بأسناننا كما تفعل الديبة والسباع الضارية . والآن أيها التعس ، تدبر أمرك وارعو ، وفكر مليا فيما أنت مقدم عليه قبل أن ينصب عليك غضب مصر . فمن من الملوك — ليس بين الأشوريين فقط بل بين ملوك العالم أجمع — تعالى على مصر بعد التغلب عليها ؟ فهل تطمع أنت فى التغلب عليها أيها المخلوق الدنس ؟ ألا امتثلت بالملوك الجاليين والحيثيين ، وأولئك الذين يقطنون الأقاليم الغربية والأقاليم الباردة ، أليسوا جميعاً على جانب عظيم من القوة والجاه ؟ فلماذا لم ينجوا ببلادهم من قبضة مصر عند ما تعاظموا لكى لا يصيروا عبيداً لنا ؟ يا لسخرية القدر أن تهاجم أنت مصر ، فسيلحق بك العار على أيدى جحافل مصر؟ من هو إلهك الذى يرافقك والذى سينجيك بقوته وعليه تعتمد ليحرسك حتى تجترىء على الحضور هنا ؟ أو بحقك لعلك تعتمد على الأمونيين والمؤابيين والأدوميين ، أولئك الذين ترتعد فرائصهم قبل أن يروا

حرباً ؟ أولئك الذين لم ينعموا بالسيادة قط ، بل كتب عليهم أن يظلوا دائما أرقاء .

ولما عاد الرسل وسلموا رسالة المصريين طلب قمبيز مشيريه فأشار عليه أحدهم :

أيها الملك فلتعش إلى الأبد استمع إلى نصيحة عبدك : لا تهاجمهم ولا تلتق بهم وجهاً لوجه وإنما يجدر بك أن ترسل رسلا إلى جميع أنحاء مصر باسم فرعون وهابى إلههم بكلمات معسولة يناشدون بها الشعب أن يجتمعوا فى عيد ووليمة ملكية دون سلاح حتى تنتفى من نفوسهم فكرة الحرب . فإذا ما اجتمع شملهم ، فسيرى سيدهم أن سيداً آخر قد صار بيده الأمر فيستولى عليه الجزع وتخضع لك البلاد . ثم يتابع نصائحه مبينا صفات المصريين الحربية ، وكيف أن نساءهم ماهرات فى الرماية وأطفالهم يشبون من الصغر على تعلم فنون الحرب . وإذ يجد هذا الكلام قبولا لدى قمبيز فإنه يوفد رسلا إلى جميع أنحاء مصر ينادون باسم فرعون مصر وحفرع : سلام كثير لكم ولتكونوا فى راحة وطمأنينة إننى أكتب إليكم لا عن الضرائب التى أنتم مدينون بها ولا عن أى شيء آخر من هذا القبيل . أيها المصريون الأخيار ، الأشداء فى قوتكم والحكماء فى كلامكم ، لتتجمعوا فى كل مدينة ولتأتوا إلىّ بدون سيوف أو حراب ، فأنتم مدعون إلى وليمة حيث السرور والابتهاج ، لأن الإله هابى هو الذى يطلب تجمعكم حتى تطيب نفوسكم بهذا الاحتفال ، فقد أفضى إلينا بأمور خاصة ستحدث هذا العام ولم أشأ أن أكتب إليكم بشأنها حتى لا تقللوا من أهميتها ، بل فضلت أن تحضروا بأنفسكم إلى هابى

كيما يظهر لكم هذه الأمور فى رؤيا ، فلن يتيسر لكم معرفتها إلا إذا ساهمتم فى هذا العيد . ومن امتنع عن الحضور ستصيبه اللعنة والغضب من هابى ، وأما من يلبى ويحضر فستحل نعم الإله عليه وعلى أهل بيته .

وتمضى القصة فتظهر كيف أن المصريين لم ينخدعوا بتلك الحيلة وعرفوا أنها من أعدائهم فيحشدون الجيوش وتأتى الأخبار بأن قمبيز بدأ هجومه على مصر ويبدو أن المصريين كانت تكتنفهم صعاب فى ذلك الوقت .

وهنا ينقطع سياق القصة التى وصلتنا منها نسخة واحدة ناقصة وبها عيوب كثيرة .

ومهما يكن من شىء فالقصة تدل على وطنية رائعة وكبت من الحكام الرومان أو العرب يتنفس منه الكاتب فى أسلوب روائى أدبى مستور .

وهناك آثار أدبية كثيرة منها مثلا القصيدة التى كتبت عن أرخليدس وأمه سنكليتكى على طريقة الحوار ، ولم يصلنا منها إلا بعضها .

ويدل كل هذا على ما للقبط من أثر عميق فى الأدب فى العالم كانت صفحاته مطوية ، وكلما أظهرت لنا الكشوف الحديثة من نصوص ، تكشف لنا هذا الأثر وعرفنا مقدار تغلغله فى الآداب العالمية .

٥ — الاصلاح الاجتماعى :

تظهر روح الاصلاح فى خطب الأنبا شنودة التى حارب بها البدع الموجودة فى عصره كالدجل الطبى والسحر وفوضى الموالد وبناء الهياكل على أجساد الشهداء وما إلى ذلك .

٦ — أغراض أخرى :

مثل الآداب الكنسية وطقوس العبادة ونصوص أخرى تتعلق بالتاريخ والقوانين والسحر .

النظم :

لم يصل إلينا شعر كتبه الأقباط فى الأغراض الدنيوية المختلفة إذ كان النسك السائد فى تلك العصور الأولى المسيحية يحول دون ذلك . فقد اتجهوا فى المدح إلى الملائكة والعذراء مريم والأنبياء والقديسين والشهداء فى نظم يعرف باسم الذكصولوجيات وهى كلمة معناها «تمجيد» ، وقد جمع الكثير منها أوليرى سنة ١٩٢٤ فى كتابه المسمى « الألحان القبطية » ، أما مدح العذراء مريم فلكثرته اختص به تقريباً باب إسمه الثيئودوكيات . وقـــد نشر « أوليرى » سنة ١٩٢٣ كتابه المسمى « الثيئودوكيات القبطية » جمع فيه كثيراً من المقطوعات الشعرية القبطية التى وجدها فى دير القديس مقاريوس والمكتبة الأهلية بباريس والمتحف البريطانى . وقد قال أن هذا النوع من النظم كان مستحباً لدى الشعراء الأقباط استغلوا فيه مواهبهم . كما ذكر «مالون» أن هذه الثيئودوكيات لها مكانة عظمى فى الآداب القبطية .

وقد كان القصص من بين الأغراض التى طرقها الشعراء الأقباط أيضا . ومن أشهر القصص الشعرية قصة أرشيليديس الراهب الذى رفض مقابلة أمه وفاء لنذر قطعه على نفسه ألا يرى امرأة . وهى قصيدة طويلة جداً على شكل حوار تظهر فيه براعة التمثيل وقوة التأثير ، والقصيدة تمس ناحية حساسة من المشاعر الإنسانية .

ثم هناك الأشعار الكنسية وهى صلوات أو تأملات مأخوذة من المزامير أو الإنجيل وتسمى إبصاليات (وهى مأخوذة من الكلمة القبطية بصالموسى بمعنى مزمور) والبعض الآخر تسمى الهوسات (وهى مأخوذة من الكلمة القبطية هوس بمعنى تسبيح). وقد اختصوا كل يوم بتسبيحة خاصة منظومة وملحنة بلحن خاص ، وتوجد غالبية هذه القطع الشعرية فى كتابين هما الابصلمودية السنوية والابصلمودية الكيهكية .

النذب :

عرف الشعب المصرى منذ أقدم عصوره ندب الميت ، وقد وصلنا من العصر القبطى الكثير من الندب فى نظم نقش أحياناً على الرخام كشواهد للقبور .

وتظهر لنا عادة الندب من قصيدة أرشيليديس وأمه سنكليتكى التى تدعو فيها النساء للندب «أيتها النساء ، يا كافة من أنجبن أبناء ، تجمعن، وابكين معى » وقد نشرت « ماريا كرامر » كتابا فيه الكثير من منظومات الندب القبطية

وكانت موضوعات الشعر تنطوى على كثير من المعانى الأدبية والحكم التى يمكن إرجاعها إلى التأثر بنظائرها فى الأمثال المصرية القديمة وفى أمثال سليمان الحكيم وباقى أدب الحكمة فى العهد القديم . ويرى «ورل» أن القبطى كان يفضل هذا اللون من الأدب منذ العصور الفرعونية وأن تضمين الحكمة فى شعره كان أصيلا وليس نتيجة لاعتناق المسيحية.

لغة الأدب :

ينقسم الأدب القبطى إلى قسمين :

(ا) أدب قبطى متأثر بتأثيرات يونانية . وقد ظهر أكثره فى الأسكندرية التى انتشرت فيها الثقافة الهيلينية ، حتى اضطر كثير من الآباء إلى الكتابة باللغة اليونانية المنتشرة فى العالم وقتذاك ، وترجمت كتاباتهم فى مصر إلى القبطية لينتفع بها الأقباط أنفسهم .

(ب) أدب قبطى صميم كالذى ظهر فى كتابات الأنبا أنطونيوس والأنبا باخوميوس اللذين لم يعرفا غير القبطية ، وخطب ومواعظ الأنبا شنوده الذى لم يشأ أن يكتب بغير القبطية ، كما كان زعيما شعبياً يكلم الأقباط المضطهدين على يد حكامهم بلغتهم القبطية لا باللغة اليونانية لغة الحكام .

وهذا الأدب القبطى الصميم كان له مركزان : هما وادى النطرون للهجة البحيرية ، والدير الأبيض والأديرة الباخومية بالصعيد للهجة الصعيدية . وهكذا نرى أن أديرة الرهبان كانت معاقل للأدب القبطى الصميم بلهجتيه . وفى بعض المخطوطات القبطية تسمى اللغة القبطية لغة أهل الجبال . ولعل المقصود بذلك الصعيد لارتفاعه وأديرة الرهبان لوجودها فى الجبال . وقد تولى الأنبا شنودة رئاسة الدير الأبيض سنة ٣٨٣ م الذى أضحى مركزاً للأدب الصعيدى . وفيه أصبحت اللهجة الصعيدية هى اللغة الأدبية للكنيسة القبطية فى أزهى عصورها .

وأمام هذه النهضة الأدبية التى تزعمها الأنبا شنوده،أخذت اليونانية تتقهقر وتتراجع بمقدار النمو المطرد الذى انتشرت به المسيحية بين الريفيين ،وبعدول الناس إلى استخدام اللغة القبطية كلغة أدبية،وبازدياد الأقباط شعوراً بكيانهم وقوميتهم . وعندما فتح العرب مصر كانت اللهجة الصعيدية هى لغة الأدب القبطى عامة . وكل نهوض بعد ذلك للهجة البحيرية كان على أساس ترجمـــة الآداب الصعيدية التى انتشرت فى القرون الستة الأولى للمسيحية .

٤ ــ أقوال الآباء : آثارها وشهرتها

كتب آباء الكنيسة القبطية فى نواح كثيرة أهمها فرعان رئيسيان هما : اللاهوت والنسكيات ، وقد حظيت كل تلك المؤلفات بشهرة عالمية منذ كتابتها .

كتابات الآباء اللاهوتية :

كان أساتذة الأسكندرية وبطاركتها هم عمد اللاهوت فى العالم المسيحى كله . لذلك كانت لكتاباتهم أهمية كبيرة وشهرة واسعة .

كان موقف الزعامة الفكرية الذى وقفه القديس اثناسيوس فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ، باعثاً على ذيوع كتاباته فى اللاهوت وتوضيحاته للإيمان المسيحى ، وأصبحت كتاباته المصادر الأولى لعلم اللاهوت المسيحى،حتى اعتبر اثناسيوس أباً لعلم اللاهوت فى المسيحية . ومؤلفاته التى وضعها عن « تجسد الكلمة » و « الرد على الأريوسيين » و « الروح القدس » انتشرت هى أيضاً انتشاراً واسعاً ، وعليها بنى باقى مشاهير اللاهوتيين أفكارهم حتى أصبح القول الشائع بين الغربيين فى تلك العصور هو: « إذا وجدت عبارة من أقوال اثناسيوس ولم تجد ورقة لتكتبها ، فاكتبها على قميصك فى الحال »،ونعرف أن القديس «إيلارى» ــ أسقف بواتييه بفرنسا ــ لما ذاع صيته ، لقبوه « اثناسيوس الغرب » .

وهذه الشهرة والزعامة الفكرية انتقلت أيضاً إلى القديس كيرلس الأسكندرى حتى لقب بعامود الدين . وكان كافياً أن يقول الشخص « أنا على إيمان اثناسيوس وكيرلس » لكى يصبح هذا اعترافاً منه بالإيمان السليم .

وقد نالت كتابات ديديموس الضرير مدير المدرسة اللاهوتية فى عهد اثناسيوس شهرة واسعة ، حتى أن الأنبا داماسوس أسقف رومه لما طلب من القديس جيروم ، الذى كانت شهرته العلمية معروفة فى الكنيسة كلها ، أن يكتب له مؤلفاً عن الروح القدس ، وجد هذا أن أفضل ما يعمله هو أن يترجم إلى اللاتينية ما كتبه ديديموس الضرير فى هذا الموضوع .

هذه الشهرة التى نالتها كتابات آباء مصر فى القرنين الرابع والخامس سبقتها شهرة واسعة فى القرنين الثانى والثالث لأساتذة المدرسة اللاهوتية بالأسكندرية . ولعل أكبر مثال لها هو كتابات أوريجانوس التى تلقفها علماء الشرق والغرب ، فراعهم ما فيها من قوة وعمق . ومن أجل ذلك قام بترجمة الكثير منها إلى اللاتينية روفينوس وإيلارى أسقف بواتييه والقديس جيروم . بل أن غالبية معلمى الكنيسة اللاتينية وأعاظم اللاهوتيين فيها حرصوا على أن ينقلوا عن أوريجانوس ، كما يظهر ذلك من شرح لامبروسيوس أسقف ميلان معلم أوغسطينوس . وقد شهد أوسابيوس أسقف فرسيل فى إيطاليا أنه لم ير فلسفة حقيقية غير مؤلفات هذا العالم القبطى . وكان القديسان باسيليوس الكبير واغريغوريوس الناطق بالإلهيات يعتبرانه معلماً لهما ، وقد جمعا مقتطفات من مؤلفاته فى كتاب أسمياه فيلوكاليا :

أقوال الآباء فى النسك

تلك الشهرة التى حظى بها آباء الأقباط فى اللاهوت تقابلها شهرة لا تقل عنها فى آداب الرهبنة . ولعل أبرز أمثلتها قوانين القديس باخوميوس وما نالته من شهرة ، حتى لقد نقلها إلى رومه القديس اثناسيوس إبان نفيه عن كرسيه . كما ترجم القديس جيروم حياة باخوميوس وقوانينه إلى اللاتينية سنة ٤٠٤ لفائدة رهبان إيطاليا . ووصلت إلى بلاد الغال فى أوائل القرن الخامس عن طريق القديس يوحنا كاسيان الذى عمل على تطبيقها عملياً فى الدير الذى أسسه فى مارسيليا . ووضع القديس أوغسطينوس نظامه الرهبانى مسترشداً بقوانين باخوميوس ، وكذلك فعل القديس باسيليوس الكبير مؤسس الرهبنة اليونانية ، والقديس باتريك مؤسس كنيسة إيرلنده فى القرن الخامس بعد أن تتلمذ فى لوران فى دير على النظام الباخومى . وربما يكون من أهم وأبقى آثار الأنظمة الباخومية ما تركته من أثر فى الأديرة البندكتية . فإن بندكت فى القرن السادس أخذ عن قوانين باخوميوس حتى أنه فى بعض المواضع يكاد ينقل بالحرف الواحد . ودير مونت كاسينو فى إيطاليا لا يكاد يختلف عن أى دير باخومى فى قنا . وهكذا انتشرت قوانين باخوميوس فى أرجاء العالم كله ، وعلى أساسها قامت الحركات الديرية فى العالم المسيحى . وما تزال هذه القوانين باقية حتى الآن باليونانية واللاتينية .

وآباء الرهبنة الذين لم يكتبوا ، وإنما اهتموا بممارسة الفضائل عملياً وبما يلقونه على تلاميذهم من تعاليم ، هؤلاء كانوا هم أنفسهم موضوعاً

للكتابة ، فصنفت عنهم المؤلفات العديدة ، وإليهم كان يأتى كبار كتاب المسيحية فى العالم ليتسقطوا أخبارهم ويجمعوا كلماتهم القليلة لتكون نوراً للناس . وهكذا فى سنة ٣٨٨ م جاء إلى مصر بلاديوس أسقف هيلينوبوليس ومكث سنة بين رهبان الصعيد ، ثم رجع إليها سنة ٤٠٦ وقضى حوالى سبع سنوات مع رهبان وادى النطرون وكتب كتابه الذى اصطلح على تسميته فيما بعد بـ « بستان الرهبان » . وكذلك جاء القديس يوحنا كاسيان لزيارة وادى النطرون ما بين سنة ٣٩٠ — سنة ٤٠٠ م وضمن كتابيه « المعاهد » و « المقابلات » أخباراً كثيرة عن الرهبان المصريين ومقتطفات من أقوالهم . كما زار مصر لنفس الغرض سنة ٣٨٦ القديس « جيروم » ومعه تلميذته « باولا » ، ووضع كتاباً عن القديس المصرى الأنبا « بولا » المتوحد ، وآخر عن الرهبان المصريين ضمنه أقوالهم وأخبارهم ، ورجع فأسس — على ضوء ما سمعه ورآه — ديرين فى بيت لحم بفلسطين أحدهما للرهبان والآخر للراهبات .

ولعل أشهر كتاب كان له أثر بالغ فى هذا المضمار هو كتاب « حياة أنطونيوس » الذى وضعه الأنبا اثناسيوس بطريرك الاسكندرية بناء على إلحاح أهل رومه . وقد أشعل هذا الكتاب روح الرهبنة والنسك فى بلاد الغرب ، ويكفى أن قراءته كانت نقطة التحول فى حياة القديس أوغسطينوس الذى تأثر به جداً — كما يذكر فى اعترافاته — حتى ترك حياته القديمة ، ولم يصبح مسيحياً فحسب بل أحد مشاهير رجال المسيحية .

ولم تقتصر شهرة أقوال الآباء على عصورهم ، بل لا تزال لها قيمتها

وشهرتها فى الأدب المسيحى حتى يومنا هذا . وقد تحمس أهل الغرب لترجمتها إلى لغاتهم ونشرها ، وهى تشغل جانباً هاماً من مجموعتى « منى » اللتين جمع فيهما فى أواخر القرن الماضى أقوال الآباء باليونانية وأقوال الآباء باللاتينية ، كما تشغل جانباً هاماً أيضاً فى مجموعة أقوال الآباء الشرقيين التى تصدر تباعاً فى باريس . وقد صدرت عن أقوال الآباء بحوث ومؤلفات عديدة ، وترجمت كتبهم إلى اللغات الأوروبية الحديثة مع مقدمات وافية لحياة مؤلفيها وأسلوبهم وشهرتهم . أما آباء الصحراء فقد انتشرت أقوالهم فى ترجمة كتابات بلاديوس وكاسياس وجيروم . وفى سنة ١٩٢٣ أصدر عنهم « بوسيه » كتابه الخاص بأقوال الآباء .

اهتمام العالم بالمخطوطات القبطية

لم تكن كل كتابات الأقباط بالقبطية كما قلنا ، وإنما كتب جزء وافر منها باليونانية . ولهذا كان للأقباط فضل على الأدب اليونانى إذ ضموا إليه ذخيرة جديدة قبطية روحاً وإن كانت تلبس ملابس يونانية . غير أن الأقباط — وبخاصة الرهبان — عادوا فترجموا إلى القبطية كتابات آبائهم التى كتبت باليونانية . وبهذا أصبحت هذه الذخيرة الثقافية والأدبية من التراث القبطى موجودة باليونانية والقبطية معاً .

واهتم العالم اهتماماً كبيراً بالمخطوطات القبطية سواء منها المكتوبة أصلا بالقبطية أو المترجمة إليها . وظهر هذا جلياً بعد حركة النهضة الأوربية . فأخذ الرحالة والمبعوثون العلميون يجمعون المخطوطات القبطية من الأديرة والكنائس القديمة . وهكذا ذكر الرحالة «ليبزسك»

أحد هواة الكتب بباريس بعد زيارته لمصر سنة ١٦٣٣ م أنه وجد كتباً نادرة فى كثير من الأديرة منها مجموعة من حوالى ٨٠٠٠ مخطوطة ترجع إلى العصر الأنطونى وجدها فى أحد أديرة وادى النطرون . وفى أوائل القرن الثامن عشر أرسل الفاتيكان بعثتين حصلتا على مجموعة طيبة من المخطوطات القبطية من دير أبا مقار . وفى سنة ١٨٣٩ حصل « هنرى تتام » على مجموعته النفيسة التى كانت من نصيب مكتبة رايلندز بمنشستر . وتوالت الزيارات على مصر لهذا الغرض . فعثر على مخطوطات بالدير الأبيض استولت على غالبيتها المكتبة الأهلية بباريس ونال المتحف البريطانى بعضاً منها . ثم اكتشفت مجموعة مورجان سنة ١٩١٠م فى دير الحامولى بالفيوم ونسبت إلى مشتريها « بيربونت مورجان » أحد أثرياء الأمريكيين .

وتزخر مكتبات أوروبا وأمريكا بعدد كبير من الشقافة المكتوبة بالقبطية تشتمل على رسائل وإيصالات وصكوك وعقود وغير ذلك حتى لقد بلغ عدد الشقافات القبطية المكتوبة والمحفوظة فى فينا بالنمسا حوالى عشرة آلاف شقافة .

وعثر فى مصر سنة ١٩٢٩ على مجموعة من البرديات القبطية تشتمل على تعاليم مانى وهى محفوظة الآن فى متحف برلين .

كما عثر فى سنة ١٩٤٦ على برديات قبطية تبلغ ألف صفحة تشتمل على رسائل غنوسية وقد استولى عليها المتحف القبطى فى القاهرة .

وبهذا كله امتلأت المتاحف والمكتبات العامة فى أوروبا وأمريكا بهذه المخطوطات .

وما بقى منها محفوظ فى مكتبة الدار البطريركية والمتحف القبطى بالقاهرة ومكتبات الأديرة والكنائس القديمة .

وقامت هيئات علمية بطبع فهارس لهذه المخطوطات القبطية ، ونشر بعض المخطوطات وترجمـــة البعض منها مع دراستها والتعليق عليها . وقام علماء كثيرون فى جهات متفرقة من العالم لدراسة هذه المخطوطات نذكر من بينهم كرم ، وأميلينو ، وإيفلاين هوايت ، وتشيندورف ، وورل،وتل ، ولوفور ، وبدچ ، وإيفتس ،وكاله ،وبوليج ، وكراوسه وغيرهم .

وأصبحت للدراسات القبطية فى جامعات أوروبا وأمريكا أقسام خاصة يتفرغ لها أساتذة وعلماء .

الفصل الرابع
الحياة الفنية

الفنون القبطية :

تعانى الفنون فى حياتها فترات من الخمول أو الضعف ، فإذا واتتها ظروف جديدة للانتعاش عادت حاملة معها مختلف صفاتها القديمة وخصائصها وطابعها . ولقد حدث فى العصر المسيحى فى مصر حين أفسحت الحياة المصرية مجالا للفنون ، أن نمت الفنون وترعرعت حاملة فى طياتها مختلف الصفات الموروثة من عصور سابقة . وفى هذا تقول « زالوشر » أننا نؤمن الآن أن الفن لا يتقدم فى خط مستقيم مطرد ، بل من الثابت أن تياراته تتقابل وتتراكم ثم تمحى وتختفى ، لتعود إلى الظهور بقوة ووضوح .

وأن ظاهرة العودة إلى الظهور هذه نجدها ملموسة فى الفن القبطى .

الصفات العامة للفن القبطى :

(أولا) فن شعبى : لم تكن الشعبية من خواص فنون الأمم القديمة ذات الحضارة لأنها نشأت تحت كنف الحكام والأمراء وأصحاب الجاه ، واكتسبت وجودها وتوجيهها وتطورها من رعايتهم . وكان هؤلاء السادة يختارون الفنانين ويأمرونهم بصنع كذا أو كذا

من القطع الفنية فيستجيبون . وهكذا نجد الفن المصرى القديم ينتعش أبان عهد الملوك الذين أولوه رعايتهم ، ويضعف فى عصر الضعفاء منهم أو الذين أهملوه .

أما الفن القبطى فهو الأول فى الشرق القديم الذى كانت له صفة الشعبية . فإن الأباطرة لم يعودوا يقطنون مصر كما كان الحال أيام الفراعنة ، أو أيام البطالمة . بل كانت مصر فى عهدهم ولاية رومانية تابعة لرومه أو بيزنطة ، وصار الأباطرة إذا أرادوا إقامة أعمال فنية تخلدهم يقيمونها فى عواصمهم لا فى مصر . وبذا فقد الفن القبطى التوجيه السياسى واتجه نحو الشعبية البحتة ، فنحن إذا نظرنا إلى الكنيسة الكبيرة فى الدير الأبيض قرب سوهاج وهى من بناء القديس شنودة ، أو إذا زرنا كنائس مصر القديمة ، أو دير القديس سمعان فى الضفة الغربية بأسوان أو كنائس الواحات الخارجة أو إذا شاهدنا الآثار القبطية فى المتحف القبطى أو مختلف متاحف العالم نجد أعمالا فنية قام بها الشعب المصرى ووضع فيها الفنان القبطى عصارة روحه ومهارته .

(ثانياً) فن دينى ومدنى : خيل للبعض أن الفن القبطى فن دينى يتصل بالكنيسة والعبادة فحسب ، وما من شك أن هذا الرأى خاطىء ، فهو فن الشعب المصرى بأكمله ، يظهر فى الأمور الدينية كما يظهر فى النواحى المدنية بوضوح . وإن كنا نجد أن أغلب العمائر الباقية من ذلك العصر عمائر دينية مثل الكنائس أو الأديرة ، فمرجع ذلك إلى اهتمام الشعب عادة بدور عبادته ومحافظته عليها .

ولا شك أن أهم العمائر التى وصلتنا من مصر القديمة أو من مصر

الإسلامية هى أيضاً عمائر تتصل بالنواحى الدينية مثل المعابد أو الأضرحة والمساجد .

وقد وصلتنا أعمدة وزخارف من بيوت أفراد الشعب إلى جانب ما وصلنا من أديرة وكنائس . ووصلتنا أقمشة كان يلبسها الكهنة فى الخدمة الدينية ، كما وصلتنا أقمشة عديدة كان يلبسها عامة الناس فى حياتهم أو يكفنون بها موتاهم . ولدينا الآن أدوات كانت تستخدم فى الكنائس وأدوات استخدمت فى المنازل أو الحقل ، أو الصناعة .

(ثالثاً) فن نبع من البيئة المصرية وعبر عنها : نرى فى صور الوجوه القبطية ملامح المصرى بعينيه الواسعتين المستديرتين وأنفه ولون بشرته كما نرى صور الحيوانات الأليفة التى تملأ البيوب والحقول مثل القط والكلب والبقرة والجمل والحمل .

ونرى الزخارف تصور لنا أوراق النبات المختلفة وأفرعها وثمارها كالعنب والنخيل والرمان والقمح والأكانتس . كما نرى صور السفينة الشراعية تمخر عباب نهر النيل وكلها مألوفة لديه ، ونجد الأساطير القديمة المتداولة بين المصريين سواء بنصها القديم أو بعد أن اتخذت معانى جديدة وصوراً جديدة تتفق مع الديانة الجديدة التى اعتنقها المصريون .

(رابعاً) ثمرة ما سبقه من فنون ومؤثرات فنية : أننا نجد فى الفن القبطى أثر الفن المصرى القديم والفن الأغريقى والفن الرومانى ، وإن كنا فى الواقع نجد الروح المصرية الخالصة كلما اتجهنا فى البلاد جنوباً .

وكذلك تأثر الفن القبطى بالفن السورى وفنون البلاد المجاورة .

إذ أن المسيحية قد نشأت فى بلاد فلسطين وانتشرت فى الشام وبلاد البحر المتوسط ، وانتشرت معها بعض فنون تلك البلاد بحكم الاتصال، وصار المصريون يهتمون بفنونها وبخاصة فن الشام .

(خامساً) فن جمال لا ضخامة : لم يبلغ الفن القبطى حد الروعة كما بلغ الفن المصرى القديم ، كما أنه فقد إنتاج الأشياء الضخمة ، التى تميز بها الفن المصرى القديم . فن مصر القديمة وصلتنا الأهرام ، والمعابد الهائلة كالكرنك والتماثيل الضخمة كتماثيل رمسيس . والأعمدة الشامخة والمسلات . ولكن الفن القبطى كان فن جمال يهتم بإبراز المعانى فى دقة .

(سادساً) فن للزينة : وصلنا كثير من أفاريز المبانى ورءوس الأعمدة ، وكثير مما تزين به الجدران والأسقف والأعمدة ، وما تزين به التوابيت والمصنوعات المعروفة بالفسيفساء . كما أظهر لنا الفن القبطى ما تزينت به النساء من حلى وأحجار كريمة وملابس وخاصة ذات الألوان الزاهية منها ، وامتدت الزينة إلى كتابات الأقباط فزينوا الكتب وزخرفوا صحائفها بزخارف بالغة حد الذوق الفنى السليم .

(سابعاً) فن يستخدم الأشكال الهندسية والرمزية : نجد فى هذا الفن زخارف أساسها المثلثات والمربعات والدوائر والخطوط المتلاقية والمتقاطعة . ومستخدمة فى كل شىء ، ولا ننسى أن ننبه إلى أن هذه الخاصية ، وخاصية التزيين التى سبقتها ، كانتا كثيراً ما تجنحان نحو أمور رمزية ، وقد دفعت هاتان الخاصيتان بالفن القبطى بعيداً عن الواقع وتصوير طبيعة الإنسان ، الأمر الذى قد يجر إلى مظاهر

خليعة لا يوافق عليها رجال الدين . وحين دخل العرب والإسلام مصر وجدا تربة خصيبة للتعبيرات الفنية ، فأخذ الفنانون يخرجون القطع الفنية التى تناسب العرب والدين الإسلامى ، مما نراه واضحاً فى الزخارف القائمة على الأشكال الهندسية والرسوم ذات المعانى الرمزية التى تبعد عن تصوير الأشخاص . وهكذا نجد صفات مصرية أصيلة راسخة فى الفن المصرى المسيحى الذى سلمه بدوره إلى الفن المصرى الإسلامى .

صور من الفنون القبطية

العمارة :

العمارة كأى لون من ألوان الفنون الجميلة انعكاس للبيئة بكل ما تحويه من معان روحية ومادية ، والعمارة المصرية القديمة يتمثل فيها هذا المعنى بشكل واضح مجسم . فهى فى جميع مراحلها تعبر لنا تعبيراً واضحاً عن التيارات المختلفة التى تنازعت المجتمع المصرى فى مختلف العصور . ولعلنا لا نكون مبالغين إذا ذهبنا إلى أن التفوق والتسامى اللذين امتازت بهما العمارة المصرية القديمة كان لها صدى روحى بالغ الأثر فى تكييف الفن المعمارى فى جميع أنحاء العالم . ومن مزايا العمارة المصرية القديمة حتى الدولة الحديثة، أن فنها كانت تنبثق من بين خطوطه إشعاعات قوية استطاع على ضوئها اليونان والرومان معرفة السبيل إلى التكوين والإنشاء ، إذ عرفوا منها كيف يضعون خطوطهم المعمارية لتتلاقى عند هدف واضح .

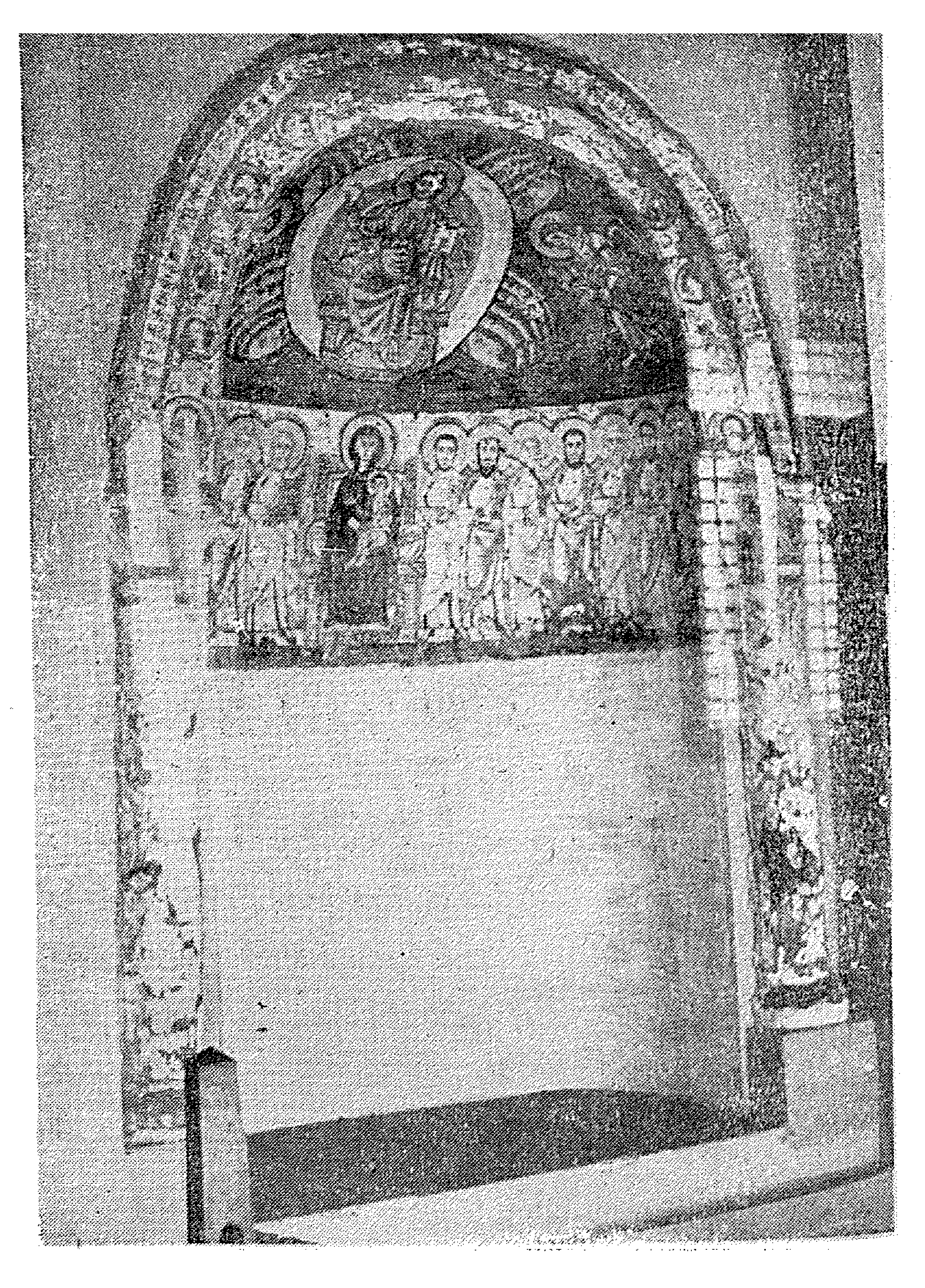
والعمارة القبطية هى هى العمارة الفرعونية ، وهى العمارة اليونانية الرومانية فى مصر وهى العمارة الإسلامية فى مصر . وأما الفوارق التى تفصل بين كل منها : فهى فوارق إقليمية اقتضتها السلطات الزمنية فى عهد ما ، ثم بعض اعتبارات دينية ، ولكنها فى الحقيقة تلتقى عند الأصول والأسس التى قامت عليها العمارة الفرعونية . ومهما يكن فإن

ما دخل عليها فى كل عصر من تحوير أو تكييف بما يلائم ظروف البيئة ، لم يمنعها من أن تظل محتفظة بروحها وعناصرها الأساسية .

والعمارة القبطية قفزت بروح الفن الفرعونى وبعناصره ، وكل ما طرأ عليها من تحوير فإنه لم يمس إلا مظهرها الشكلى فقط . فهى حلقة أخيرة أكملت حلقات الفن المتصلة منذ الحضارة المصرية القديمة والحضارة اليونانية الرومانية بمصر .

ولما كان الفن المصرى يرتبط بفنون الدين ويلازمها ، فقد احتفظ فى العهد المسيحى بكثير من التقاليد والعادات المصرية القديمة ولازم الدين وبخاصة ما كان منه متصلا بالرمزيات والتقاليد فى الحياة اليومية والجنائزية والأعياد وغيرها . أما مركز المسيحية فى الغرب وهى رومه التى تشرف على الحضارة الأوروبية الغربية ، ثم القسطنطينية وهى مركز الحضارة الشرقية ، فقد حاولت كل منهما إيجاد طراز جديد لعمارة تتفق مع الدين الجديد إلا أنهما كانتا دائماً مقيدتين بالحضارات القديمة التى سبقت العهد المسيحى ، ووجدتا نفسيهما مضطرتين لنقل كثير من تعاليم هذا الدين الجديد عن مصر ، التى سبقتهما فى المعرفة والعلم ، ونقلتا عنها الكثير من الرموز والتقاليد ، كما نقلتا كثيراً من فنون مصر واتخذتا منها منبعاً للوحدات الزخرفية التى قرب فيها المصرى بين نماذجه القديمة وبين دينه الجديد ، ولذلك ترى أن مراكز المسيحية تبنت من هذه الوحدات الزخرفية القديمة ما استطاعت كل منها أن تفسره بطريقة تتفق مع دينها الجديد .

لو تخيلنا مدينة مصرية قائمة من العصر القبطى ، لوجدناها تشبه فى

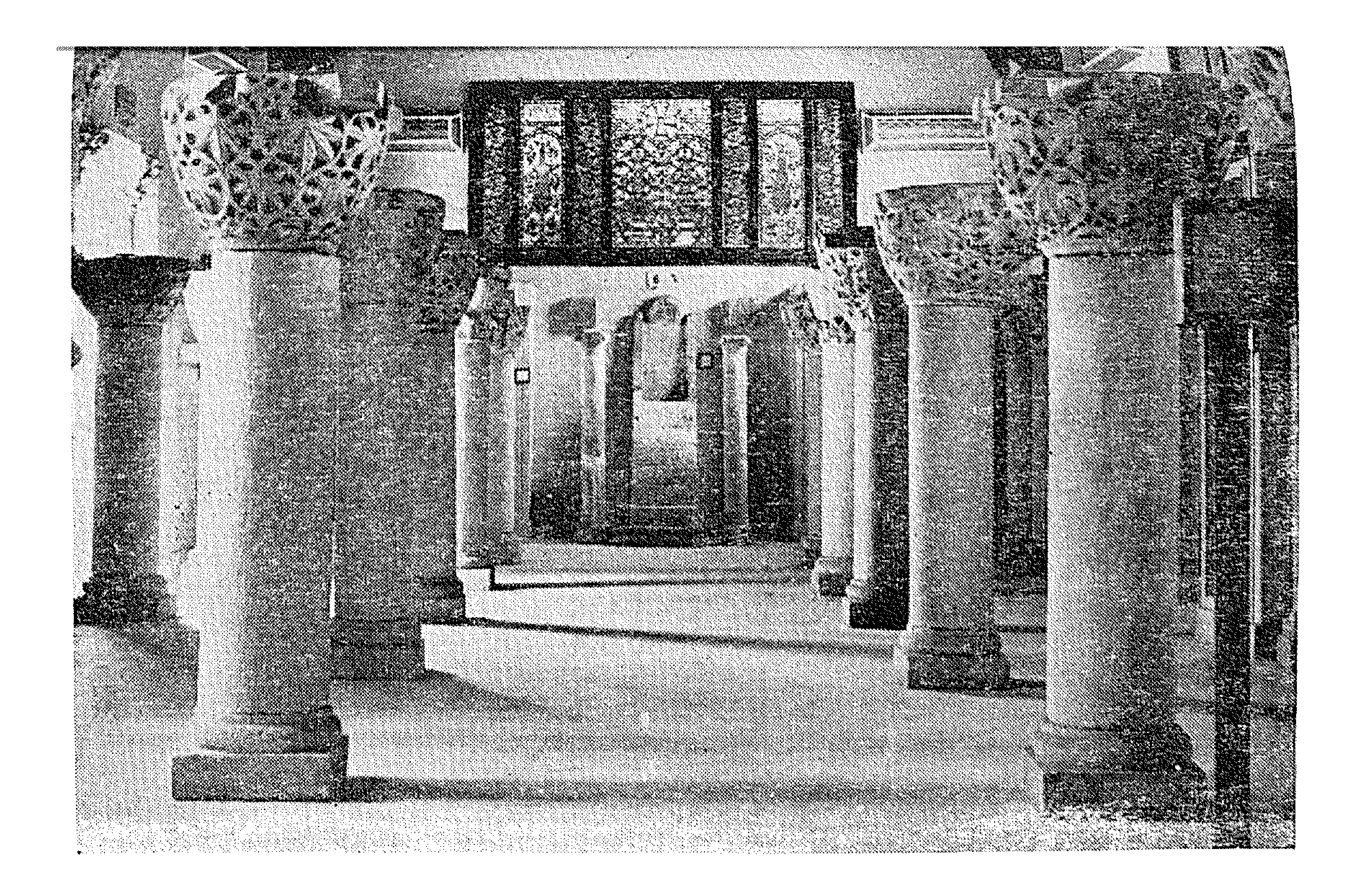


شرقية (حنبة) من أحدى كنائس باويط (بالقرب من ديروط) وهى من الطمى المغطى بطبقة من الجص مرسومة بالألوان الفريسك ٠ فى الجزء الأعلى صعود المسيح وتحته ترى صورة السيدة العذراء ورسل السيد المسيح الأثنى عشر ، واثنين من القديسين المصريين ٠ وطريقة رسمها لا تختلف عن طريقة الرسم فى الفن المصرى القديم

تخطيطها المدن المصرية القديمة . ففى الصعيد حيث يندر المطر كانت البيوت تبنى من اللبن كمدينة هابو غربى الأقصر ، وفى الوجه البحرى كانت البيوت تبنى من الطوب الأحمر أو الحجر الجيرى كما عرفناها من مدينة أبا مينا (القديس مينا) بالصحراء الغربية قرب الأسكندرية .

وكانت للبيوت أبواب خشبية كبيرة كما نراه فى الريف المصرى الآن . ولها مزلاج من الخشب معروف إلى اليوم ، وكانت للبيوت أسقف مرتفعة ، ولها واجهات منمقة بحجارة منقوشة مزخرفة بأوراق العنب عادة . وكانت بها كنائس كالتى عثر على بقاياها فى مدن أبا مينا ومصر القديمة وباويط والبهنسا وإسنا وطيبة وسقارة وأسوان وسوهاج والواحات الخارجة ، وتتكون من قاعات فسيحة بها صفوف من أعمدة رخامية مستديرة أو مضلعة ذات رءوس منقوشة بأبدع النقوش والألوان الثابتة الزاهية . ويكون هيكلها مفصولا عن القاعة بحجاب مصنوع من الخشب المنقوش أو المعشق ، على أشكال هندسية مختلفة ومحلى بصور القديسين وأشكال مختلفة للصليب . وبعض رقائقه من العاج ، كما نجد ذلك فى كنيسة أبى سرجة فى مصر القديمة . وفى الناحية الشرقية من الكنيسة حنية أى تجويف فى الحائط .

والكنيسة تكون أحياناً مستطيلة كالشكل المعروف بالطراز البازليكى ويذهب البعض إلى أن تصميمه دخيل على الأقباط ، وواقع الامر أنه مصرى صميم نجده أول الأمر فى قاعة الاحتفالات بمعبد الكرنك التى شيدها تحتمس الثالث حوالى سنة ١٤٠٠ ق.م . وتكون الكنائس أحياناً أخرى ذات قباب بحيطان مطلية من الداخل بطبقة من الجبس



قاعدة الأعمدة فى المتحف القبطى ومعظمها من القرن السادس الميلادى وفى صدر القاعة منبر من الحجر ذو سبع درجات من حفائر دير الأنبا أرميا بسقارة ، وهو أقدم منبر عثر عليه فى مصر حتى الآن ، وهو من القرن السادس الميلادى

مرسوم عليها صور للسيد المسيح والقديسين أو مزخرفة بزخارف مثبتة من الجبس أو الحجر فى بواطن عقودها وفوق أعمدتها وفوق الاركان المخصصة لصور القديسين .

وإذا كانت المدينة قريبة من الصحراء مثل مدينة أبو مينا أو مثل الواحات الخارجة أو أحد الأديرة الصحراوية ، حفروا لها الآبار والسواقى أو خزنوا مياه الأمطار فى مخازن تشبه كثيراً هذه الآبار التى نجدها فى الصحراء الآن والتى يسميها البعض آباراً رومانية ، وواقع الأمر أن الفراعنة قد عرفوها قبل الرومان بآلاف السنين . وكانت أدوات النجارة وأدوات الحقل تشبه تلك التى نشاهدها الآن عند النجارين الذين يصنعون السواقى الخشبية . ونجد صوامع للغلال ، ومصانع للهدايا التذكارية تشبه إلى حد كبير المصانع التى نجدها الآن فى خان الخليلى أو فى أسيوط .

التصوير :

كان التصوير السائد فى العصر القبطى يسير على الطريقة التى تواترت منذ أقدم العصور فى مصر وهى طريقة التصوير بألوان الأكاسيد (الفرسك) على الحوائط المغطاة بطبقة من الجبس . وقد استمر الرسم بهذه الطريقة المصرية القديمة إلى العصر الرومانى . واتخذت هذه الطريقة فى الرسم شكلا مسيحياً فى العصر القبطى ، ومنها انتشر بين مسيحيى الشرق والغرب ، وظل الأمر كذلك حتى عصر النهضة .

أما فى مصر فقد حافظ التصوير على الطريقة القديمة حتى القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم أخذ القبط إلى جانب هذا اللون بطرق أخرى فى التصوير . ولم يأخذ التصوير القبطى أشكاله من الطبيعة المنظورة ، ولكنه صور القديسين والشهداء وموضوعات من الكتاب المقدس ، وكان رائده فى ذلك المثل العليا التى تظهر فيها صور الأشخاص على درجة من الاستقرار والوقار حتى أنهم رسموا المسيح طفلا بوجه كبير ، لا سذاجة فيه ، وتحاشوا أن يرسموا ظلالا على الوجوه وراعوا بساطة اللباس وهدوء الألوان .

النقش على الحجر والخشب

نشاهد الآن فى المتحف القبطى فى مصر القديمة وفى متاحف العالم المختلفة تيجاناً لأعمدة من الحجر نشعر فيها بتأثير البيئة على الخيال الفنى ، فنها المجدول على شكل السلال تجديلا أتقن النحات صنعه ، حتى بدا شديد الشبه بالسلال المصنوعة من القصب التى لا زالت متداولة بيننا ، ومنها تيجان منحوتة بشكل زخرفى لأوراق النبات أو الفروع النباتية ، أو الزخارف المتشابكة من نبات العنب أو الرمان أو نبات الأكانتس أو سعف النخيل أو نبات اللوتس ، ومنها تيجان مزينة تجاويفها بزخارف محارية الشكل وبعضها ملون باللون الأخضر وهو اللون الطبيعى للنبات ، وهناك بعض زخارف عثر عليها تعبر عن ظواهر الطبيعة كمداعبة الهواء لأوراق الأشجار ، جاء التعبير عنها تعبيراً حياً يكاد يسمعنا حفيفها .

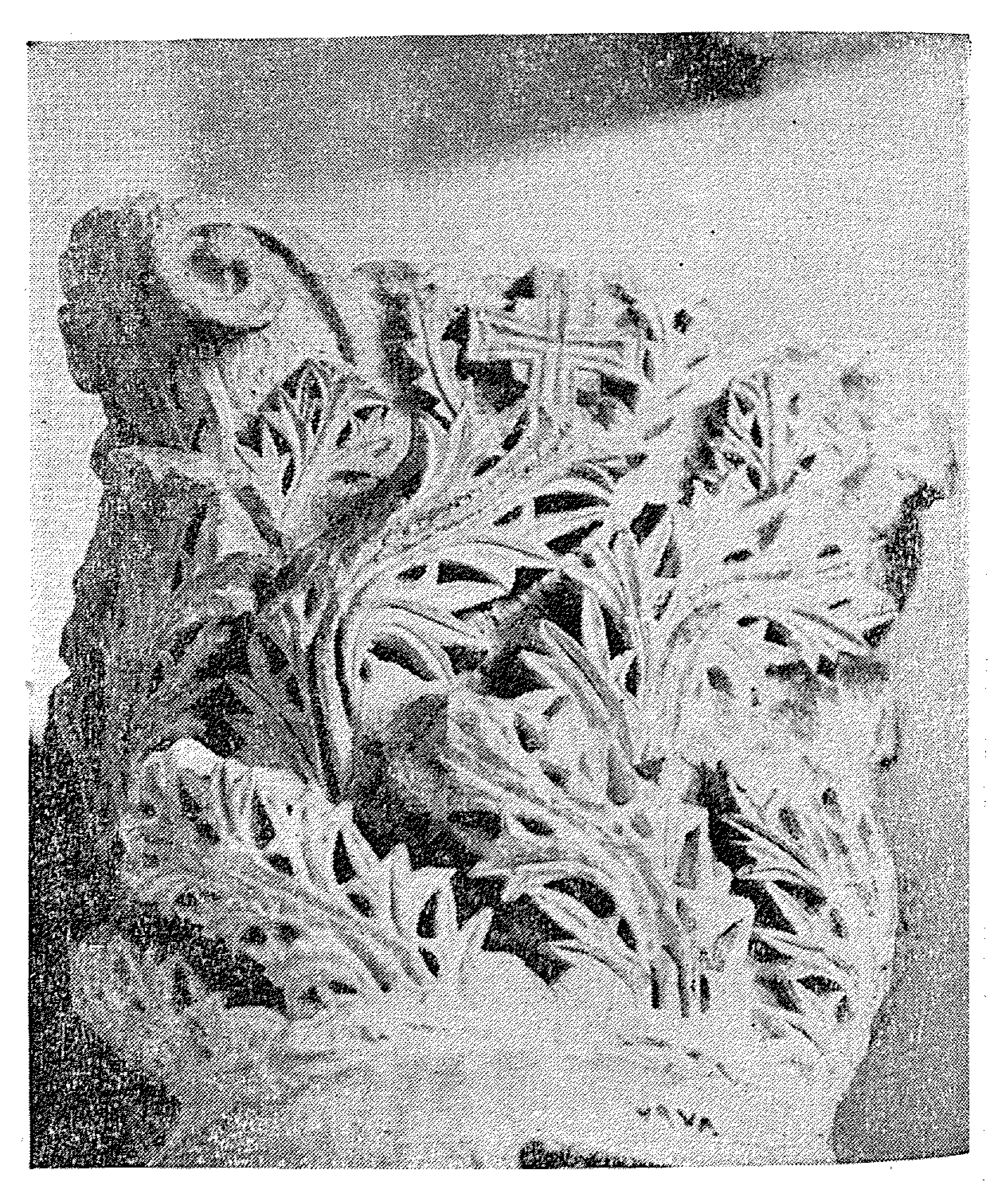
وكانت النقوش تزين الجدران بالألوان ، أو بالحفر ، وكذلك عبر هذا الفن عن البيئة تعبيراً صادقاً ، فنجد فى المتحف القبطى على سبيل المثال واجهة باب من باويط (وهى بلدة قرب منفلوط تتبع مركز ديروط بأسيوط) من الحجر الجيرى على شكل نصف دائرة وقد حلى برسوم هندسية وبزخارف ثمار الرمان . وهذا يدل على ارتباط المصرى قديماً وحديثاً وفى مختلف العصور ، بخواص البيئة المصرية بل والأقاليم المصرية . ولا يزال الرمان ينسب إلى منفلوط .

كذلك زخرف القبط الحوائط والأفاريز بصور من الطيور والحيوان ، فنرى ضمن زخارف الفن القبطى صوراً لصيادى الطيور والأسماك والوحوش المفترسة كالأسود فضلا عن الحيوانات المصرية الأليفة كالأرانب والغزلان . وأصل الكثير من هذه الزخارف يرجع إلى مصر الفرعونية ، ويبين استمرار وحدة الفن المصرى فى عصوره المختلفة . كما نرى ضمن الزخارف المعمارية صورة للحداد القبطى تحيط به أدواته بشكلها المعروف فى مصر اليوم .

ولم تكن روح الدعابة تنقص الفن القبطى ، فإننا نجد على الآثار القبطية ضمن ما خلفه من الصور والنقوش ، لوحات تمثل وفد الفيران يتقدم إلى القط طبقاً للقصة المشهورة ، وقد رفع الفيران علماً هو الذى يعتبر حتى اليوم علم الهدنة والأمان . كما نجد منظراً للملاح محفوراً فى الخشب والملاح يداعب تمساحاً بيده .

المنسوجات :

اشتهرت مصر منذ عصورها القديمة بصناعة المنسوجات وكانت



تــاج لعمود من الحجر بالمتحف القبطى من حفــائر دير الأنبا أرميا بسقارة ، وهو يمثل حركة تماوج أغصان الأكانتس بفعل الريح ، وفى أعلاه علامة الصليب ، من القرن السادس الميلادى

تصدر منتجات نسيجها إلى جميع بلدان العالم . وبالرغم من دخولها تحت الحكم اليونانى ثم الرومانى لم يتغير النسيج ، وظل محتفظاً بطابعه المصرى فى صورته القبطية .

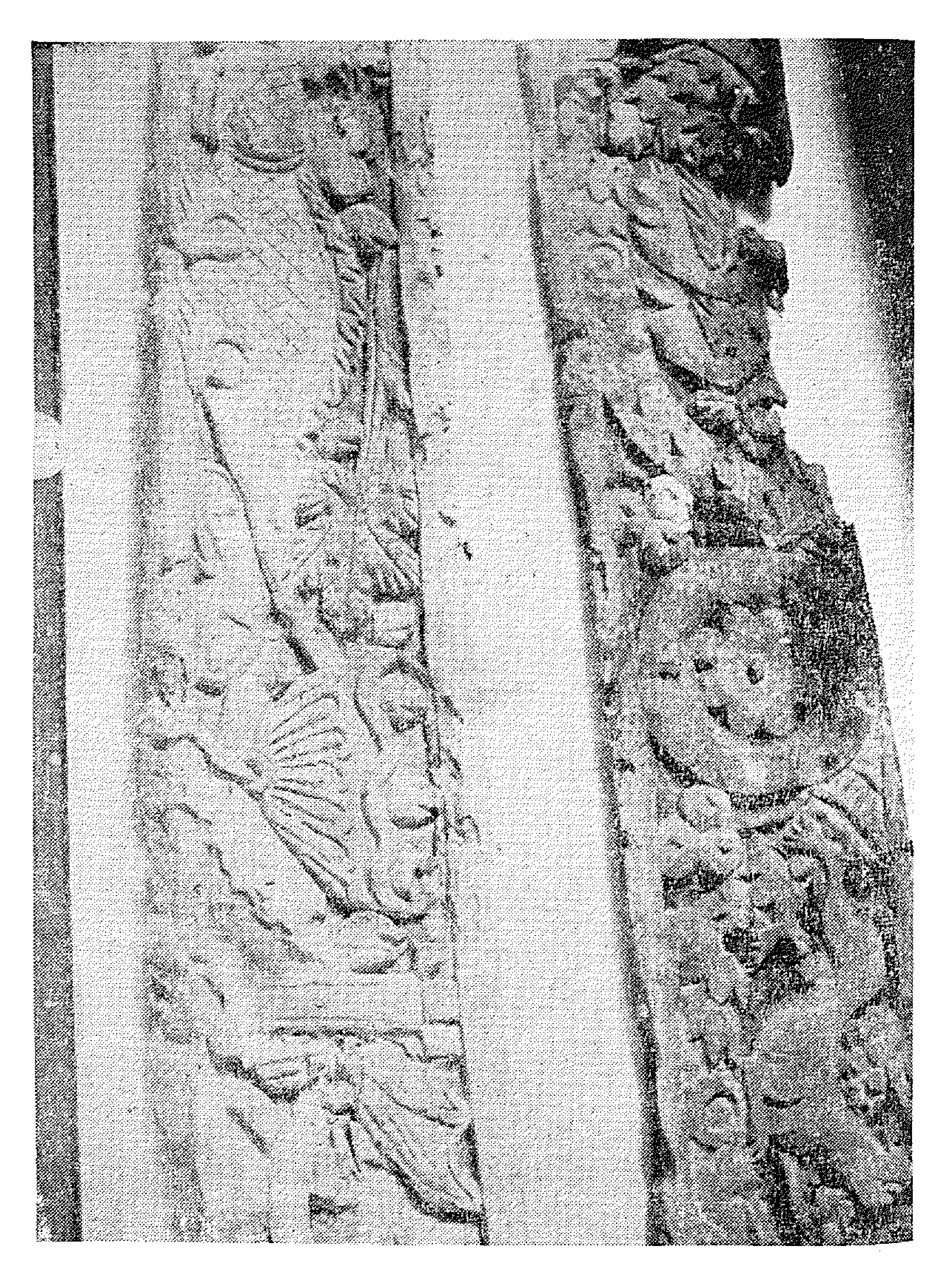
أتقن الأقباط هذه الصناعة كما أتقنوا معها صناعة الأصباغ ذات الألوان الثابتة وكانوا يصدرون منسوجاتهم إلى رومه وبيزنطة . وقد وصلتنا نماذج كثيرة من المنسوجات القبطية يرجع الفضل فى بقائها إلى جفاف التربة المصرية وإلى عادة الأقباط فى تكفين موتاهم بأجمل لباسهم ودفنهم فى مقابر رملية فى الصحراء بعيداً عن وادى نهر النيل خوفاً من مياه الفيضان .

كانت المنسوجات تصنع من الكتان والصوف كما صنعت من القطن ، وأشهر المدن فى هذه الصناعة كانت تانيس والأسكندرية وشطا ودمياط ودبيق والفرما فى الدلتا ، وفى الوجه القبلى البهنسا وأخميم وانطينوى (المعروفة الآن باسم الشيخ عبادة) والفيوم . وكان الصانع القبطى يزخرف النسيج برسوم للطيور والأسماك أو نبات اللوتس أو عناقيد العنب أو أشكال هندسية أو بصور أشخاص أو أوجه .

الفنون الصغرى :

منها الفنون الخاصة بالتزين عند المرأة ، وصناعة المعادن ، ثم الخط والتجليد .

أما عن التزين عند المرأة فقد كانت المرأة تستعمل الكحل للرموش واللون الأزرق حول العينين والأحمر للوجه . وكانت تضع القرط الدائرى الواسع فى أذنيها أو أقراطاً على شكل عنقود العنب ، وتزين

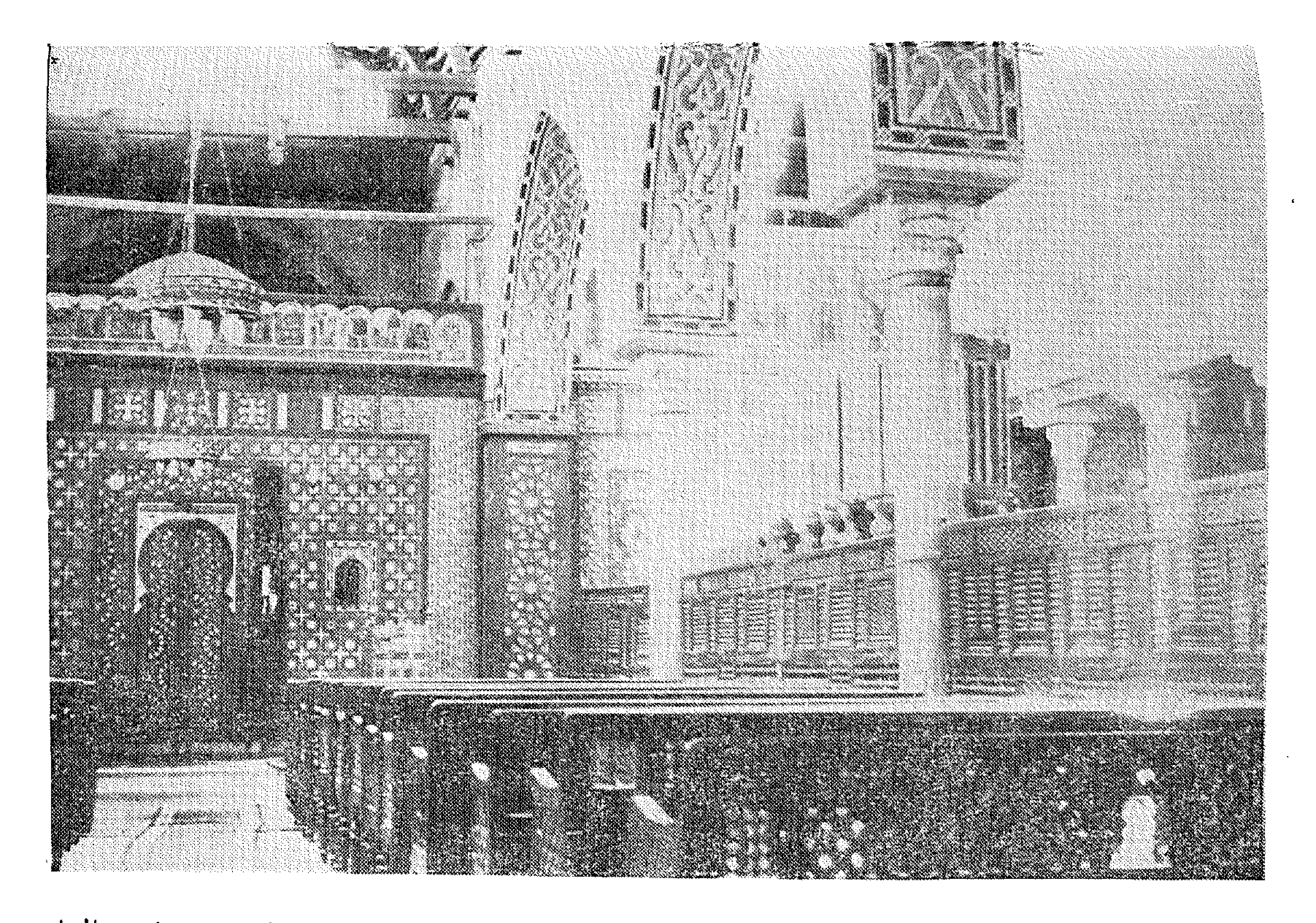


جزءان من أفريز طويل من الخشب المحفور يمثل الأعلى بعض الحيوانات فى وسط زخرفة ، ويمثل الجزء الأسفل نهر النيل وفيه تمساح فى وسط مزخرف وهما بالمتحف القبطى ، من القرن الرابع الميلادى

معصمها بأساور سميكة تنتهى برأس حية من كل ناحية . وبعضها كان مبروما ينتهى برأس حية من طرف وذيلها من الطرف الآخر وكان بعض حليها الذهبية مرصعاً بالجواهر الكريمة . وكانت تضع عقداً أشبه باللبة المعروفة الآن فى مصر . وكانت تلبس الخلخال الذى يصنع من النحاس أو الفضة ، وقد تصنعه المرأة الثرية من الذهب .

وقد وصلتنا من العصر القبطى مكاحل وأمشاط من العاج ، وعلى سبيل المثال نجد مشطاً رقم ٥٦٦١ بالمتحف القبطى نقشت عليه صورة بديعة تمثل حسناء متكئة على سرير تحته كلب ، ويرجع هذا المشط إلى القرن الرابع الميلادى ، ويشبه كل الشبه أمشاط مصر الفرعونية . وعرفوا أيضاً المشط المسمى الآن بالفلاية . وهناك أمشاط من العاج عليها رسوم دينية مسيحية .

والرسوم المختلفة التى وصلتنا من هـذا العصر تبين لنا صوراً حية من الحياة المصرية التى نحياها والتى كان المصرى القديم يحياها والتى حفظتها لنا آثار العصر المصرى المسيحى، ومنها الصورة الصغيرة المحفوظة فى متحف بريشيا لامرأة قبطية جالسة مع إبنتها وابنها وبجانبها صندوق حليها العاجى ، وتلتحف الابنة بشال من القماش المصرى يشبه ما نعرفه اليوم من المنسوجات ، عليه نقوش من الأساطير القديمة . ومنها صور النساء الثلاث التى وجدت فى انتينوى وقد أطلق على اثنتين منهن تاييس وليكيونا وعلى الثالثة السيدة البيزنطية ، نجد تاييس لابسة ثلاثة قمصان وجلبابين فوق بعضهما كما نرى ذلك شائعاً بين بعض السيدات فى الريف والوجه القبلى ، وفى وسط الجلباب منطقة لها أكمام طويلة ،



صورة لكنيسة المعلقة بمصر القديمة ويظهر فيها حجاب الهيكل وهو من الخشب المطعم بالعاج وفى أعلى الحجاب ايقونات القديسين ، وهو من القرن الحادى عشر الميلادى .

والجلباب محلى بحافة حمراء فى أسفله ، وله خطان رأسيان فى الأمام من الحرير الأصفر ، كما نجد ليكيونا مرتدية جلباباً من الكتان الأبيض محلى أيضاً عند أسفله وعند الأكمام والياقة بخط أزرق غامق ، ونلاحظ أنها قد لفت شعرها بشال جمع إلى أعلى فى شبه تاج . والنسوة الثلاث تعطينا صورة حية لأنواع الملابس وطرزها ، والأنواع العديدة لتصفيف الشعر مما يجعلنا نتخيل ما كان عليه النساء عامة فى العصر القبطى من أناقة وذوق سليم فى ملبسهن وزينتهن .

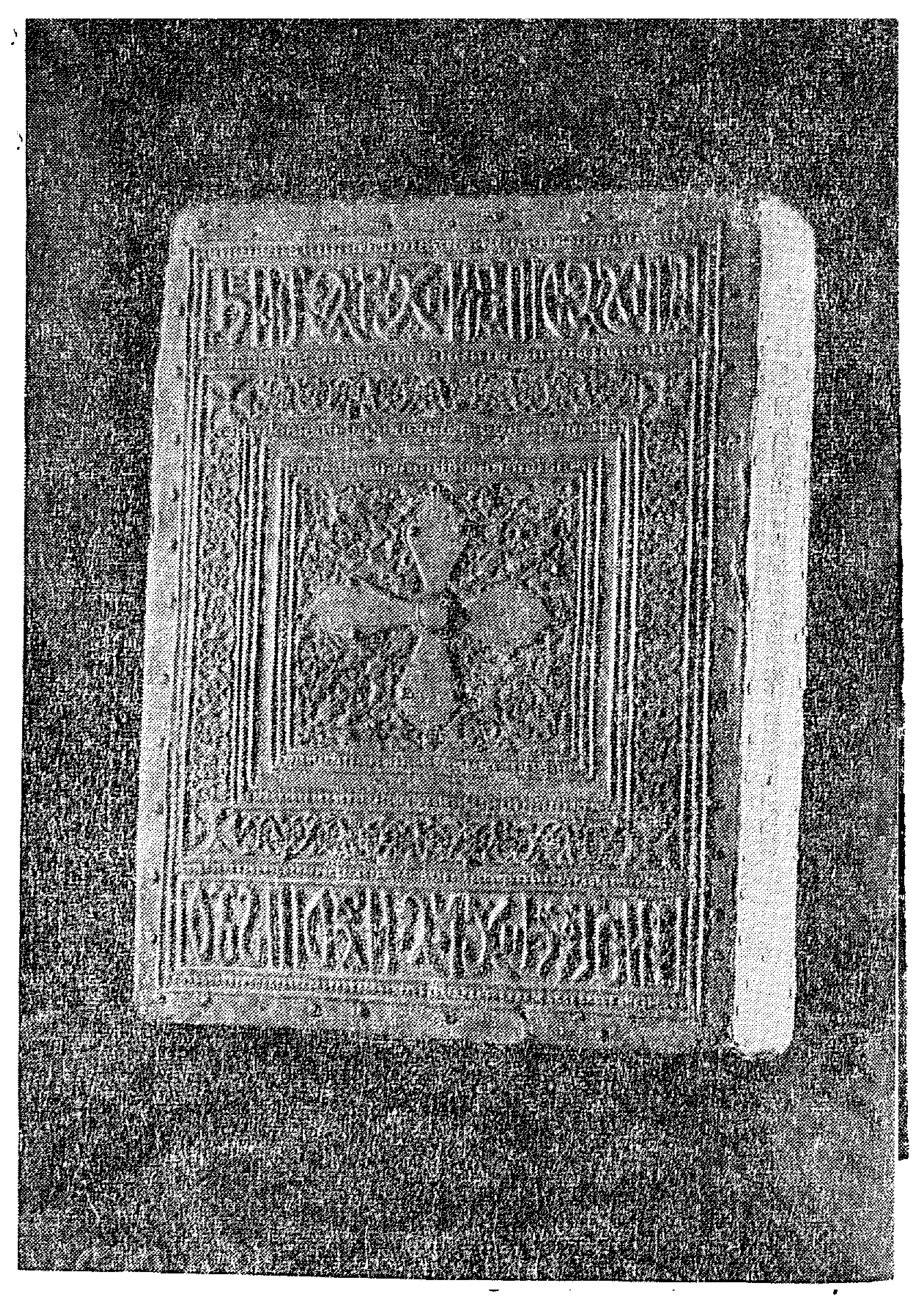
أما عن فن الصناعات المعدنية ، فإننا نجد المصنوعات المختلفة التى استخدمتها المرأة لزينتها ، ونجد مصابيح فى أشكال مختلفة وقواعد للشموع وأوانى منزلية متعددة الأشكال .

الخط والتجليد :

كان المصريون منذ أقدم عصورهم يصنعون الورق من البردى ويصدرونه إلى كافة أنحاء العالم . وها نحن نجد الأقباط يكتبون على البردى وعلى الرق . ثم يتقدم بهم الفن فيزينون صحائف الكتب بالرسوم ذات الألوان الزاهية الثابتة ، هذه الصحائف التى بلغت دقة الحروف المطبوعة بإتقان ، والتى يبهر جمال زخرفتها كل من يراها .

خاتمـــة:

كانت هذه الفنون فى أيدى صناع مدنيين ، وكان الرهبان فى الأديرة أيضاً يتقنونها ، فإنهم رسموا الرسوم ، ونسخوا الكتب وزخرفوها بمختلف الزخارف الملونة الجميلة ، وأتقنوا التجارة والبناء ومختلف الصناعات .



وهو القرن الرابع عشر الميلادى

ولما دخل الإسلام مصر ، اهتم العالم الإسلامى بصناعات الأقباط فنجد الخلفاء يختارون مصر لترسل الكسوة السنوية إلى الكعبة لما لمسوه من اتقان المصريين لصناعة النسيج ، ويختارون من إنتاج هؤلاء الصناع ما يخلعونه على أتباعهم من الأردية ويسمونها «القباطى» نسبة إلى صناعها الأقباط . واشتغل كثير من رجال المعمار الأقباط فى إنشاء المساجد والعمائر ، وعن الفن القبطى أخذ الفن الاسلامى المحراب والمئذنة والقباب .

وكان العصر الفاطمى بمصر فاتحة لاظهار الفن الاسلامى فى شخصيته المصرية الإسلامية المتميزة ، وعندئذ أخذ الفن القبطى ينحصر بين الأقباط أنفسهم ويحيا مرتبطاً بالنواحى الدينية والطقسية حتى عصرنا هذا .

وقد كانت كتابة المخطوطات وزخرفتها زاهرة فى الأديرة القبطية وما زالت هذه البراعة متوارثة بين بعض الرهبان مثل المجلدين الضخمين اللذين تركهما الأنبا مكاريوس البطريرك المتوفى سنة ١٩٤٥ ، وقد رسمهما وهو راهب فى أديرة وادى النطرون وهما يشهدان بدقة هذا النوع من الفنون القبطية . ويحوى كل من هذين المجلدين حوالى ٧٠٠ رسم ، كل منها يخالف الآخر ، نقل بعضها عن المخطوطات القديمة وقد اختار أن يرسمها بالألوان الزاهية مثل سلفه من الرهبان . وكتب على بعضها الأصل الذى نقل عنه ثم وصف طريقة الرسم التى كان الرهبان يتبعونها .

الرواسب الفنية

يعيش المصريون فى دورات زراعية يشترك فيها النيل والفلاح والحيوان والطير ، كل يقوم بدوره على وتيرة تكاد تكون واحدة منذ بدء موسم الزرع فى هذا الوادى الخصيب ، ومن هذا النظام الطبيعى وما يتجلى فيه من تعاون من بذر وسق وحصاد ، تكوّن لدى الفلاح أساس ثابت متين .

ثم مرت على المصريين ديانات تباينت فى مظهرها ، وتشابكت فى أصولها ، كما تعاقبت عليهم ألوان من الحياة الاجتماعية اختلفت فى قيمتها وتوحدت أغراضها ، فترسبت منها فوق هذا الأساس المتين رواسب إنسانية سليمة عملت على تكوين مبنى المصرى الروحى والفنى .

وهذه الرواسب التى يحملها المصرى رواسب قديمة ممعنة فى القدم ، تميزه عن غيره من الناس فى هذا العالم ، وهذا التراث غير منظور .

أما تراثه القديم المنظور ، فقد أماط العلماء اللثام عن بعضه ، ولا يزال الكثير منه خافياً أو مختفياً سيظهره العلم يوماً ، ويتداوله العلماء بالفحص والتمحيص .

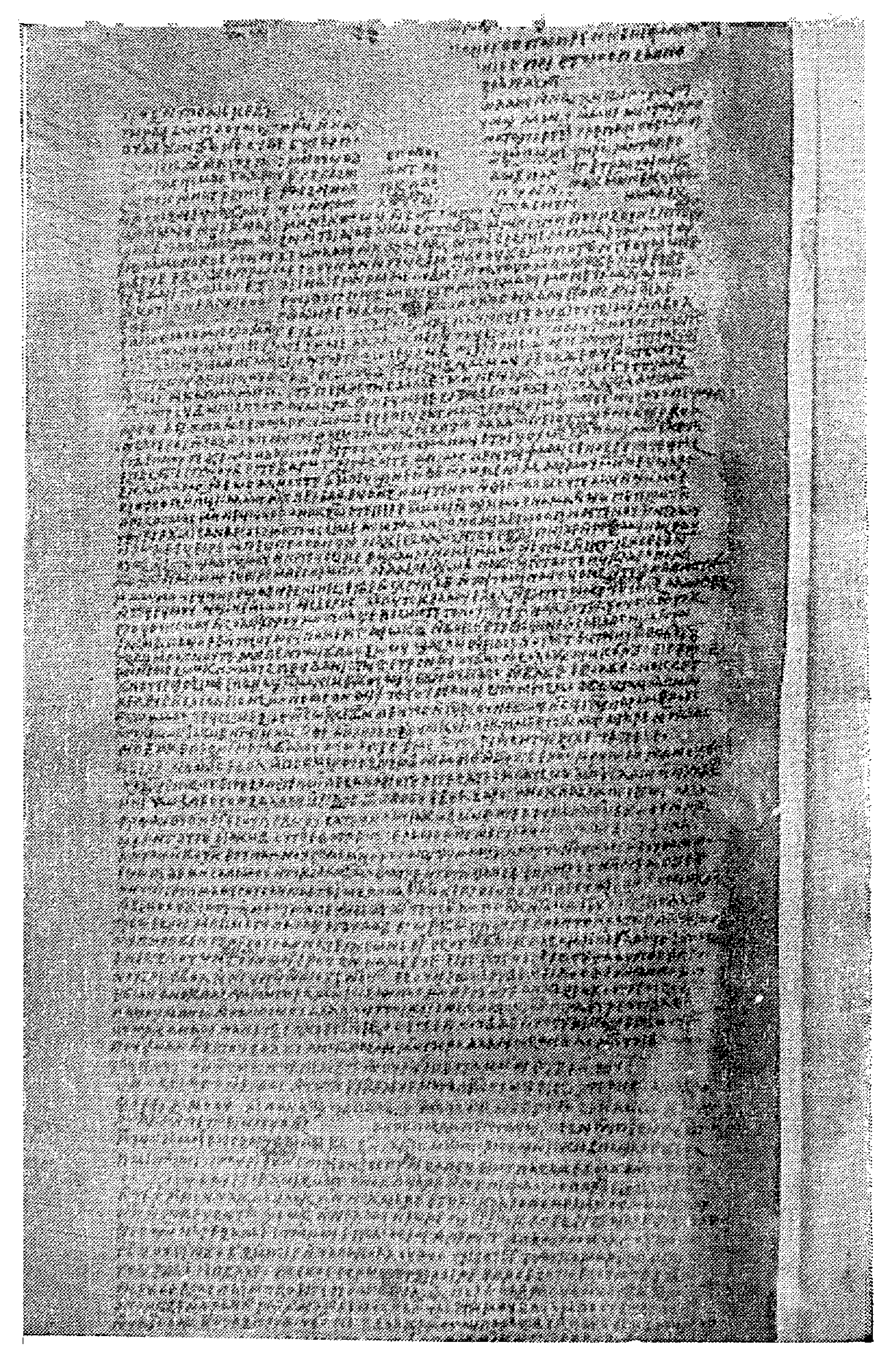
أما التراث غير المنظور فلا يملك غير المصرى الكشف عنه ، فهو من صميم حياته الداخلية ، بما فيها من رواسب نفسية وقدرة تلقائية لا تغزوها المادة ، ولا تتحكم فيها الأوضاع العرفية المتداولة بين مختلف

الشعوب . فهى سلسلة متصلة من الرواسب غير مضطربة أو متقطعة أو مصطنعة الاتصال ، وهى وحدة متماسكة الحلقات . والمصرى وحده هو القادر على التفاعل مع هذه الرواسب ، يتناولها عن طريق الرضى والرغبة وعدم التكلف ثم عن طريق الحب والمثابرة . وهى السبيل للوصول إلى أعماق نفسه ليستخرج منها ثروة كامنة أصيلة فى نفسه .

يقول المرحوم حبيب جورجى « بهذا الإيمان بدأت تجاربى للكشف عن كنه الرواسب فى الأطفال الذين لم تمتد إليهم السدود التى تعترض الفيض ولم تتحكم فيهم نظم التعليم والتوجيه . سهلت لهم سبل الحياة الراضية والخالية من الصنعة والكلفة ، ففاضت نفوسهم بتراث مصرى صميم ، أذهل العالم وحير العلماء لما وجدوا فيه من أوجه شبه واضحة مع أسلافهم منذ آلاف السنين » .

يقول مدير مصلحة الآثار حين شاهد الإنتاج الفنى لهؤلاء الأطفال :

« من الواضح أن النحت الذى كان الإعجاب به شديداً فى مصر القديمة ، هو وليد التربة أو هو نتيجة لحساسية ترهفت بفضل تلاعب النور الخلاب وسط الآفاق اللانهائية ، حيث الجدب المتناهى يتباين مع الخصب الوفير . وحيث يتآلف هذا المجموع وينتهى إلى إدراك الأبدية . ولقد استوحى النحت المصرى كل أشكاله من هذه الروح ، وهذا ما يضفى عليه فى مجموعه ، وعلى الأخص فى تناسقه الداخلى تلك الصفة التى تكاد تعلو على الإنسانية حتى لكأنها تشارك فى اللانهائية والتى لا يمكن أن نجد لها مثيلا فى أى مكان آخر فى العالم . وكان الأستاذ حبيب جورجى



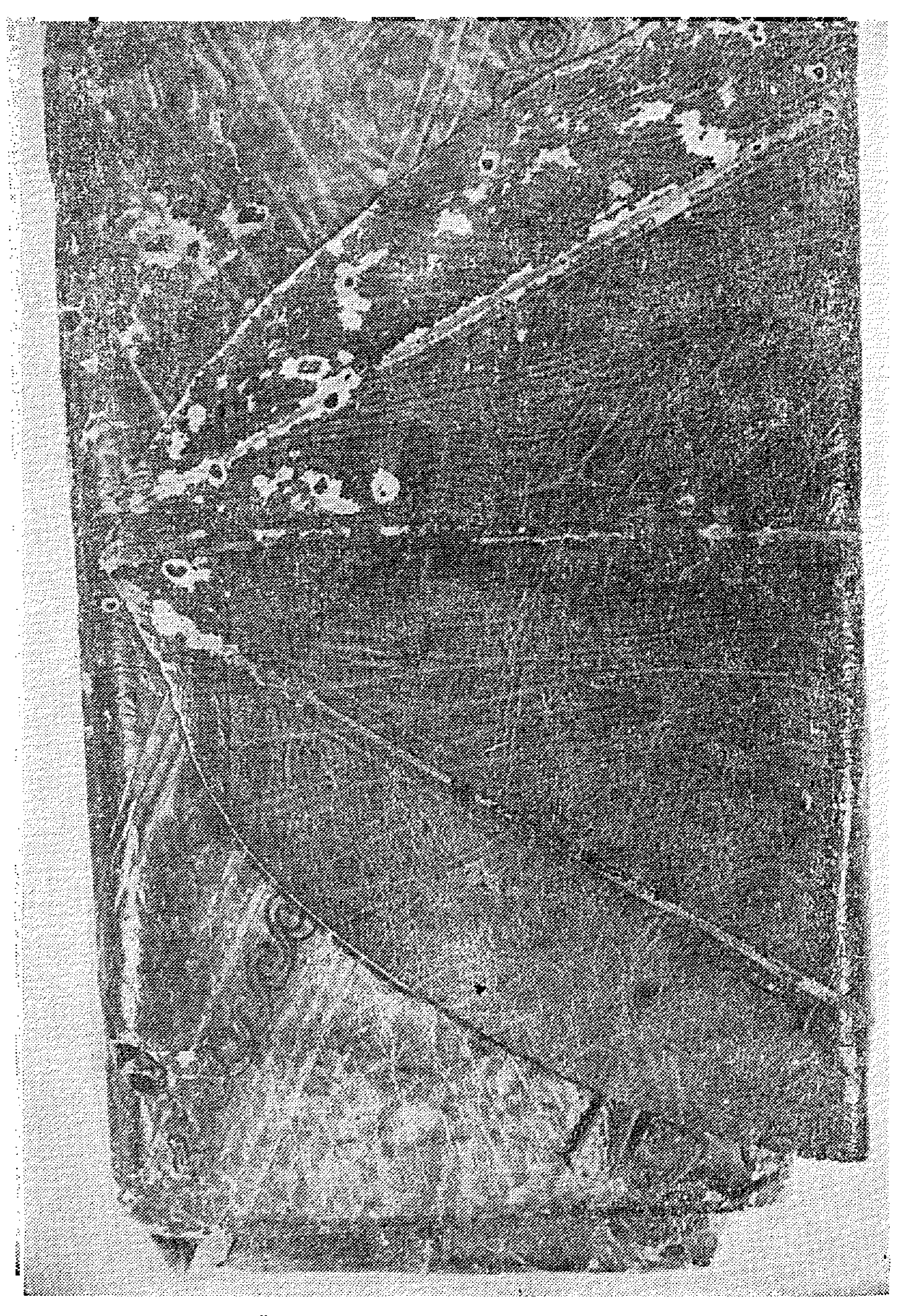
ورقة من أوراق البردى التى عثر عليها ضمن مجموعة كبيرة تشمل ٤٧ كتاباً فى الغنوسية ، مكتوبة باللغة القبطية محفوظة بالمتحف القبطى وهى من القرن الرابع الميلادى

يرغب فى أن يتبين صلة الفن فى مصر بالتقاليد الفرعونية التى صنعتها المدنية اليونانية منذ أجيال ، فغامر بتجربة ليجعل التربة تتكلم من جديد وأحضر بعض المراهقين من الطبقة الشعبية التى هى من أمعن الطبقات مصرية ، تتميز بحساسية فنية ، ولكنها أبعدت قصداً عن علم الرسم وعن الطرق المدرسية ، ثم تركها لتخلق فى حرية كاملة أعمالا فنية ابتدعها كل بنفسه وعلى فطرته .

وتطلب هذا العمل صبراً ومثابرة من الأستاذ حبيب جورجى ، فكان عليه أن يوجه تلاميذه الذين انتخبهم فى عناية فائقة نحو إدراك الأبعاد وهم يشكلون الطين ، وأن يرشدهم فى اختيار مصادر وحيهم وفى توضيح طرق التعبير عندهم ، وذلك من غير أن يؤثر فيهم أو أن يجعلهم يشردون . كذلك كان عليه أن يدربهم على نحت الحجر ، وكان هذا العمل أقل مشقة من الأول .

وقد ظهرت النتائج ، وفى وسع كل إنسان أن يحكم عليها . حقاً أن القالب الذى صيغت فيه هو قالب مصر الحاضرة ، وهذا هو الطبيعى فى الأمر ، لأن الغرض الذى يهدف إليه ليس أن يحيى الرسم ، بل غرضه أن يوقظ الروح ويبعث التقاليد فى التعبير .

والشىء الذى أدهشنى شخصياً فى هذه المدرسة الناشئة هو أن روحها تتحد وروح مصر القديمة فى تناسقها وفى توزيع أجزائها . ولو أن مثالا من العصور الفرعونية أراد أن يمثل الحياة فى مصر الحديثة لما صورها على غير هذه الصورة . وسيظهر المستقبل إلى أى مدى



غلاف من الجلد لمخطوطة من المخطوطات الغنوسية المحفوظة بالمتحف القبطى ، وعليه علامة عنخ رمز الحياة عند المصريين القدماء ، وهى رمز العلم والمعرفة ، وكانت المكتبة تسمى عندهم برغنخ أى بيت الحياة ، ويعد الغلاف أقدم ما عثر عليه حتى الآن من أغلفة الكتاب فى العالم ، وهو من القرن الرابع الميلادى

وإلى أية قوة فى التعبير تستطيع هذه المدرسة أن تبلغ ، كما سيظهر المستقبل عدداً من الفنانين الذين شاركوا فى التجربة ومهدت لهم السبيل :

ونستطيع الآن أن نؤكد أن العروة قد توثقت ، وأن هذه التقاليد صميمة لأنها هى بعينها تقاليد مصر الفرعونية » .

الموسيقى والألحان

تدل الصور المنقوشة على جدران المقابر والآلات الموسيقية التى عثر عليها فى مصر، على أن الشعب المصرى منذ عرفناه فى التاريخ، يميل بطبعه إلى الغناء والموسيقى ،ويستخدمها فى المناسبات المختلفة فى حياته الاجتماعية ، وفى الاحتفالات العديدة فى حياته الدينية .

يقول فيثاغورس العالم اليونانى الذى جاء إلى مصر فى عهد الاحتلال الفارسى ، أى فى القرن السادس قبل الميلاد ، إنه جمع ما وجده فى مصر من عناصر موسيقية مكنته من وضع نظريته فى الموسيقى .

زار هيرودوت مصر حوالى سنة ٤٦٠ قبل الميلاد وذكر فى تاريخه عن مصر فقرة ٧٩ إن المصريين ينشدون لحناً حزيناً ، ذكر أنه أقدم الألحان عندهم ، وأنه من الأمور التى أعجب منها فى مصر .

وذكر ديمتريوس الفاليرى حوالى سنة ٢٨٠ قبل الميلاد أن كهنة مصر كانوا يكرمون آلهتهم فى الاحتفالات بالترتيل ، وكانوا يرتلون بالأحرف المتحركة السبعة: واحد بعد الآخر على التتابع، وكان هذا النوع من الغناء يُغنى عن استعمال المزمار أو القيثارة ، هذا وما زال الكثير من الألحان القبطية يرتل بهـــذه الأحرف إلى اليوم . وكان القدماء يعتبرون طريقة الترتيل بهذه الأحرف يؤدى إلى التعبير عن شـــعور دينى عميق .

ولما انتشرت المسيحية فى البلاد المتباينة وتكونت كنائسها ، نشأ معها فى كل قطر فن موسيقى كنسى تمشَّى مع النزعة الفنية الموسيقية لكل شعب. وشكل الشعب موسيقاه بما يتفق مع ذوقه مستمداً ذلك من تقليده .

وقد ذكر الفيلسوف الاسكندرى فيلون الذى عاش فى القرن الأول للميلاد أن الجماعة الأولى من المسيحيين المصريين اقتبست ألحانا لعبادتها الجديدة من الأنغام المصرية القديمة . وهذا يوضح لنا كيف انبثقت الموسيقى الكنسية المصرية من الفن الموسيقى المصرى ، وليس أدل على ذلك من أن بعض الألحان الشائعة إلى الآن فى الكنيسة المصرية تحمل أسماء بلاد قد اندثرت منذ عهد بعيد . فاللحن السنجارى نسبة إلى بلدة سنجار ، التى تقع شمالى محافظة الغربية ، وعرفت منذ أيام رمسيس الثانى وكانت تحوطها الأديرة فى العصر القبطى . وكذلك الأتريبى نسبة إلى أتريب القديمة (بالقرب من الديرين الأحمر والأبيض بمنطقة أخميم) .

والكنيسة القبطية من أغنى كنائس العالم — إن لم تكن أغناها — فى فنها الموسيقى . والموسيقى جزء لا يتجزأ من ترتيبات عبادتها المتنوعة وطقوسها الطويلة . وهذه الطقوس كما نعرفها الآن قد وصلتنا كاملة منذ القرن الخامس للميلاد ، لا تشوبها موسيقى بيزنطية أو لاتينية أو فارسية أو غير ذلك من أنواع الموسيقى المعروفة شرقية أو غربية .

والموسيقى الكنسية — كما وصلتنا — صوتية بحتة لا تستخدم الآلات الموسيقية فى أدائها . وقد تناقلتها الأجيال بالتواتر شفاها . ودونت موسيقى الكنيسة القبطية أخيراً بالنوتة الموسيقية للصوت وتقع فى عدة مجلدات لم تنشر بعد . وكذلك سجلت جميع ألحانها على أشرطة

صوتية ، هى موضع درس يمكن أن نقابل بين بعضها ، وبعض الأغانى الشعبية القديمة السائدة الآن فى مصر وأوجه الشبه بينهما ملحوظة .

والألحان تتفاوت طولا وقصراً ، ويبلغ بعضها خمس عشرة دقيقة ، ومنها ما ينغم على كلمة واحـــدة أو بضع كلمات . وعلى الرغم من ذلك فالموسيقى القبطية ليست معقدة وتتكون من صوت واحد أى لاتتعدد نغماتها فى وقت واحد ، ولها من بســـاطتها قوة تأثير على العاطفة مهما اختلفت الأذواق ، وهى ألحان معبرة . وفيها اللحن الحزين ولحن الفرح . قال أحد علماء الموسيقى عند سماع الألحان الحزينة « أن أنغامها عريقة فى القدم ، فيها حض على الزهد ، واسترخاء للنفس الطاغية ، أما ألحان الفرح ففيها نشوة تشعر الإنسان بلذة روحية وتسمو به إلى عالم أسمى »

ومن أقدم الألحان لحن لاكليمنضدس الاسكندرى (١٦٠ — ٢٢٠م) مـــدون فى آخر كتابه « بيدا جوجوس» يردده المعتمدون لشكر السيد المسيح لأنه خلصهم من الخطية . وهذا اللحن غير مستعمل الآن ، وهناك نص لحن قديم عن عيد الصليب ، وضع لمناسبة العثور على الصليب سنة ٣٢٦ ميلادية .

أما أقدم لحن مكتوب بعلامات موسيقية ، فقد عثر عليه مدوناً فى بقايا بعض أوراق بردية كشف عنها فى مدينة البهنسا ، وهذه الأوراق من أواخر القرن الثالث الميلادى .

والموســيقى الكنسية موجودة فى القداسات وفى ألحان المناسبات ،

والقداس القبطى هو القداس الوحيد فى جميع كنائس العالم ، الملحن من أوله إلى آخره .

وللكنيسة المصرية أربعة قداسات خاصة بها :

١ — القداس الكرلسى وينسب إلى مرقس الرسول ، وكانت أوضاع هذا القداس قد استقرت قبل كيرلس الكبير ، وأوجه الشبه واضحة بينه وبين قداس مار يعقوب وقداس عهد الرب . هذا وقد ضاعت أغلب موسيقى القداس الكرلسى ولم يبق منه إلا بعض ألحان يستعمل للترحيم فى الصلاة على الموتى .

٢ — القداس الباسيلى ، وتوجد منه ثلاثة قداسات منسوبة إلى باسيليوس الكبير ؛ قداس باسيليوس لكنيسة القسطنطينية ، وقداس باسيليوس عن السريان وقداس باسيليوس القبطى . والقداسات الثلاثة تختلف عن بعضها فى النص والطقس واللحن .

وقداس باسيليوس القبطى استعملته الكنيسة قبل الانفصال سنة ٤٥١م أى قبل كيرلس الكبير ، وموسيقى القداس الباسيلى مصرية كلها ، إلا مقدمة القداس والاعتراف فموسيقاهما بيزنطية .

٣ — القداس الغريغورى وهو خاص بالكنيسة المصرية منذ قبل الانفصال ، ونغماته مصرية كلها إلا أوله والاعتراف فموسيقاهما بيزنطية .

٤ — قداس الأنبا سرابيون أسقف تموميس الذى كان تلميذاً

لأنطونيوس الكبير وصديقاً للأنبا أثناسيوس الرسولى ، ويخيل إلينا أن هذا القداس لم يكن واسع الانتشار ولم يستمر استعماله مدة طويلة ، ونحن لانعرف عن موسيقاه شيئاً .

فهذا الفن القديم ورثته الكنيسة القبطية وحافظت عليه ، ولعل فى دراسته العلمية مايعود بنا إلى أصوله المصرية القديمة . فإن الموسيقى الكنسية القبطية أقدم مدرسة موسيقية معروفة فى العالم .

الفصل الخامس

الحياة الاجتماعية

(ا) مركز المرأة فى الحياة المصرية .

(ب) الأسرة .

(جـ) العادات .

(د) التقويم .

(هـ) الرهبنة : قيامها فى مصر ، أطوارها ، آثارها التربوية والاجتماعية وانتشارها فى أنحاء العالم المسيحى .

(أ) مركز المرأة فى الحياة المصرية

كانت المرأة فى مصر — منذ أقدم العصور — مصدر الوحى ومبعث الجهاد الروحى . حتى لقد جعلوا الآلهة معات رمز العدالة والبر والحق . وقد سجل لنا التاريخ أسماء الآلهات والملكات والكاهنات، ولكن العظمة الروحية التى امتازت بها المرأة فى مصر لا ترتكز على هؤلاء وحدهن — إذ هن يؤلفن أقلية — بل ترتكز فوق ذلك على أن المرأة كانت مسئولة عن أولادها أمام معلميهم ، كما كانت مسئولة عن والديها فى شيخوختهما . فهى لم تكن مصدر الوحى فقط بل كانت حاملة الشعلة أيضا .

واعتنق المصريون المسيحية فظلت المرأة مصدر الوحى وظلت حاملة الشعلة ، فقد روضت نفسها على السمو بأخلاقها وفضائلها حتى صارت نموذجا للوثنيين وقدوة مثلى اجتذبت هؤلاء الوثنيين إلى دين المسيح بطريقة معيشتها ، لأنها كرست حياتها للخدمة فى خشوع ، واضعة نصب عينيها كلمة بولس الرسول « انتم هيكل الله وروح الله ساكن فيكم » . ومن ثم عاشت باستقامة وطهارة فانتزعت احترام الجميع انتزاعا . وكانت التعاليم التى تسلمها التلاميذ من السيد المسيح عن كرامة الشخصية الإنسانية تتردد على مسامع الشعب كل يوم إذ كان إكليمنضس الاسكندرى يعلن عظمة الزواج المسيحى فى محاضراته بالمدرسة السكندرية . وكان يبين لسامعيه كرامة هذا الزواج الذى جعلت منه

الكنيسة سراً مقدساً ورباطاً روحياً يعقده الكاهن بمقتضى ما ناله من سلطان تسلمه من الرسل أنفسهم ، ومن أن السيد المسيح بارك العرس فى قانا الجليل ، وكان الوثنيون يحتقرون الطهر والعفاف ويتباهون بما هم فيه من فساد . والعجيب أن هؤلاء الوثنيين الذين كانوا يصغون إلى محاضرات اكليمنضس وغيره من معلمى الكنيسة عن الواجبات النبيلة المفروضة على الزوج وزوجته ، وعن قدسية الزواج — كانوا يصغون بانتباه تام لأنه كان لا يزال بهم حتى يصعد بنفوسهم إلى ذروة الحكمة التى بلغها . فإذا ما قارن المستمعون إلى محاضرات اكليمنضس بين تعاليمه وبين الحياة التى يحياها المسيحيون وجدوها صورة صادقة للإيمان بقدسية الزواج . لأن الزوجة المسيحية كانت مثالا حياً للكرامة الإنسانية التى تترفع عن النزول إلى حمأة الرذيلة . وحين أبصر الوثنيون هذا التقديس للزواج وهذا التمسك التام بالعفاف ، تحولوا تدريجاً نحو هذا الدين الذى ارتفع بالصلة الزوجية إلى مرتبة الروحيات .

ومع أن التاريخ يذكر سير النساء اللواتى بلغن مكانة روحية سامية، إلا أن هناك آلافا من الجنديات المجهولات اللواتى عرفن معنى الفضائل المسيحية وعشن بموجبها ، ومن أرق الأمثلة عن هاته النسوة المجهولات قصة يرويها الأنبا مكارى الكبير بنفسه ، فإنه — على الرغم من حياة النسك والرهبنة التى كان يحياها — كان يؤمن بأن كل من يفعل إرادة الله ينال رضاه . فقد شاء ذات يوم أن يعرف درجة القداسة التى وصل إليها ، فرأى فى رؤى الليل ملاكاً ينبئه بأنه بلغ مرتبة سيدتين فى بلدة معينة . فلما أصبح الصباح ترك صومعته قاصداً البلدة التى أشار

إليها الملاك . ولما وصل إلى بيت السيدتين استقبلتاه بالتكريم والاجلال ثم سألهما عن كيفية معيشتهما ليعرف السبب فى ما نالتا من تقدير، فأعلمتاه بأنهما يسكنان معاً لأنهما متزوجتان من أخوين. وأنهما اتفقتا منذ اليوم الأول على أن لاتتفوه إحداهما بكلمة تجرح الأخرى. وإذا أحست واحدة منهما بأنها أساءة بكلمة إلى الأخرى اعتذرت لها فى الحال دون أن تدع الشمس تغيب قبل أن تكون قد استسمحت من أساءت إليها وصفت الحساب مع ضميرها . وحين سمع الأنبا مكارى هذا الكلام هتف قائلا « حقاً أنه لافرق بين الراهبة والمتزوجة ، وبين الناسك والرجل الذى يعيش فى العالم. فقد وهب الله تعالى نسمة الحياة للجميع ولم يطالبهم إلا بصدق نواياهم » .

ولقد أدركت المرأة المصرية قدسية الأمومة كما أدركت قدسية الزواج تماماً . فلم يعد للأم المسيحية شاغل إلا العناية بأولادها والسهر على تربيتهم تربية تتفق والكمال المسيحى . وقد دفعها هذا الادراك إلى التفانى والمحبة . ولم تكن أمومتها منصبة على أولادها الذين ولدتهم فقط بل اتسعت لتشمل الأولاد المحتاجين إلى العناية فى شتى صورها . فلقد استشهد أبو أوريجانوس فى الاضطهادات التى أثارها سبتيموس ساويرس فى أواخر القرن الثانى للمسيحية . وكان أوريجانوس لا يزال يافعاً مع كونه أكبر إخوته السبعة ، ولم يكتف الامبراطور الرومانى الظلوم بأنه أفقد هؤلاء الأولاد أباهم وعائلهم بل صادر أموالهم أيضاً . فاعتنت بهم سيدة غنية من سيدات الاسكندرية لم يذكر التاريخ اسمها ، وسهرت على تربية هؤلاء الأطفال اليتامى ، وبذلك هيأت الفرصة

لأوريجانوس ليكون من أبرز المعلمين الذين أنجبتهم الكنيسة المصرية ومن أعلام الفكر المصرى الناضج .

ولقد كان من أثر تمسك المرأة بكرامتها وحفظها لطهرها وإدراكها الصحيح لمسئولياتها أن وثق بها آباء الكنيسة ومعلموها . فنجد أن أوريجانوس ناظر مدرسة الاسكندرية حين سجل الكتاب المقدس فى لهجات مختلفة، استخدم سبع شابات يجدن الخط كى يكتبن له هذا الكتاب فى صيغته النهائية بعد التنقيح والتعديل. ولما بدأت الاضطهادات المروعة التى شنها أباطرة الرومان على المصريين كانت المرأة قوة راسخة شدت من عزيمة الرجال ، إذ كانت تقف إلى جانبهم وهم يسامون أنواع العذاب تشجعهم على احتمال مايلاقون من هول . وبعد ذلك تتلقى هى ماتلقاه الرجال من صنوف التنكيل فى سكينة وثبات .

وكان يحدث أحياناً أن يجبن الرجل فتكون المرأة سبباً فى أن يستعيد شجاعته . وأبرز مثل لذلك السيدة دميانة التى كانت الإبنة الوحيدة لمرقس والى البرلس . وكانت قد طلبت إليه أن يبنى لها قصراً تقيم فيه بمنأى عن العالم لتخلو فيه إلى ربها وتقضى عمرها فى الزهد والتقشف ، وفى الصوم والصلاة ، وفى التأمل والعبادة . فأجابها أبوها إلى رغبتها وبنى لها قصراً فى المنطقة المعروفة الآن بالبرارى بالقرب من بلقاس ، حيث عاشت فيه فى أمن وسلام مع أربعين عذراء نذرن العفة والطاعة مثلها . وعشن جميعاً فى هدوء وطمأنينة . إلا أن ديوقلديانوس الامبراطور الرومانى أثارها حرباً شعواء على المسيحيين فجرعهم صنوف التعذيب والتنكيل . وحين أعلن هذا

الإمبراطور الطاغية اضطهاده طلب من الولاة والحكام أن يذهبوا معه إلى الهيكل ويرفعوا القرابين للآلهة . فجبن مرقس أبو دميانة وخشى على مركزه وجاهه ، وذهب مع الإمبراطور كما طلب .

فلما سمعت دميانة بما كان من خوف أبيها ذهبت لملاقاته وأعربت له عن حزنها العميق لما أبداه من خوف وتراجع . فلم يسع مرقس إزاء كلمات ابنته إلا أن يعود إلى الإمبراطور ويعلن له ندمه عما فرط منه من تمجيد للآلهة ويقرر له أنه مسيحى ، فأمر الإمبراطور بقطع رأسه بالسيف . ثم أرسل جنده إلى حيث تعيش دميانة ومعها الأربعون عذراء ، فنكلوا بهن تنكيلا . وتحملت دميانة وصديقاتها كل صنوف العذاب بصبر عجيب . وكان أهل القرية قد خرجوا جميعاً ليشاهدوا ماسيفعله الجند بالعذارى. فلما رأوا ثباتهن وشجاعتهن أعلنوا مسيحيتهم ، فأمر الضابط الرومانى بقتلهم جميعا كما أمر بقتل السيدة دميانة والعذارى الأربعين . وهكذا كانت بسالة السيدة دميانة سبباً فى إذكاء نار الحمية والإيمان الثابت فى قلوب هؤلاء جميعاً .

ثم انتهت الاضطهادات ، وحل الأمن والطمأنينة . فعادت المرأة إلى مزاولة أعمالها العادية . فالزوجة انصرفت إلى بيتها ، والأم عادت إلى تربية أولادها . وإلى جانب الزوجة والأم كانت توجد من وهبت حياتها لخدمة الله والناس ،واختارت أن تكون راهبة أو شماسة (أو كليهما فى آن واحد) . ولم تكن حياة العبادة منصبة على العبادة والتأمل فقط بل شملت العمل اليدوى والعقلى والخدمة الاجتماعية أيضا .

أما درجة الشماسية فكانت تستلزم ممن ينالها أن يتفقد المرضى والمسجونين والغرباء والمعوزين ، كما كان عليه أن يزور العائلات ويقدم تقريراً عن أعماله للكاهن أولا بأول . فكانت الشماسة مسئولة عن الحى المنوط بها خدمته، ترعى سكانه وتعمل جهدها على تخفيف آلامهم وعلى إدخال الطمأنينة إلى نفوسهم ، وتحرص على مصاحبتهم إلى الكنيسة كى ينالوا حظهم من الرعاية الروحية . بل لقد كان الشماس (أو الشماسة) يوصف بأنه (عينا الأسقف وأذناه) لأهمية عمله .

وأعظم مثل بين الشماسات، تلك الشماسة التى لم يذكر التاريخ اسمها والتى اختبأ عندها اثناسيوس الرسولى (البابا الاسكندرى العشرون) . ذلك أن الأريوسيين كانوا يطاردونه بغية قتله . فهجموا ذات ليلة على الكنيسة التى كان يصلى فيها . ووقف الشعب تلك الليلة فى وجه الأريوسيين . ثم حمله بعض الرهبان خارج الكنيسة . فلما وجد نفسه حراً طليقاً أخذ يتمشى فى شوارع المدينة وهو يفكر. وكان ظلام الليل ستاراً يغطيه عن أعين مطارديه ، وفيما هو يفكر ويصلى ألهمه روح الله أن يلجأ إلى بيت شماسة لم تتجاوز العشرين من عمرها . ولما قرع الباب فتحته بنفسها ففرحت فرحا عظيما حين رأته ، ومكث القديس العظيم فى بيتها حوالى ست سنوات خدمته خلالها بأمانة لا تعرف الكلل . فكانت تأتى له بالمخطوطات من الكنيسة ، وتحمل إلى الشعب رسائله الفصيحة وخطاباته التى كان يكتبها فى مختلف المناسبات بما أثار دهشة أصحابه وأعدائه معاً .

فأصحابه كانوا يتلقون تلك الرسائل بغبطة ولهفة وهم يتساءلون فى شىء من الخوف : ترى أين البابا العظيم ؟ أما خصومه فكانوا يتميزون غيظاً لعجزهم عن معرفة مقره والفتك به . وضاعت جهود الأصدقاء والأعداء فى البحث عنه . فلما مات الإمبراطور قسطنس الثانى الأريوسى — وكان المؤمنون مجتمعين ساعتئذ فى الكنيسة للصلاة — إذا بأثناسيوس الرسولى واقف بينهم فجأة . فلاقوه بفرح لا يوصف ثم سألوه أين كان مختبئاً فأجابهم « لم أختبىء عند أحدكم لئلا يسألكم الحكام عن مكانى فتكذبون حرصا على حياتى ، بل لقد اختبأت عند تلك التى هى فوق الشبهات مع كونها شابة جميلة . فكسبت بذلك حياتى وحياتكم » .

هذا المثل الرائع يعطينا صورة عن خدمات الشماسات ومدى جهودهن الدينية والاجتماعية ، وإلى جانبهن وقفت الراهبات اللواتى كرسن حياتهن للخدمة والعبادة فى تفان عجيب . ومن الأمثلة البديعة لخدمة الراهبات الروحية والاجتماعية معاً ذلك المثل الذى قدمته العذراء « بيامون » حين فضت نزاعا بين أهل قريتين بسبب مياه النيل — إذ كان أهالى كل قرية يريدون رى أراضيهم قبل الآخرين .

وثمة خدمة أخرى لها قيمة كبيرة كانت المرأة تؤديها . هذه الخدمة هى التطبيب . فقد كانت بعض النسوة يعرفن ما لبعض الأعشاب من فوائد صحية ويركبن منها العقاقير ويصفنها للمرضى . وكانت هذه الخدمة توهب مجانا فى معظم الأحيان . ولا تزال فى بعض بلاد الصعيد سيدات يؤدينها . وهؤلاء السيدات لم يذهبن إلى مدارس ولم يتلقين العلم على

أساتذة . ومن المعروف أن مثل هذه المعرفة جاءتهن بالتسليم — أى أن المرأة التى لديها هذه المعرفة كانت تختار شابة تتوسم فيها الرغبة والمقدرة على تأدية رسالة التطبيب فتسلمها معرفتها بالممارسة. ولما كانت هاته النسوة يعشن فى بيئة ساذجة ، يندر فيها من يعرف القراءة والكتابة ، كما يندر أن يوجد فيها من يهمه أن يكتب سيرة المرأة العاملة، فإنه لاتوجد أدلة مخطوطة، وإنما الأدلة قائمة على قيد الحياة نفسها وعلى التقليد الذى سارت عليه مصر منذ أقدم العصور .

(ب) الأسرة

اهتمت المسيحية بحياة الأسرة كأساس لبناء مجتمع سليم . فبمجرد دخول المسيحية إلى مصر اهتمت بأن تدخل تعاليمها وقوانينها إلى الأسرة لتدعيمها و حمايتها ، فتساعد على تهيئة جو من الاستقرار والأمن .

فرابطة الزواج المسيحى تعتبر ركناً هاماً من أركان الكنيسة بل وأحد أسرارها السبعة التى هى : العماد — التثبت — التناول — الاعتراف — الزيجة — مسحة المرضى — الكهنوت (والسر الكنسى هو عمل مقدس به ينال المؤمن نعمة غير منظورة تحت علامة منظورة) .

لذلك فرابطة الزواج تحتاج إلى نعمة إلهية لربط الزوجين برباط روحى متين ، يستمر مدى الحياة ولا يفصمه إلا الموت أو الخيانة الزوجية (الزنا) . لذلك فمن المحتم أن يقوم بطقوس هذا السر كاهن شرعى ، وبالتالى لا يستطيع أحد أن يفصم هذه الرابطة إلا الكاهن فى حدود العلة الآنفة الذكر فقط .

وبما أن الزواج فى المسيحية رابطة روحية تجعل من الاثنين واحداً، لذلك فلا يمكن أن يدخل ضمن هذه الرابطة أكثر من زوج واحد وزوجة واحدة .

وعلى الكاهن بصفته أباً روحياً أن يستوثق من توافر شروط الزواج

والخلو من موانعه . وأن يتأكد من الرضا الشخصى لكل من الخطيبين، فيسأل كلا منهما رأيه على انفراد بعيداً عن مؤثرات أو ضغط العائلة ، حتى يضمن نجاح الزواج وسعادة الزوجين واستقرار العائلة .

ويسمى الأقباط حفل إتمام طقس الزواج بالاكليل — لأن الكاهن يتوج رأس العروسين أثناء الصلاة باكليلين ، دلالة على النعمة المقدسة التى توجت حياتهما برابطة الزيجة . وتعتبر حفلات الزواج فرصة مواتية تعبّر فيها العائلة عن مشاعر الفرح والابتهاج بمظاهر مختلفة . كان من أولها تقديم الشكر لله بمحاولة إشراك الفقراء والجيران من أهل المنطقة المجاورة فى مشاعر الفرح ،وذلك بتوزيع الكساء وما طاب من مأكل وحلوى عليهم .

أما العائلات الثرية فتنحر الذبائح ويستمر احتفالاتها عدة أيام . الليلة السابقة على العرس وتسمى « ليلة الحناء » وتقام وليمتها فى بيت العروس لتوديعها ، وفيها تصبغ العروس وأهل البيت أكفهم وأرجلهم بالصبغة الحمراء التى تتركها عجينة أوراق الحناء على الجلد ، ثم ليلة العرس فى بيت العريس والصباحية حيث يستقبل الزوجان هدايا العائلة والأصدقاء ، وما يسمى بالنقوط (أى الهدية النقدية) ونشأت فكرتها أصلا كمشاركة عملية فى مصاريف العرس . وأحيانا تستمر هذه الحفلات إلى نهاية الأسبوع وتختتم بليلة السبوع .

ولما كانت الأطعمة التى تقدم فى ولائم العرس من الأطعمة الفاخرة الدسمة ، فقد منعت الكنيسة إقامة « الأكليل » فى أيام الأصوام ،حيث

يمتنع تناول الأطعمة الحيوانية والدسمة ، وحيث يمتنع الأزواج عن المعاشرة الزوجية للتفرغ للصوم والصلاة .

وحينما يولد للعائلة طفل ، يكون أول احتفال عائلى به فى اليوم السابع ، فتدعو العائلة الكاهن ليبارك الوليد ، ويرفع صلاة شكر لله من أجل سلامة الوالدة ، وتسمى « صلاة الطشت » نظراً لاستخدام الطشت فى غسل الطفل فى ذلك اليوم . وخلال هذا الطقس يشترك الكاهن مع الوالدين فى اختيار إسم قبطى للوليد — يختارونه غالباً من أسماء القديسين والشهداء المشهورين بمثلهم العليا ولهم فى ذلك طرق مختلفة : فالبعض يختار اسم القديس الذى ولد الطفل فى يوم عيده أو ذكرى استشهاده . والبعض يختار سبعة أسماء لقديسين مختلفين ويطلق أسماءهم على سبع شمعات ، والشمعة التى تستمر مضيئة إلى آخر الحفل يطلقون الاسم الذى تحمله على الوليد . وأحيانا يكون الاسم قد أعد من قبل بأن نذر أحد الوالدين تسمية الوليد بإسم القديس الذى استشفع به فى وقت ضيقته .

وكان حب الأقباط للقديسين والشهداء يدفعهم لإطلاق أسمائهم على أبنائهم ، سواء كان اسم القديس من أصل مصرى أو يونانى أو سريانى ، الأمر الذى اختلط على البعض فجعلهم يتشككون فى مصرية حاملى هذه الأسماء . فكانوا ينسبون مشاهير العلماء والقديسين المصريين إلى اليونان لمجرد أن الاسم أصله يونانى .

وكان فى كل بيت قبطى « مقصورة » (ومعناها مكان مقصور أو

مخصص للصلاة) بها أيقونة (أى صورة) لقديس أو أكثر ، وتوضع فى ركن خاص بالبيت كمكان مخصص للصلاة والعبادة ، وأحياناً يضيئون أمام الأيقونة قنديلا من الزيت أو بعض الشموع تكريماً للقديس الذى كانت حياة الفضيلة والتضحية التى عاشها نوراً وهدياً للمجتمع . وأمام هذه المقصورة اعتادت العائلة القبطية أن تجتمع لتصلى الصلاة العائلية فى الصباح وعند الغروب . وتحتفل العائلة بالعيد السنوى لهذا القديس بتوزيع الصدقات وعمل وليمة للشعب أغنياء وفقراء معاً .

وحينما يكتمل للولد أربعون يوما ، تحمله أمه إلى الكنيسة لينال سر العماد ، فتعين له الكنيسة عرّاباً أى (أشبينا) ومهمته أن ينوب عن الكنيسة فى رعاية الطفل روحياً إلى أن يصل إلى سن الدراسة ، فيلتحق بمدرسة الكنيسة .

وهذا الارتباط القوى بين البيت القبطى والكنيسة كان يأخذ مظاهر متعددة أخرى تترك فى حياة أولاد العائلة انطباعات دينية عميقة . فكلما بنت العائلة بيتاً جديداً أو نقلت مسكنها إلى دار أخرى ، دعت الكاهن ليبارك المسكن الجديد بصلاة شكر خاصة يقوم الكاهن فى آخرها برش الماء المقدس فى أرجاء البيت استجلاباً للخير وطرداً للشر . ومن الواجبات الرعوية على الكاهن أن يزور بيت رعيته من حين لآخر واعظاً ومرشداً . كما عليه أن يزور البيت كلما مرض أحد أعضائه فيصلى سر مسحة المرضى (القنديل) ويدهن المريض بالزيت المقدس .

ومن العادات العائلية القديمة فى الصعيد ، الأمسيات التى يسمونها

« الميمر » . والميمر معناه السيرة . فإذا كان على عائلة نذر ما لأحد القديسين ، أو مناسبة فرح وشكر لشفاء مريض أو توفيق شخص فى تجارته أو عمله أو الخروج من ضيقة أو شر محيط ، احتفلت العائلة بدعوة الجيران والأقارب والفقراء ومرتلى الألحان الكنسية إلى سهرة يجلسون فيها فى حلقة يتوسطها من يقرأ سيرة (ميمر) أحد القديسين . وكلما وصلوا إلى فصل جديد فى السيرة أو نقطة بطولة ، يتوقفون عن القراءة ويأخذون فى ترتيل المدايح الشعبية فى تهليل وبهجة . ويتبارى مرتلو الألحان فى ارتجال مقطوعات شعرية يسمونها « الأرباع » (أى أربعة أبيات) . وتدور معانى هذه القصائد حول المناسبة التى يحتفلون بها . وتدخل فيها ألفاظ أو أبيات باللغة القبطية لأن القصائد كانت تلقى قديماً باللغة القبطية . ويدخل فيها أيضاً تفسير للكتاب المقدس وحض على الفضيلة . وكلما أعجب الحاضرون بقطعة يجزلون العطاء (النقوط) على المرتل (وهو غالباً ضرير) وهكذا يقضون سهرتهم طوال الليل فى ذكر الله ورجاله الأتقياء . وهذه الاجتماعات تعتبر فى نفس الوقت وسيلة من وسائل الترفيه الشعبي الروحى .

المـآتم :

وترتبط عادات الحزن والمـآتم فى العائلات بمظاهر دينية أيضاً . إذ تشيّع الجثة إلى الكنيسة حيث تقام صلوات جنائزية استمطاراً لرحمة الله على ما قد يكون المنتقل قد فعله من هفوات أو سهوات أو أخطاء غير مقصودة . وفيها أيضاً طلب التعزية السماوية لأهل الميت . وتقام صلاة خاصة فى بيت الميت فى اليوم الثالث للوفاة . ولهذه الصلاة

أثر كبير فى تخفيف وطأة الحزن على أقاربه . ويسميها العامة « رفع الحصير » أى إنهاء فترة الحزن الشديد التى فيها يجلس أهل البيت والمعزون على الحصير أرضاً بدلا من الجلوس على الأرائك أو المقاعد .

وبعد ذلك تقام القداسات فى الكنيسة استمطاراً لرحمة الله فى أيام السابع والخامس عشر والأربعين . وتعتبر هذه فرصاً مناسبة للتعبير السليم عن مشاعر الحزن ، إذا ما اقترنت بالتأثير الدينى الذى يعمل دائماً على حفظ اتزان المشاعر ، فلا يكون فيها إفراط مشابه لمظاهر الحزن عند الوثنيين . كما لا يكون فيها كبت ، كما يحدث لدى الذين يفهمون أن التمدن يتعارض مع مظاهر التعبير عن مشاعر الحزن . فقد أثبتت أبحاث علم النفس التطبيقى أن كبت مشاعر الحزن للظهور بمظهر التمدن ، قد أدى فى كثير من الحالات إلى أمراض جسمية ونفسية تظهر آثارها بعد فترة من الزمن .

ولكن للأسف اقترنت أحزان الأقباط خصوصاً عند النساء فى الصعيد ببعض العادات الوثنية من لطم مؤذ ، وشق للملابس ، وحل للشعر ، وصبغ بالنيلة ، والقرع على الصـــدر بشدة ، وفقد زمام النفس حتى تتمايل الثكلى أحياناً باهتزازات توقيعية تتمشى مع أنغام التعديد الذى كثيرا ما يقترن بقرع الرق أو الطبول . وتختلف أقاليم الصعيد فى طريقة « التعديد » وهى فى الغالب تعديد مآثر الفقيد ، ومقدار الخسائر التى لحقت بفقده . إلا أن بعضها ينحرف إلى عبارات الكفر والتذمر . وهذه العادات والأقوال لا تقرها المسيحية ، ويحاربها رجال الدين فى مواعظهم .

وعندما ترزأ عائلة بفقد أحد أعضائها تسرع العائلات المجاورة إلى مشاركتها فى التعزية لتخفيف وطأة الحزن ، كما تشارك أيضاً فى أعباء ضيافة المعزين القادمين من قرى أو بلاد بعيدة ، إذ ترسل كل عائلة (صينية)مأكولات إلى بيت المأتم الذى يكون مشغولا ، فلا يتمكن من إعداد الطعام للمعزين .

وعادة زيارة المقابر (الطلعة) — أى الخروج إلى المقابر التى تكون غالباً خارج القرية أو على مكان مرتفع جاف — من العادات القديمة.وهى من علامات الوفاء وتكريم ذكرى الميت فى أيام الأعياد ، التى يعتاد فيها أفراد العائلة التجمع معاً من بلادهم المتفرقة ، وتصطحب هذه الزيارة بعادات أخرى منها السليم ومنها الضار . فتوزع الصدقات والمأكولات على الفقراء ، وترفع الصلوات لطلب رحمة الله . إلا أنهم كانوا يغالون فى ذلك فيبيتون فى المقابر ويقيمون عدة أيام ويتمادون فى مظاهر الحزن المفرط .

(ج) العـادات

ارتبط المصرى بالـكنيسة ارتباطاً وثيقاً حتى تأثرت عاداته الشعبية وتقاليد حياته اليومية بانطباعات دينية كثيرة، ظهرت آثارها فى أفراحه وأتراحه ، واحتفالاته وأعياده . ولا غرابة فى ذلك فإن للكنيسة معنى اجتماعياً يشمل حياة الشعب التابع لها .

وكلمة كنيسة معناها جماعة ، أى « جماعة المؤمنين » . ويطلق الإسم اصطلاحاً أيضاً على المكان الذى يجتمع فيه المسيحيون مهما كان نوع هذا المكان : فنى فجر المسيحية ، قبل أن تبنى الكنائس والكاتدرائيات ، كان يطلق إسم الكنيسة على البيوت التى يجتمع فيها الشعب للعبادة والصلاة .

ومن هذا الإسم تميزت الكنيسة بوظيفة إجتماعية وروحية ، إذ أن مهمة السمو بروح الإنسان تحتاج إلى رعاية نفسية واجتماعية بجانب الرعاية الروحية حتى تتكامل الشخصية فلا تتعقد أو تنقسم على ذاتها ، فتصير شراً نامياً فى جسم المجتمع . بل تسعى الكنيسة إلى تكوين المواطن الصالح .

ويسهر على توفير هذه الخدمات الرعوية لسد احتياجات الشعب ، رعاة الكنيسة وخدامها بدرجاتهم المختلفة : الشماس والقسيس والأسقف . وهى درجات الكهنوت الأساسية فى الكنيسة .

والكنيسة بهذا الوضع مجتمع اشتراكى ديمقراطى ، تتكافأ فيه الفرص الروحية والاجتماعية أمام الفقير والغنى ، الجاهل والمتعلم ، الصغير والبالغ ، وأبيض البشرة وأسودها . فيتمتع فيه الجميع بفرص العبادة المشتركة فيقف كل هؤلاء خاشعين يعبدون إلهاً واحداً ، ويتعلمون كيفية تطبيق الفضائل فى حياتهم اليومية ، حتى لا يصبح الدين مظهراً منفصلا عن الحياة أو المجتمع ، بل يصير وسيلة فعالة للمشاركة فى العطاء للفقير والمحتاج ، والتعاون لخير المجتمع .

وظهرت علامات هذه النظم الاجتماعية للكنيسة فى مصر منذ أقدم العصور . فضمت مبانى الكنيسة بين أسوارها ، مؤسسات تقوم بالخدمات المختلفة لشعبها من روحية وثقافية واجتماعية . ففى كثير من كنائس قرى الصعيد والوجه البحرى ، ما زالت تحيط بالكنيسة مبانى «الليوان» أو « الإيوان » وهى المضيفة أو قاعة الاجتماعات التى يجتمع فيها الشعب مع رعاته بعد صلوات قداس يوم الأحد فيتشاورون فى شئون مجتمعهم ، ثم يتناولون معاً ما اعتاد المسيحيون بتسميته « الأغابى » وهى كلمة قبطية معناها محبة . وتستخدم اصطلاحاً بمعنى « وليمة المحبة » إذ بعد أن يشترك الشعب مع الكاهن فى تناول الأسرار المقدسة فى نهاية القداس يخرجون إلى قاعة الاجتماعات هذه ويتناولون معاً الغذاء على مائدة واحدة . وجرت العادة على أن تتناوب عائلات القرية تقديم الغذاء ، فيحدد لكل عائلة أسبوع معين من العام ، تقدم فيه الغذاء للمصلين ويقوم كبار أعضاء العائلة بأنفسهم على خدمة أفراد الشعب ، الفقراء والأغنياء على السواء .

وتظهر قيمة هذه الولائم فى الرابطة الأخوية والتقريب بين الطبقات والتقليل من الفوارق الاجتماعية ، بجانب ما تقدمه من ضيافة بإطعام أفراد الشعب الذين تبعد بيوتهم عن مكان الكنيسة .

ولكل عضو فى الكنيسة أن يستخدم نفس القاعة الملحقة بالكنيسة لإقامة احتفالاته الخاصة من عرس أو مأتم . فهى تخدم احتياجات الشعب عامة . ويلحق عادة بهذه القاعة عدة غرف للنوم لإضافة الغرباء والفقراء .

وقد اشتهرت الكنيسة القبطية بالمدرسة الملحقة بها ، وكانت فى القرون الأولى للمسيحية تسمى مدرسة الموعوظين لإعداد الراغبين فى العماد وتلقينهم أصول الايمان المسيحى . ثم أخذت فيما بعد شكل « الكتاتيب » . وكانت تلقن الأطفال مبادىء القراءة والكتابة والحساب بجانب دراسة الكتاب المقدس واللغة القبطية والألحان الكنسية .

وكان بجوار بعض الكنائس مستشفى لعلاج المرضى كما جاء فى سيرة القديس باخوميوس (القرن الرابع) أنه أنشأ مستشفى فى أديرته .

وأجمل مظاهر الرعاية النفسية التى تقدمها الكنيسة لاحتياجات الشعب ، تتجلى فى وظيفة « سر الاعتراف » . وهو كما سمته المخطوطات القديمة « طب روحانى » ، وبلغة العصر الحديث وعلم النفس « صحة نفسية » أو « طب نفسى » سواء الوقائى منه أو العلاجى . فمعروف أن الفرد محتاج إلى إرشاد وتوجيه وبخاصة خلال الأزمات النفسية ، أو عندما تشتد وطأة مشكلات الحياة أو يزداد الشعور بالإثم . فأسلم

طريق لراحة النفس وسلامة العقل هو تفريغ كوامن النفس على يد من يستطيع أن يطمئن النفس ويهدىء من روعها ، ويرسم لها طريقاً لتجديد الرجاء أو بعثه .

وتحتاج النفس البشرية أيضاً إلى أن تكون على صلة مستمرة بالله تعالى ، لذلك تفتح الكنيسة أبوابها ليشترك الشعب معاً فى رفع الصلوات لله مرة على الأقل كل أسبوع — يوم الأحد . وقد اعتادت الكنائس القبطية أن ترفع الصلوات فى أيام الأصوام أيضاً وبخاصة الأربعاء والجمعة من كل أسبوع . وكانت الكنائس قديماً تقيم القداسات يومياً .

وتشتمل صلوات القداس القبطى على طلبات من أجل الظروف المختلفة التى تمر على الفرد فى حياته : من أجل المرضى والمسافرين ، والراقدين (أى الأموات) . . وكذلك من أجل سلامة العالم . ولم تغفل أن ترفع الصلوات من أجل الحكام والملوك والولاة تنفيذاً لوصية الكتاب المقدس القائلة (فاطلب أول كل شىء أن تقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكرات لأجل جميع الناس . لأجل الملوك وجميع الذين هم فى منصب لكى نقضى حياة مطمئنة هادئة فى كل تقوى ووقار) (١ تى ٢ : ١ — ٢).

ولما كانت مصر بلداً زراعياً فقد اهتمت الكنيسة المصرية بنوع خاص بالصلاة من أجل الزراعة وما يؤثر فيها من طقس وماء . ونظمت هذه الصلوات لتتمشى مع الفصول الزراعية :

(ا) ففى فصل البذار (من ١٠ بابة إلى ١٠ طوبة — أى من ٢٠

أكتوبر إلى ١٨ يناير) تصلى قائلة (تفضل يارب الزروع ونبات الحقل فى هذه السنة باركها) .

(ب) وفى شهور الأهوية والحصاد (من ١١ طوبة إلى ١١ بؤونة — أى من ١٩ يناير إلى ١٨ يونية) تصلى قائلة (تفضل يا رب أهوية السماء وثمرات الأرض فى هذه السنة باركها) .

(جـ) وفى شهور فيضان النيل (من ١٢ بؤونة إلى ٩ بابة — أى من ١٩ يونية إلى ١٩ أكتوبر) تصلى قائلة (تفضل يا رب مياه النهر فى هذه السنة باركها — أصعدها كمقدارها ، كنعمتك فرح وجه الأرض ليرو حرثها ، لتكثر أثمارها . أعدها للزرع والحصاد ، ودبر حياتنا كما يليق . بارك اكليل (بدء) السنة بصلاحك ، من أجل فقراء شعبك ، من أجل الأرملة واليتيم والغريب والضيف ، ومن أجلنا نحن الذين نرجوك ونطلب اسمك القدس . لأن أعين الكل تتطلع إليك ، لأنك أنت الذى تعطيهم طعامهم فى وقته . اصنع معنا بحسب صلاحك ، يا معطيا لكل جسد ، املأ قلوبنا فرحاً وبهجة لكى يكون لنا الكفاف فى كل شىء ، ونزداد فى كل حين عملا صالحاً) .

الأصــــوام :

القبط شعب يميل إلى التصوف والزهد ، فقد اشتهر بكثرة أصوامه . إذ يرى الصوم وسيلة لتدريب الإرادة وضبط النفس لكبح الشهوات ، والتقليل من قيمة الرغبات المادية حتى لا تضغط على الميول الروحية للنفس . فالصوم يسهّل التسامى بها إلى مستوى روحى رفيع .

ويصوم القبط بالامتناع عن تناول الطعام مدة من النهار قد تصل إلى الظهر أو العصر أو الغروب حسب مقدرة كل شخص . يتناول بعدها الصائم أطعمة خالية من الدسم غير حيوانية .

وتطغى روح العبادة على القبط فى فترات الصوم ، فيكثرون من الصدقات . وتتأثر حياة العائلة كلها ، إذ تتغير أساليب حياتهم الرتيبة ، فتجرى العائلة استعدادات خاصة لاستقبال الصوم . وحتى الأطفال يشعرون أن للبيت جواً جديداً يفيد ارتباطاً خاصاً بالدين . وعندما كانت مصر كلها مسيحية ، كانت آثار الصوم تنعكس على الحياة التجارية والاقتصادية أيضاً . فتغلق محلات ذبح اللحوم وبيعها . ويتجه النشاط التجارى نحو البقول والزيت وما شاكلها من سلع . وإذ تمتنع الأعراس والولائم ، يسود المجتمع جو من التخشع والعبادة .

وأهم وأقدم أصوام القبط هما يوما الأربعاء (لذكرى التشاور للقبض على المسيح) والجمعة (لذكرى صلبه) من كل أسبوع . والصوم الأربعينى لذكرى الأربعين يوماً وهى التى صامها المسيح ، ويسمى أيضاً « الصوم الكبير » ، وقد بلغت مدته فى وقتنا الحاضر ٥٥ يوماً . والأسبوع الأخير منه يسمى « أسبوع الآلام » . ولهذا الأسبوع تقديس عظيم لدى الشعب لعظم الذكرى التى يحملها . فكانت تتعطل فيه الأعمال ليتفرغ الجميع للصلاة فى الكنيسة حيث يتلى معظم الكتاب المقدس . ولصلواته لحن حزين . ويطلق الأقباط على كل يوم من أيام هذا الأسبوع إسماً يناسب ذكرى خاصة . منها « أربعاء أيوب » الذى اعتاد الناس أن يغتسلوا فيه بالعشب المسمى « رعرع أيوب »

لذكرى شفاء أيوب النبي به . وخميس العهد لذكرى غسل المسيح أرجل الحواريين ليعلمهم التواضع ، وفيه أيضا بدأ معهم عهداً جديداً .

وبانتشار الرهبنة وكثرة الزهد اقتدى الشعب بالرهبان فى حفظ أصوام أخرى : كصوم الميلاد استعداداً لاستقبال بشرى الميلاد وشريعة العهد الجديد ، ويبدأ يوم ١٦ هاتور (٢٥ نوفمبر) وينتهى بعيد الميلاد يوم ٢٩ كيهك (٧ يناير) ، وتبلغ مدته الآن ٤٣ يوماً ، وخلال صوم الميلاد يحتفل الشعب بليالى كيهك فيجتمعون فى الكنيسة ، ويرتلون المدائح والتسابيح ابتهاجاً بذكرى الميلاد . وفى ليالى الآحد من شهر كيهك يسهرون إلى الصباح فى ترديد هذه التسابيح . وفى هذه الليالى كانت بعض العائلات تستضيف القادمين من أماكن بعيدة فتقدم لهم العشاء فى المضيفة الملحقة بالكنيسة .

وأيضا صوم الرسل ، ويبدأ الإثنين التالى لعيد العنصرة وتتراوح مدته بين ١٢ و ٤٩ يوما إذ ينتهى بعيد الرسل فى ١٢ يوليو . وكذلك صوم العذراء ، ويبدأ فى ٧ أغسطس ومدته ١٥ يوما ، وصارت له شهرة شعبية خاصة . وفى أواخر القرن العاشر بدأ الأقباط يصومون صوم نينوى ومدته ثلاثة أيام لذكرى نجاة أهل نينوى (مدينة قديمة بالقرب من الموصل الحالية بالعراق) عن طريق الصوم .

الأعياد :

ينتهى كل صوم من الأصوام القبطية بعيد يحتفل به الأقباط بإقامة القداس فى صباح يوم العيد ثم يفطرون بتناول المأكولات الدسمة

واللحوم والحلوى ، بعد أن يكونوا قد وزعوا منها على الجيران والفقراء . وبعد ذلك يتبادلون التهانى معا فى القاعة الملحقة بالكنيسة أو التزاور فى البيوت . أما فى الثلاثة الأعياد الكبرى (الميلاد — الغطاس — القيامة) فيكون الاحتفال بالقداس مساء ليلة العيد ، وغالباً ينتهى بعد منتصف الليل فتكون له بهجة ، وبالأخص فى ليلة عيد القيامة حيث اعتاد الشعب قديماً أن يخرج من الكنيسة ممسكاً بالشموع المضاءة إلى أن يصلوا إلى بيوتهم .

وترتبط بعض الأعياد القبطية بمواسم زراعية خاصة فتدخل فى تقاليد الاحتفال بالعيد أنواع خاصة من ثمار الموسم . فيأكلون منها ويوزعونها على الفقراء . ومن العادات التى كانت متبعة فى عيد الغطاس (ذكرى عماد المسيح) — ويقع فى ١٩ يناير — الاستحمام فى النهر أو الترع . وكان يوجد فى مبانى الكنائس القديمة حوض كبير يسمى المغطس فى الجانب الأيمن من الجهة الغربية للكنيسة (وما زال موجوداً غير مستعمل فى كنائس أبو سيفين وأبو سرجة فى مصر القديمة) . كان يملأ بالماء وينزل فيه الشعب ليلة عيد الغطاس .

ومن الأعياد ذات الأثر الشعبى البهيج ، عيد « أحد الشعانين » أو « أحد السعف » . وهو الأحد السابق لأحد القيامة . وفيه يحتفل الشعب بذكرى دخول المسيح إلى أورشليم راكباً على جحش ، ذلك الاستقبال الاحتفالى الذى رفع الشعب فيه سعف النخيل وأغصان الزيتون . ويكرر الأقباط هذه الذكرى بحمل سعف النخيل وأغصان

الزيتون إلى الكنائس لحضور قداس العيد . وعادة تحية القادمين بالسعف كانت معروفة فى مصر الفرعونية أيضا .

ومن اليوم التالى لعيد القيامة يبدأ عيد الربيع الذى يسمى الآن « شم النسيم » . وفيه يخرج الشعب إلى الحقول والحدائق للفرح بجمال الطبيعة بعد فترة الصيام والنسك الطويلة السابقة . ويسمى كنسياً « اثنين الفصح » وكانت تستمر أجازة عيد القيامة طوال الأسبوع الأول من الخماسين .

وإذا ما جاء عيد العنصرة — وهو عيد حلول الروح القدس فى نهاية الخماسين — اعتاد القبط توزيع فواكه الموسم الجديدة على الفقراء وذلك لأن يوم الخمسين هذا كان يقابل قديماً عيد الحصاد فيكون تعبير الشكر بتقديم باكورات هذه الخيرات .

وبجانب هذه الأعياد الكبرى توجد أعياد كثيرة أخرى ، من أهمها عيد زيارة المسيح لأرض مصر مع العائلة المقدسة وهو طفل صغير. وتحتفل به الكنيسة القبطية يوم أول يونية من كل عام . وبالأخص فى الكنائس التى بنيت على الأماكن الأثرية التى زارها مثل مسطرد حيث البئر ، وشجرة العذراء بالمطرية ، وكنيسة أبو سرجة بمصر القديمة ، وقسقام حيث يوجد الدير المحرق ، وبه كنيسة أثرية لهذه المناسبة .

ويحتفل القبط بأعياد العذراء ومشاهير القديسين والشهداء والملائكة بعمل نوع خاص من الفطير يوزعونه على الفقراء والجيران . وترجع فكرة الفطير إلى عادة تقديم باكورات محصول القمح كعلامة

شكر لله . وقد كان من عادات القبط ألا يذوقوا المحاصيل الجديدة ولا تدخل ثمارها بيوتهم قبل أن يوزعوا منها على الفقراء .

الموالد :

وكلما اشتهر قديس أو شهيد فى منطقة أو مدينة ، يتوافد على كنيسة تلك المدينة جموع كثيرة من الشعب للاحتفال بذكراه . وعندما يصل القادمون إلى المنطقة بضعة آلاف يضطرون إلى إقامة الخيام حول الكنيسة ليبيتوا فيها ، ويقضوا أيام العيد التى تصل غالبا إلى سبعة أيام .

وقد عرفت أعياد القديسين المزدحمة هذه فى العصر العربى قياسا باسم الموالد . وهو اسم لا ينطبق على الواقع ، لأن الاحتفال غالبا يكون بذكرى استشهاد أو موت القديس ، وهو اليوم الذى أتم فيه البطل جهاده ، ولايهم الكنيسة يوم الولادة فإنه يوم لايقترن بشىء من البطولة أو الإعجاز .

وبدأت مثل هذه الاحتفالات أصلا على أساس تكريم القديس برفع الصلوات وإقامة القداسات وقراءة سيرته بالتفصيل للتشبه بقدوته الصالحة . ثم بتقديم النذور من شموع وبخور وأدوات تلزم للكنيسة إلى جانب نحر الذبائح لإطعام الفقراء والمحتاجين . ولكن لكثرة العدد وما تحتاجه هذه الألوف من أماكن للمبيت ، ومن مأكولات ونحر للذبائح وبيع لاحتياجات الزوار والنذور وخلافه ، انحرفت هذه الاحتفالات من طبيعتها الدينية البسيطة إلى مظاهر مادية تجارية كانت

سبباً فى تسرب كثير من الشرور الاجتماعية إلى تلك « الموالد » مما لم تقره الكنيسة ، لدرجة أن الأنبا شنودة (القرن الرابع) ألقى عظة قوية ندد فيها بتلك الشرور قائلا « جميل جداً أن يذهب الإنسان إلى مقر الشهيد ، ليصلى ويقرأ وينشد المزامير ويطهر نفسه ، ويتناول من الأسرار المقدسة فى مخافة المسيح . أما من يذهب ليتسامر ويأكل ويشرب ويلهو ، أو بالحرى يزنى ويرتكب الجرائم نتيجة للإفراط فى الشراب والبغى والفساد والإثم ، فهذا هو الكافر بعينه .

وبينما البعض فى الداخل يرتلون المزامير ويقرأون ويتناولون الأسرار المقدسة ، إذ بآخرين فى الخارج يملأون المكان بأصوات آلات الطبل والزمر « بيتى بيت صلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص » لقد جعلتموه سوقا لبيع العسل والحلى وغير ذلك . لقد جعلتم الموالد فرصة لتدريب بهائمكم ولسباق حميركم وخيلكم ، جعلتموها أماكن لسرقة ما يعرض فيها للبيع ، فبائع العسل بالكاد يحصل على قليل من الزبائن المتشاحنين ، أو يستخلص لنفسه شيئا من الفائدة نظير أتعابه . حتى الأمور التى لا يمكن أن تحدث للباعة فى الأسواق العامة تحدث لهم فى موالد الشهداء .

ياللغباء ! إذا كنتم تذهبون لمواطن الشهداء لتأكلوا وتشربوا وتبيعوا وتفعلوا كل ما يروق لكم ، فأية فائدة لبيوتكم التى فى مدنكم أو قراكم ؟ ياالعقولكم المغلقة ! وإذا كانت بناتكم وأمهاتكم يعطرن رءوسهن ويكحلن عيونهن ويتجملن لخداع الناس الذين ينظرون

إليهن ، وإذا كان أبناؤكم وإخوتكم وأصدقاؤكم وجيرانكم يفعلون هكذا عند ذهابهم إلى مواطن الشهداء فلماذا جعلتم لكم بيوتا ؟

هناك كثيرون يذهبون إلى الموالد لإفساد هيكل الرب ، وليجعلوا من أعضاء المسيح أعضاء للإثم والفجور بدلا من أن يحفظوا لها قداستها وطهارتها من كل رجس سواء كانوا رجالا أو نساء . دعونى أقول لكم بصراحة تامة أن كثيرين منكم يلتمسون لأنفسهم عذراً قائلين ليست لنا زوجة أو ليس لنا زوج ، فلا تجعلوا زيارتكم لموالد الشهداء فرصة لتدمير أجسادكم فى المقابر التى حولها أو المبانى القريبة منها أو فى أركانها » .

(د) التقويم القبطى

كانت السنة المصرية القديمة فى أول أمرها قمرية ، ونستدل على ذلك أن اسم الشهر عندهم « إيد » ويعبر عنه فى الرسم بالهلال أو النجم .

وكانت السنة القمرية ٣٦٠ يوماً وظلت فى الاستعمال فى طقوس العبادة . ثم أخذ المصريون القدماء بنظام السنة الشمسية بالإضافة إلى السنة القمرية وأكملوها بضم خمسة أيام إليها .

وكان اليوم عندهم ينقسم إلى أربع وعشرين ساعة ، وهى ١٢ ساعة الليل و١٢ ساعة للنهار ، وكانوا يحددون ساعة الليل بوضع النجم ، ولهذا وضعوا علامة النجم لتدل على الساعة . وكانت عندهم أجهزة يعرفون بها مواضع النجوم ، وقد أثبتوا ذلك فى قوائم وجدناها مدونة على سقوف بعض المقابر الملكية ، أما فى النهار فكانوا يحددون الساعة بحسب طول الظل على أجهزة معدة لقياس الظل .

وكانت الساعة تطول أو تقصر على حسب فصول السنة ، ويبدأ النهار عندهم من مطلع الشمس إلى مغيبها ، والليل من غروب الشمس إلى مطلعها فى اليوم التالى .

ووضع التقويم القبطى على أساس التقويم المصرى القديم . أدرك المصريون القدماء ضرورة استخدام سنة مدنية تحتوى على عدد صحيح من الأيام وتكون أقرب ما يكون إلى السنة الشمسية . وتكونت السنة

المصرية من اثنى عشر شهراً ينقسم كل منها إلى ثلاثين يوما ، ثم زادوا عليها خمسة أيام فى آخر السنة اعتبروها بمثابة الأيام التى ولدت فيها المعبودات الخمسة التى تتكون منها مجموعة أوزيريس وهى : أوزيريس ، وإيزيس ، وست ، ونفتيس ، وحوريس . وجعلوا منها مناسبات لاحتفالات دينية خاصة .

أما الشهور الاثنا عشر فقد وزعت على ثلاثة فصول خص كل فصل منها أربعة أشهر . وسموا الفصل الأول فصل « الفيضان » والثانى « بذر الحبوب » والثالث « جنى المحصول » .

واعتبر المصريون اليوم الأول من كل عام هو اليوم الذى تظهر فيه بشائر الفيضان وأشهره من يولية إلى أكتوبر . أما أشهر فصل « بذر الحبوب » فهى من نوفمبر إلى فبراير وهى أشهر الشتاء ، وأشهر فصل « جنى المحصول » من مارس إلى يونية وتتفق مع فصل الربيع حاليا .

ويدل على مدى اهتمام المصريين بفيضان النيل الذى يهب أرضهم الخصوبة ويجددها كل عام ، أنهم أقاموا تقسيم فصولهم على هذه الظاهرة الطبيعية التى تأتيهم كل عام ، أى حدوث الفيضان .

لم تعتمد السنة المصرية فى حسابها على علم الفلك بل وصل إليها المصرى على أساس ظهور الفيضان عاما بعد عام ، فهى سنة نيلية تعتمد على طبيعة الفيضان وقيمته لدى الشعب الذى تتصل حياته به اتصالا وثيقا . ولم يكن من المهم لديهم أن يأتى الفيضان فى نفس اليوم من كل عام . بل يكفيهم أن يعرفوا أن فيضان نيلهم يأتيهم فى نفس الوقت تقريبا .

وليس فى الإمكان أن نحدد متى استطاع المصرى أن يقيم « حساب السنة المدنية » على هـذا الوجه ولكن من المرجح أنه نشأ فى فترة من فترات عصور ما قبل التاريخ وربما كان ذلك فى أثناء عصر حضـارة نقادة الثانية ، وقد جعلوا يوم بدء فيضان النيـــل بمثابة أول أيام العام الجديد .

وحين مضى على هذا التقويم عدة قرون لاحظ المصريون أن أول أيام العام الجديد أخذ يتأخر عن يوم بدء الفيضـان بمدة ، كما لاحظوا أن أشهر « بذر الحبوب » التى كانت تقع فى الشتاء أخذت تقع فى فصل الصيف . وقد نشأ هذا العيب من أن السنة المدنية تنقص عن السنة الشمسية بربع يوم تقريباً ووجد المصريون أن هذا الخطأ صحح من نفسه بعد مضى ١٤٦٠ سنة شمسية من الحساب بالتقويم ، فنى هذه المدة تجمع الفرق وهو ربع يوم فى كل سنة فأصبح ٣٦٥ يوما أى سنة كاملة بعد ١٤٦٠ سنة . وبهذا عاد التوافق بين السنة المدنية والسنة الشمسية .

ولاحظ المصريون أن سنتهم النيلية التى تبدأ من اليوم الذى يأخـذ فيه النيل فى الارتفاع وتنتهى بنفس اليوم من العام التالى ، تتفق بشكل واضح مع الدورة السنوية لنجم ثابت معين يبدو بوضوح بعـد اختفاء طويل ، وذلك مع بدء مجىء الفيضان مرة كل عام ، كما لاحظوا أن ظهوره يكون فى الفجر المبـكر قبيل شروق الشمس ، ويكون أظهر وألمع نجم فى السماء ، وفى دوران الأرض حول الشمس تأتى لحظة كل سـنة يكون فيها هذا النجم فى خط مستقيم مع الأرض والشمس ، وقد أطلق المصريون عليه اسماً مؤنثاً هو « سبدت » وورد ذكرها فى المتون الدينية

القديمة على أنها « الجالبة للنيل » أى التى تحدث فيضانه ، وقدسوا هذا النجم على أنه صورة من صور إيزيس ، وهذا النجم هو الذى نسميه الآن « الشِّعْرَى اليمانية » .

ولقد أثبتت الدراسات الفلكية الحالية أن دورة « الشعرى اليمانية » تعادل تقريباً دورة الشمس فى عام .

هذا ولم يكن للشهور أسماء عند قدماء المصريين فى أول الأمر . وكانت تنسب للفصول التى تقع فيها فيقال مثلا الشهر الثانى من فصل الفيضان أو الشهر الثالث من فصل « بذر الحبوب » وهكذا .

ومنذ الأسرة السادسة والعشرين أى منذ منتصف القرن السابع قبل الميلاد تقريباً ، أطلق المصريون على الشهور أسماء تعبر عن الأعياد التى اعتادوا إقامتها .

والأسماء كما وصلتنا هى :

فصل الفيضان :

١ — تحوت .
٢ — باؤفى .
٣ — أتحير أو حاتحور
٤ — كحوياك .

فصل بذر الحبوب :

١ — طيبى .
٢ — مخير .
٣ — فمنوث .
٤ — فرموتى .

فصل جنى المحصول :

١ — بخونس .
٢ — بينى .
٣ — إبيفى .
٤ — مسورى .

النسىء ، وكانت تسمى به الأيام الخمسة المزيدة على السنة أو الشهر الصغير ، وهى خمسة أيام . وكل من الأشهر ثلاثون يوماً .

إن المصرى القديم هو أول من وضع تقويماً يرصد الحوادث بمقتضاه ، وهو أول من ألف عاماً شمسياً من إثنى عشر شهراً كل شهر منها ثلاثون يوماً وأضافوا الشهر الصغير (النسىء) وهو خمسة أيام لكل عام ، كما قسم العام إلى فصول .

واحتفل المصريون بيوم « طلوع الشعرى اليمانية » ، وجعلوا منه عيد أول السنة إلى جانب احتفالهم العادى بغرة العام الشعبى (٣٦٥ يوما) ، وأطلقوا على هذا العيد إسم « طلوع سبدت » . ولاحظ المصريون أن عيد « طلوع سبدت » يتأخر عن عيد غرة العام الشعبى بمعدل يوم كل أربعة أعوام ، كما لاحظوا اتحاد العيدين مرة كل ١٤٦٠ سنة . وهى دورة « الشعرى اليمانية » .

وذكر الكاتب الرومانى كنسورينوس أن الشروق الاحتراقى للشعرى اليمانية حدث فى أول توت من سنة ١٣٩ بعد الميلاد . وعلى هذا أمكن تحديد حدوث ظاهرة الشروق الاحتراقى للشعرى اليمانية فى سنة ١٣٢١ قبل الميلاد وسنة ٢٧٨١ ق.م وسنة ٤٢٤١ ق.م وهكذا عرف المصريون فى عصر الدولة القديمة تقسيم العام إلى ٣٦٥ يوما وسجلت النصوص (بردية إيبرس) ظاهرة الشروق الاحتراقى للشعرى اليمانية فى بدء ظهور الأسرة

الثانية عشرة ، كما سجلت بردية أخرى (اللاهون) هذه الظاهرة فى عصر الدولة الوسطى . ويؤكد « إدوارد ماير » أن أول الفترة التى تبدأ بعام ٢٧٨١ ق.م كان التوقيت الشمسى معروفا ومستعملا فيها ، فلابد إذن أن يقع بدء استعماله فى أول الفترة السابقة أى سنة ٤٢٤١ ق . م .

قيمة التقويم للمصريين :

لا يزال هذا التقويم منذ عصور ممعنة فى القدم دليلا نافعا ودقيقا للطقس وللفصول وللزراعة وللنيل فى فيضانه وتحاريقه ، ولا يزال المزارعون يراعونه فى كل ما يخص البذر والحصاد كما كان يفعل المصرى القديم منذ آلاف السنين . ولا زالت تجرى على ألسنتنا الأمثال التى تدل على حالة الطقس فنقول : بابة : أدخل واقفل البوابة ، كياك : صباحك مساك ، طوبة : أبو البرد والرطوبة ، أمشير : أبو الهواء والزعابير ، برمهات : إطلع الغيط وهات . . الخ .

والتقويم الزراعى فى مصر لا يزال يتبع التقويم المصرى القديم ، وإليك مثال ذلك :

شهر توت :

يزرع فيه البرسيم والشبث والكرنب شتلا والشعير الشتوى والفول ، وتظهر الذرة الشامى ، وينضج البصل البعلى ، ويتوافر الليمون ، وينضج الزيتون ويكثر السفرجل والتفاح .

شهر بابه :

بدء الزراعة الشتوية : يزرع فيه الأرز والكتان والبصل والثوم

(بالوجه القبلى) والقمح والبسلة والآنيسون والكمون والشعير ، ويجنى القطن ، ويظهر البطيخ والشمام النيلى والقرع والقنبيط ، ويحصد الفول السودانى ، كما تكثر فيه الأسماك الصغيرة (البسارية) .

شهر هاتور :

ينتهى فيه جنى القطن ، وينضج الأرز النيلى ، وتقطع الذرة الشامى ، ويظهر فيه البرتقال واليوسفى . ويزرع العدس والقرع والكوسة والطماطم .

شهر كيهك :

يزرع فيه المشمس والبرقوق والخص شتلا ، والمقات الصيفى والخبيزة والخضروات الصيفية ، ويظهر الفول الأخضر ، ويقطع قصب السكر للعصير ، ويكثر القلقاس .

شهر طوبة :

تنقل فيه الأشجار الصغيرة ، وتقلم كروم العنب ، وتزرع الذرة الصيفية والجوز ونوى الخوخ .

شهر أمشير :

يزرع فيه القطن المبكر (بالوجه القبلى) والذرة العويجة وقصب السكر ، وتغرس الأشجار ، ويلقح النخل ، ويحصد الكمون ، ويغرس شجر التين والتفاح والبرقوق والمشمش ، ويظهر الخيار .

شهر برمهات :

يورق فيه شجر التوت ، ويفقس دود القز ، وتنضج البسلة البلدى ، وابتداء زراعة القطن الهندى ، ويقلع فيه الكتان ، وتظهر الملوخية ، ويزرع الكمون والخضروات .

شهر برمودة :

يحصد فيه الفول والعدس والترمس والقمح فى بعض جهات بالوجه القبلى . ويزرع فيه الفول السودانى ، ويقطف أوائل العسل ، ويجنى الورد لاستخراج مائه ، ويظهر البطيخ الصيفى والتوت ، ويقلع البطاطس الشتوى ، ويزرع فيه الأرز والفلفل شتلا .

شهر بشنس :

يظهر فيه المشمش والبرقوق والتفاح ، ويحصد البصل بالوجه البحرى ، ويزرع فيه السمسم والقلقاس .

شهر بؤونة :

يزرع فيه الأرز والذرة الشامى ، ويقطف عسل النحل ، وتظهر الفاصوليا والقرع والكوسة ، ويظهر العنب والخوخ والكمثرى .

شهر أبيب :

يزرع فيه الجرجير والكرفس والسلق والبقدونس والباذنجان الأسود والجوافة والتوت والخرشوف والباميا والملوخية ، ويظهر الرمان .

شهر مسرى :

ينضج فيه البلح ، ويزرع فيه بصل النرجس والثوم والبصل والطماطم واللفت النيلى ، ويكثر فيه العنب والتين ، ويجمع الزيتون الأخضر .

الدولة الرومانية والتقويم المصرى :

ألغى يوليوس قيصر استخدام التقويم بالسنة القمرية الذى كان شائعاً فى الدولة الرومانية ، وأنشأ تقويماً شمسياً استعان فيه بالفلكى المصرى سوسيجينيس الذى قدر سنة التقويم ٣٦٥ يوما وربعا . واستخدم طريقة السنة الكبيسة مرة كل أربعة أعوام . وأمر يوليوس قيصر باستخدام هذا التقويم رسمياً فى سنة ٧٠٨ من تأسيس روما وهى سنة ٤٦ ق.م ، وسمى هذا التقويم باليوليانى نسبة إلى يوليوس قيصر. واستمر العمل بهذا التقويم حتى سنة ١٥٨٢ حين لاحظ الفلكيون فى عهد بابا روما جريجوريوس الثالث عشر خطأ فى الحساب الشمسى وأن الفرق بين السنة المعمول بها والحساب الحقيقى ١١ دقيقة و١٤ ثانية ، وهذا الفرق اليسير يعادل يوماً فى كل ١٢٨ عاماً .

وصحح البابا جريجوريوس الخطأ المتراكم فأصبح يوم ٥ أكتوبر من سنة ١٥٨٢ م يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٥٨٢ وهو التقويم المعروف بالجريجورى السائد الآن .

تطور التقويم المصرى إلى القبطى:

حدد المصريون المسيحيون بدء تاريخهم بيوم ٢٩ أغسطس سنة ٢٨٤ ميلادية الذى استشهد فيه الكثير منهم ، وذلك بنفس التقويم الذى استخدم فى مصر قبل ذلك التاريخ ، وتسمى هذه الحلقة من التقويم المصرى بالتقويم القبطى ويطلق عليه تقويم الشهداء . وهو يتبع الحساب اليوليانى ، ولهذا نجد أن الخطأ المتراكم بين الحساب اليوليانى والحساب الجريجورى قد بلغ ١٣ يوما فى التقويم القبطى .

أغراض التقويم القبطى :

للتقويم القبطى غرضان : غرض يتبع الحساب الشمسى ، وهدفه إحصاء الأيام والفصول والأعوام الشمسية الكاملة وتحديدها جميعا بالنسبة لدورة الكرة الأرضية حول الشمس . والغرض الآخر يتبع الحساب القمرى ، وهدفه إحصاء الدورات القمرية وتحديد موعد ظهور كل هلال جديد .

وقد زاد اهتمام المصرى بالحساب القمرى بعد دخول المسيحية مصر لأن عيد القيامة وبعض الأعياد الأخرى التى تتصل بعيد القيامة تحدد بالدورة القمرية وتتصل بالدورة الشمسية .

التقويم القبطى القمرى :

حين خطرت فكرة تسجيل الحوادث للإنسان الأول أخذ يؤرخ

بظهور القمر وبأوجهه . ولما تقدمت العلوم أخذ يبحث فى الاختلاف بين مدة دورة قمرية وبين أخرى ، وكذلك فى متوسط مدة الدورة القمرية ، والمدة الواقعة بين لحظة ظهور هلال جديد والهلال الجديد التالى تسمى شهراً قمرياً . وقد يتغير طول الشهر القمرى حتى يصل الفرق إلى ٩ ساعات تقريباً . ولكن هناك دورة كاملة لحركة القمر فى الفضاء بالنسبة إلينا تبلغ مدتها ١٨و٦ سنة شمسية ، كما أن هناك متوسطاً عاما لطول الشهر القمرى فى الدورة الكاملة وهو ٢٩ يوما و١٢ ساعة و٤٤ دقيقة وثلاث ثوان ، ويعتبر هذا المتوسط دقيقا ، ويمكن التنبؤ بمقتضاه عن الأهلة الجديدة وأوجه القمر لمدة ألف سنة شمسية مثلا دون أن يتجاوز الخطأ يوما كاملا .

ومن هذا نشأت فكرة استخدام طول متوسط الشهر القمرى لحساب ظهور القمر الجديد وأوجهه لمئات من السنين ، ويسمى ذلك بحساب الأبقطى (ومعناه الحرفى : الباقى) لأن هذا الحساب يشتمل على استعمال الباقى بعد عمليات حسابية متعددة .

وقد بنى حساب التقويم القبطى القمرى على قاعدة وضعها الفلكى « ميتون » فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وهى أن كل ١٩ سنة شمسية تعادل ٢٣٥ شهراً قمريا كاملا بغير كسور .

واستخدم الأقباط هذه القاعدة منذ القرن الثالث الميلادى ، وقد وضع قواعدها المعمول بها إلى الآن البطريرك الاسكندرى الأنبا ديمتريوس الكرام وهو البطريرك الثانى عشر وساعده فى وضعها الفلكى

المصرى بطليموس . وبهذا يحدد عيد القيامة (الذى يليه شم النسيم) ، بأنه الأحد التالى للقمر الكامل الذى يلى الاعتدال الربيعى مباشرة .

وقد أخذ الغربيون حساب الأبقطى وطبقوه على التقويم الرومانى اليوليانى ، فاتفقت الأعياد المسيحية عند جميع المسيحيين كما كان يحددها التقويم القبطى حتى سنة ١٥٨٢ حين ضبط الغربيون تقويمهم بالتعديل الجريجورى .

الشهور القبطية :

والشهور القبطية كما تعرف الآن هى :

توت (سبتمبر — أكتوبر) .
بابة (أكتوبر — نوفمبر) .
هاتور (نوفمبر — ديسمبر) .
كيهك (ديسمبر — يناير) .
طوبة (يناير — فبراير) .
أمشير (فبراير — مارس) .
برمهات (مارس — أبريل) .
برمودة (أبريل — مايو) .
بشنس (مايو — يونية) .
بؤونة (يونية — يولية) .
أبيب (يولية — أغسطس) .
مسرى (أغسطس — سبتمبر) .
النسىء (سبتمبر) .

التقويم الأثيوبى :

ومما هو جدير بالذكر أن التقويم الأثيوبى هو نفس التقويم القبطى، فقد أخذ الأثيوبيون تقويمهم عن الأقباط ، وتبدأ سنتهم ببدء السنة القبطية . وتتوافق شهورهم مع الشهور القبطية .

ويسمى الأثيوبيون حساب سنتهم بعام الرحمة ، وهو التاريخ الذى كان سائداً فى مصر فى القرن الحادى عشر ، ويسمى بالسنة الميلادية الشرقية أو السنة الميلادية القبطية ، وهى تنقص ثمانى سنوات تقريباً عن التقويم الميلادى الغربى .

(هـ) الرهبنـــة

١ — قيامها فى مصر

المصرى بطبيعته يميل إلى التدين ، وتصبو صفوة المتدينين منهم إلى حياة روحية أعمق ، وأصفى سريرة ، وأكثر صلة بالله . حياة تتوق إلى الكمال والبر . ومن يصل به الحنين الروحى منهم إلى درجة الهيام بالله ، يسعى إلى التخلص من المشاغل العالمية والاهتمامات المادية ليتفرغ للخلوة والتأمل .

استمال سحر صحراء مصر محبي الفضيلة والكمال إليها : فسماؤها الصافية المليئة بالنجـــوم تنطق بما وراءها من قوة مبدعة مترفقة ، وفضاؤها الشاسع يهيء فرص الحرية الطليقة ، وسكونها الشامل يساعد الإنسان على تركيز أفكاره ومشاعره ووجدانه فى الله وأن يخلو إليه ويخشع أمامه .

وهكذا اندفع المصريون المسيحيون إلى البرية لمغالبة الشر وللخلوة بالله . وكانوا يهدفون من ذلك إلى أن تسمو أرواحهم وترهف نفوسهم فيستطيعوا التحكم فى الجسد وأهوائه ، والتحرر من مغريات العالم التى قد تستهوى الإنسان بعيـــداً عن خالقه ، وتطمس القبس الإلهى الكائن داخله .

ورغم ظهور بعض الحركات التصوفية قبل المسيحية لجماعات فقراء

الهنود والإسينيين اليهود ، إلا أن الرهبنة المصرية كانت اتجاهاً مسيحياً أصيلا ،غير متأثر بتلك الحركات النسكية السابقة عليها لاختلافها عنها فى الهدف والفلسفة والأسلوب . كما أن الرهبان الأول الذين أسسوا هذا الطريق لم تكن ظروفهم البيئية أو العلمية مما يمكنهم من الاطلاع أو السماع عن هذه الحركات حتى يقلدوها . بل خرجوا إلى الصحارى بدافع من الروحانية والزهد كما توحى بهما الديانة المسيحية . ويظهر ذلك بوضوح من حياة القديس أنطونيوس .

ومع انتشار المسيحية فى مصر بدأت مظاهر النسك تنتشر رويداً رويداً . فقد سمع عن شخص يدعى فرونتونيوس (١٣٨ — ١٦١ م) رحل إلى برية نيتريا (وادى النطرون) وفى صحبته سبعون مسيحياً ليعيشوا حياة الرهبنة والزهد .

وأغلب الظن أن الأمثلة المجهولة لهؤلاء النساك الأول أكثر من المعروفة . فأصول الرهبنة فى مصر بعيدة الغور وتاريخها أقدم من تاريخ القديس أنطونيوس . ولم تكن فى بدايتها قد أخذت بعد صبغة عامة منظمة . وإنما أخذت وضعها الثابت المعروف وصبغتها العالمية الواسعة النطاق ابتداء من الأنبا أنطونيوس .

أطوار الرهبنة :

مرت الرهبنة المصرية فى أطوار مختلفة :

١ — التوحد :

إذ كانت الرهبنة الأنطونية فى عهدها الأول تنطوى على العزلة

الفردية التامة المقرونة بالتقشف الشديد . ولما كثر أتباع أنطونيوس أخذ نظام العزلة يتطور تطوراً بطيئاً إلى نوع متوسط من الرهبنة الاجتماعية .

القديس أنطونيوس (٢٥٠ — ٣٥٦ م)

هو القديس العظيم الذى يلقبونه « أب جميع الرهبان » . ولد من أسرة غنية فى الصعيد . ولما توفى والده تاركاً له ثروة كبيرة تأثر بما جاء فى الإنجيل « إذا أردت أن تكون كاملا فاذهب بع كل ما لك وأعطه للفقراء وتعال فاتبعنى » . فنفذ الآية حرفياً ووزع ثروته وتوحد فى الصحراء وسكن أولا فى مقبرة قديمة ثم توغل داخل القفر . وعاش حوالى عشرين سنة لا يرى وجه إنسان وهو فى نسك وصوم وصلاة وتأمل . ولما اشتهر أمره واجتمع حوله كثيرون يطلبون منه أن يرشدهم إلى المعيشة مثله ، خرج إليهم وأرشدهم إلى حياة الوحدة . وكان تلاميذه لا يعيشون فى أديرة بل فى مغارات منفردة فى الجبل . وقد تتلمذ عليه القديس إيلارى مؤسس الرهبنة فى فلسطين ، والقديسان آمون ومقاريوس مؤسسا الرهبنة فى وادى النطرون ، والقديس بنوده أب أديرة الفيوم . كما تتلمذ عليه البطريرك اثناسيوس وكثير من مؤسسى الرهبنة .

ومنحه الله مواهب كثيرة منها شفاء المرضى . وسمع به الفلاسفة فأتوا إليه يحاورونه ليروا مدى علمه فأذهلتهم حكمته على الرغم من أنه كان فى عرف الكبرياء الرومانية أميا لعدم دراسته اليونانية واللاتينية .

ولما حل بالكنيسة اضطهاد مكسيميانوس نزل أنطونيوس إلى الأسكندرية يخدم المستشهدين ويقويهم مشتهياً هو نفسه أن يستشهد. كما نزل إبان هرطقة أريوس يحذر الناس منها ، وكان لظهور هذا الشيخ الناسك المتوحد أثره الكبير فى تأييد البطريرك أثناسيوس .

وقد أرسل إليه الإمبراطور قسطنطين وأولاده رسائل يطلبون فيها بركته فلم يرد عليهم إلا بعد إلحاح رهبانه الذين قال لهم « لا تتعجبوا إن كتب إلينا إمبراطور فهو إنسان . ولكن الأعجب من ذلك أن الله كتب الشريعة للإنسان » .

٢ — الرهبنة الاجتماعية

أخذ الرهبان المتوحدون فى تركيز صفوفهم حول الشخصيات الكبرى من الآباء الروحيين ليتتلمذوا على أب روحى اشتهر بالقداسة والعلم . مع احتفاظ كل منهم بحياة التوحد فى مغارته أو قلايته المنعزلة عن جاره ، ولكن قلاليهم كانت قريبة بعض القرب من بعضها وتقوم حول قلاية الأب الروحى . لذلك يسمى هذا النظام أيضاً بنظام القلالى . وهو مرحلة متوسطة بين الرهبنة الأنطونية والرهبنة الديرية . وقاد هذا النظام القديس مقاريوس الكبير ، وكان مركزه برية شهيت . أى وادى النطرون بالصحراء الغربية .

القديس مقاريوس : هو مؤسس الرهبنة فى وادى النطرون فى صحراء مصر الغربية . ولد سنة ٣٠٠ م من أبوين مصريين فى إحدى قرى محافظة المنوفية . وكان أبوه كاهناً . وقد رسم هو أيضاً قساً

ولكنه لم يشأ أن يتقلد هذه الرتبة لحبه فى حياة الوحدة . فبعد وفاة والديه وزع أمواله على الفقراء وذهب إلى وادى النطرون سنة ٣٣٠ م حيث توحد هناك . ثم زار الأنبا أنطونيوس فى الجبل الشرقى فألبسه الزى الرهبانى وزوده بنصائحه ورجع إلى وادى النطرون حيث تفرغ للعبادة والتأمل . ولم يكن هناك غيره فى كل تلك البرية . وقد عاش الأب مقاريوس ستين سنة فى الرهبنة وتجمع حوله تلاميذ كثيرون ، فبنى لهم كنيستين فى الموضع الحالى لديرى البرموس وأنبا مقاريوس بوادى النطرون . ومن أشهر تلاميذه أرسانيوس والأميران مكسيموس ودوماديوس .

والمدرسة الرهبانية التى تزعمها مقاريوس هى نظام متوسط بين الوحدة المطلقة التى تظهر فى رهبنة أنطونيوس . والحياة المشتركة التى تمثلها رهبنة باخوميوس . فكان الرهبان يعيشون فى قلالى منفردة متباعدة ولكنهم يجتمعون مرة فى كل سبت ليشتركوا معاً فى الصلاة وتناول الأسرار المقدسة . ولم تكن لهم أسوار ولا حصون . ولكن هذا النظام تدرج فيما بعد حتى شابه النظام الباخومى . أما من ثبت من اتباع هذا النظام على حب الوحدة فإنهم انفصلوا منفردين فى مغارات حفروها فى الجبال . وفى سنة ٣٩٠ توفى الأب مقاريوس بعد أن عمر وادى النطرون بآلاف الرهبان . وانقسمت هذه البرية إلى أقسام مشهورة هى نتريا والأسقيط والقلالى ، وأصبحت البرية كلها معمورة معروفة :

٣ — الرهبنة الديرية (حياة الشركة) :

ووضع القديس باخوميوس (٢٩٠ — ٣٤٨ م) مجموعة قوانين يعيش بمقتضاها الرهبان فى دير واحد ، هو عبارة عن كنيسة أو كنائس الدير ، تحيط بها قلالى الرهبان داخل سور واحد .

وتقوم الرهبنة على ثلاث دعائم : الفقر الاختيارى — العفة والتبتل — الطاعة للمرشد الروحى . وهى مقومات إنكار الشهوات الدنيوية والماديات والتفرغ للحياة الروحية .

وكان يشترط على من يريد الانضمام إلى الدير أن يقضى ثلاث سنوات تحت الاختبار . وكان الطعام يقدم للرهبان فى قاعة المائدة مرتين فى كل يوم (فى الظهر وفى المساء) وكانوا يستمعون أثناء الأكل لأحد الأخوة يقرأ فصلا من الكتب المقدسة . وكانت الأعمال اليدوية فى المؤسسات الباخومية إجبارية لفوائدها الروحية التى تشغل الراهب عن الشرود فى أفكار لاتوافقه . كما أنها وسيلة لكسب القوت الضرورى لكى لا يكون الراهب عالة على المجتمع . وكان كل راهب يعمل فى المهنة التى يتقنها بجانب من تخصصوا فى كتابة الكتب ونسخ المخطوطات .

وكان النظام الباخومى يهتم بالعلم ، ولهذا نظم باخوم للرهبان ثلاثة دروس يومية عند الساعات الأولى والثالثة والسادسة[١] من النهار

---

(١) حسب التوقيت الشرقى (أى الساعات السادسة والتاسعة صباحا والثانية عشرة ظهرا بتوقيتنا الحالى) .

للمبتدئين . ودروساً أخرى عامة يعقدها رؤساء الأديرة يومى الأربعاء والجمعة فى تفسير الكتب المقدسة . وكان حضورها إجبارياً .

وكانت الأديرة الباخومية مثلا أعلى فى النظام والحياة الراضية والسلام فى وسط عالم منهار ملأه الفزع والفوضى ، وشمله القنوط والدمار. لذلك كان من الطبيعى أن يهرع إليها الناس بالمئات والآلاف فى عصر سادته الروح الدينية .

الأنبا باخوميوس : ولد حوالى سنة ٢٩٠ م فى إحدى قرى الصعيد من أبوين وثنيين . والتحق فى شبابه بجيش قسطنطين فى حربه لمكسيميانوس . وحدث أن عسكرت فرقته فى ضواحى إسنا فخرج أهالى البلدة من المسيحيين يحملون إليهم الطعام والشراب . فذهب باخوميوس وتساءل عما حدا بهؤلاء الناس إلى إبداء هذا العطف ، فقيل له أنهم مسيحيون ينفذون تعاليم دينهم . فقال فى نفسه « إن كانت هذه هى المسيحية فإننى — إن عدت سالماً — سأصير مسيحياً » . ولما انتصر قسطنطين وسرّح الجيش عكف باخوميوس على دراسة المسيحية واعتنقها .

ثم تتلمذ على راهب شيخ يدعى بلامون ، وازداد فى النسك والمعرفة حتى صار أبا لكثيرين ، وأسس ديره الأول فى طيبة واستخدم فى تدبيره ما اعتاده من نظام العسكرية ومن طاعة ونسك فى الرهبنة . وكثر عدد المنضمين إليه حتى لم يسعهم الدير ، فأنشأ أديرة أخرى وصل عددها إلى تسعة ، كما أنشأ ديراً للراهبات تحت رئاسة أخته . وقد ذكر « بلاديوس » أن رهبان باخوميوس بلغوا ثلاثة آلاف فى حياته

وأنهم بلغوا سنة ٤٢٠ م سبعة آلاف ، وقدرهم « كاسيان » بخمسة آلاف راهب ، وكانت أديرته تضم غير الأقباط رهبانا من اليونان والرومان والأحباش والسريان . وكان كل هذا العدد الضخم تحت إدارة حكيمة حازمة . وضع لهم باخوميوس قوانين فى العبادة والعمل اليدوى والملبس والمسكن والمأكل وما يلزمهم فى معيشتهم الديرية . واشترط فى طالب الرهبنة إن لم يكن يعرف القراءة والكتابة أن يتعلمهما قبل رهبنته ليتمكن من قراءة الكتاب المقدس وكتب الآباء ، ووضع للرهبان نظاما فى الدراسة . وهكذا لم تساعد أديرته على محو الأمية فحسب ، بل كانت معاهد للتثقيف . وقد انتشرت قوانين باخوميوس فى أرجاء العالم . ويعتبر هذا القديس مؤسس الحياة الديرية فى الرهبنة المسيحية ، كما يعتبر أنطونيوس مؤسس نظام التوحد فيها .

٤ — نظام الأنبا شنوده : (٣٣٣ — ٥٤١م) بالديرين الأبيض والأحمر بالقرب من سوهاج وأخميم . أدخل الأنبا شنودة تعديلات على نظام الشركة الباخومى تصطبغ بالشدة والنظام .

نشأ الأنبا شنودة فى الصعيد من أسرة غنية . وكان فى صغره يخرج مع رعاة غنم أبيه فيعطيهم طعامه ويقضى اليوم كله صائماً ، كما كان ينفرد أثناء رجوعه عن الرعاة ويقف للصلاة . ولما تنبه والده إلى ذلك دفع به إلى خاله « بيجول » الذى كان رئيساً للدير الأبيض من سنة ٣٥٠ م فرسمه راهباً . وظل شنودة الصبى يرتفع فى درجات العبادة ، ويكثر من الدراسة والتأمل ، ويتدرب على الوحدة والطاعة والتواضع حتى أحبه الرهبان جميعاً . وبعد وفاة خاله انتخبوه رئيساً للدير سنة ٣٨٣ م

ودامت رئاسته للدير ٦٦ عاماً حتى توفى سنة ٤٥١ م ، وقد قارب المائة والعشرين من العمر .

وقد كثر عدد رهبانه حتى صاروا حوالى خمسة آلاف ، وكان أيضاً أباً لألاف وثمانمائة راهبة . وقد كتب لهؤلاء الراهبات عدداً وفيراً من الرسائل تتبين منها تفكيره السليم وتعمقه فى الروحيات . واهتم بتثقيف رهبانه حتى صاروا من أكثر الرهبان معرفة . ووضع لهم قوانين وأنظمة أكثر شدة من قوانين القديس باخوميوس .

ولكنه كان فى زعامته الشعبية يختلف عن باخوميوس فى أمرين : فبينما ضمت أديرة باخوميوس أجناساً كثيرة اقتصر هو فى أديرته على الأقباط . وبذلك أصبحت أديرته معاقل مصرية صميمة . وبينما كانت كنائس باخوميوس خاصة بالرهبان فقط ، فتح هو كنيسة الدير الأبيض للشعب يأتون إليه فى الآحاد والأعياد فيعظهم ويرشدهم . وكان الأنبا شنودة محباً لشعبه يقاسمهم أتعابهم كفلاحين يرزحون تحت نير مضطهديهم من الرومان ، فهاجم ظلم كبار الحكام والملاك ودعا للرفق بالفقراء .

وقد كان نشاطه محصوراً فى محاربة الوثنية واقتلاع جذور خرافاتها من الكنيسة مثل السحر والتعاويذ والدجل الطبى وبدع الموالد . كما سافر مع القديس كيرلس إلى أفسوس واشترك معه فى محاربة هرطقة نسطور .

ويعتبر الأنبا شنودة أعظم كتاب الأدب القبطى . فقد كانت بلاغته الكتابية وفصاحته الخطابية من أظهر مواهبه . وكانت كتاباته

عملية صالحة للاستعمال المباشر . وكان كثير الإنتاج مالكا لناصية اللغة . وقد خلّف لنا فى جهاده الدينى والقومى الطويل تراثاً أدبياً ضخما باللهجة الصعيدية التى لم يكتب أو يخطب إلا بها .

وما أن وصلت الرهبنة إلى هذه الأطوار والأنواع المتعددة حتى كانت الصحارى المصرية وبقاع كثيرة من الوجه القبلى على الأخص ، قد امتلأت بالأديرة وقلالى النساك . وامتلأت بالرهبان والمتوحدين حتى أنه قيل أن المسافر من الإسكندرية إلى أسوان فى القرنين الخامس والسادس لم يكن فى حاجة إلى أن يحمل زاداً للطريق ، إذ يستطيع أن يتزود باحتياجات الرحلة من الأديرة والقلالى المنتشرة بكثرة على أطراف وادى النيل وصحراواته الشرقية والغربية .

ومن أهم المناطق التى تركزت فيها جماعات الرهبان :

١ — منطقة بسبير فى الصعيد الأوسط .

٢ — منطقة جبل نتريا أو وادى النطرون بالصحراء الغربية وكانت تنقسم إلى ثلاثة مراكز رهبانية :

(ا) نتريا .

(ب) الأسقيط .

(ج) القلالى .

٣ — منطقة مريوط على الساحل الشمالى غربى الإسكندرية .

٤ — منطقة البهنسا وهى بالقرب من بنى سويف الحالية وكانت تعرف فى العصر الرومانى باسم أوكسيرنخوس .

٥ — منطقة أنتينوى بالقرب من ملوى .

٦ — منطقة ليكوس بالقرب من أسيوط .

٧ — منطقة سوهاج وأخميم (پانوبوليس) حيث أديرة الأنبا شنودة .

٨ — منطقة طيبة وهى منطقة واسعة فى مديرية قنا حيث انتشرت أديرة باخوميوس .

ولم يبق من هذا العدد الضخم من الأديرة ، فى وقتنا الحاضر سوى ثمانية أديرة قبطية مأهولة بالرهبان ، والباقى منها أطلال متروكة يؤمها الشعب فى الأعياد لإقامة القداسات ، منها أربعة فى وادى النطرون وهى : أديرة البراموس — السريان — الأنبا بيشوى — وأبو مقار ، وفى جنوب صحراء الفيوم : دير الأنبا صموئيل (القلمونى) ، وفى جنوبه بالقرب من ديروط : الدير المحرّق ، أما فى الصحراء الشرقية فيوجد دير الأنبا أنطونيوس ودير الأنبا بولا . ولليونان الأرثوذكس دير سانت كترين بالقرب من الطور فى شبه جزيرة سيناء .

وبمدينة القاهرة توجد خمسة أديرة للراهبات فى مصر القديمة ، وحارة زويلة ، وحارة الروم .

آثار الرهبنة:

١ — التربوية :

عند ما أدت الاضطهادات والاضطرابات المتوالية إلى ضعف مدرسة الاسكندرية اللاهوتية فى نهاية القرن السادس ، انتقلت القوى

التربوية فى القطر المصرى من الاسكندرية إلى الصحراء ، فصـــارت الأديرة مركزاً تربوياً عظيما لعلوم الكنيسة .

وقد اعتبرت الأديرة مخازن كنوز العلوم والمعرفة سواء منها الدينية أو المدنية . وهى التى قادت الحركة التربوية فى مصر خلال القرون الوسطى . فبجانب البحوث والدراسات التى تركزت داخل الأديرة ، فقد عهد أيضاً إلى عدد من الرهبان فى إنشاء مدارس أولية (كتاتيب) فى قرى وادى النيل لتعليم أبناء الأقباط .

إن الجو الشاعرى الذى يحيط بالأديرة ، والهدوء الشامل الذى يعيش فيه الرهبان هيأ لهم فرص التأليف والكتابة وبخاصـة فى العلوم اللاهوتية ، وتفسير الكتب المقدسة إلى جانب الخبرات النسكية والروحية التى تعتبر من أعمق الدراسات النفسية .

وكان بكل دير مدرسة لنسخ المخطوطات بجانب جماعات النساخ التى عملت على نشر التراث الثقافى والدينى فى وقت لم تكن الطباعة قـد عرفت فيه .

ويجمل « هرناك » آثار الرهبنة العلمية فى عبارة واحدة قائلا « إن الفن والشعر والعلوم قد وجدت فى الرهبنة ، فبادىء حضارتنا تعتبر فصلا من تاريخ الرهبنة » .

٢ ــ الاجتماعيـة :

كان للرهبنة آثار اجتماعية عميقة الغور فى نفوس الناس . تأثر بها المجتمع القبطى ، فسادته موجة من الزهد والتقشف وأخـــذ يقتدى

بالرهبان وينقل عنهم كثيراً من عاداتهم وأصوامهم . ولما اشتهرت فضائل الرهبان ، وذاع صيتها ، اختار الشعب قادته الروحيين من الرهبان ، وكانوا فى العصور الأولى يحملونهم قسراً إلى المدن لتولى مناصب الأسقفية والبطريركية . ومن ذلك الحين كثرت الانطباعات الرهبانية فى حياة المجتمع القبطى .

أن النماذج الحية للفضيلة والتقوى وإنكار الذات التى تألقت فى حياة أولئك الرهبان المصريين كانت أعظم دليل على أن الفضيلة ، ووصايا الدين ، أمور واقعية يمكن الوصول إليها ، وليست مجرد مثل عليا ، أو مبادىء نظرية يتخيلها الدين ، الأمر الذى ينصر قوى الخير فى المجتمع على قوى الشر ، فلا يبتلع اليأس الكثيرين فى موجات الانحلال والمادية والالحاد . بل تشجع تلك النماذج الحية على استمرار الجهاد فى سبيل الفضيلة تشبهاً بهؤلاء العبّاد . ولعل هذا مما حفظ للمجتمع المصرى طابعه الدينى على مر العصور .

ثمة ظاهرة اجتماعية أخرى . فالمرضى والرازحون تحت آلام الحياة وأعبائها يلتمسون التعزية والمشاركة والطمأنينة من أناس عمرت قلوبهم بالإيمان ، وغمر السلام نفوسهم . لذلك كان الشعب يلجأ إلى الرهبان يلتمس منهم تخفيف آلامه بصلواتهم وتعزياتهم وإرشاداتهم وبقدوتهم التى كان لها أكبر الأثر فى تجديد الرجاء لمن يقصدونهم . كما كانت الأديرة أشبه بميناء السلام فى أوقات الأوبئة والحروب والمجاعات ، إذ يجد اللاجئون إليها الأمن والدواء والطعام .

وعن ذلك قال « هرناك » المؤرخ الألمانى .

« إن النساك المصريين كانوا يعتبرون فى جميع العصور — حتى فى نظر الغرب — آباء ، ونماذج للحياة المسيحية الحقيقية » .

٢ — إنتشارها فى أنحاء العالم المسيحى :

نشأت الرهبنة فى مصر ففاح عبير الآباء المصريين فى أرجاء العالم ، حتى شمله عبيرهم ، واجتذب إلى مصر جميع الذين طرق قلوبهم صوت الله ، فجاءوا إلى هذا الوادى ليرتووا من نبع تعاليمهم الصافية وليقتدوا بسيرتهم العطرة .

فوفدت إلى الصحارى المصرية جماعات من الفلسطينيين والسريان والحبش واليونان والأرمن واللاتين ، وسكان شمال أفريقية وغيرهم . وكان لكل أسرة معلم من جنسها يقوى على التفاهم مع أبناء جنسه وإرشادهم . وهذا النظام هو الذى ورثته الجامعات فى العصور الوسطى حيث انتشر فى رحباتها نظام الأمم ، وأيضاً نظام الأروقة فى الجامعة الأزهرية .

وتعتبر تعاليم الآباء المصريين من أكبر المفاخر التى جادت بها القرائح المصرية على العالم المتمدين .

١ — فى الشرق:

فمن فلسطين جاء القديس « إيلارى » الكبير (هيلاريون) فدرس الفلسفة فى مدرسة الإسكندرية ثم تتلمذ للقديس أنطونيوس . فلما رجع إلى فلسطين أسس الأديرة على النمط المصرى مستعيناً ببعض الرهبان

المصريين . وقد ابتدأ فى برارى غزة ومنها انتشرت الرهبنة إلى المنطقة المحيطة بالأردن .

وفى أواخر القرن الرابع جاء « بلاديوس » وزار مصر للمرة الأولى من سنة ٣٨٨ إلى سنة ٣٩٩ حيث عاش مع رهبان ، برية شهيت لدراسة الحياة النسكية ثم عاد إلى بيت لحم ، ثم إلى أورشليم ورسم أسقفاً لهلينوبوليس سنة ٤٠٠ م .

ولما رجع من زيارته الثانية لمصر ، كتب حوالى سنة ٤٢٠ م تاريخاً عما رآه وسمعه من رهبان الأسقيط ، اشتهر باسم « بستان الرهبان » وكان هذا الكتاب سبباً لانتشار الرهبنة فى جهات كثيرة من العالم .

ومن الذين أسسوا أديرة الموصل وطور عبدين ونصيبين ، رهبان مصريون يبلغ عددهم حوالى السبعين ذهبوا من مصر مع راهب سريانى إسمه مار آيون (القديس أوجين) كان قد عاش فى الأديرة القبطية بالصعيد .

وانتشرت المسيحية فى بقاع كثيرة من الشرق على أيدى المبشرين المصريين ، غذتها مصر بمعلمين من مدرسة الإسكندرية اللاهوتية ثم والت الكنيسة القبطية العناية بها على أيدى الرهبان المصريين ، فكانوا هم الذين تولوا تنظيم الكنائس والأديرة وتوسعوا فى نشر المسيحية .

فقد نشروا المسيحية فى ليبيا والخمس مدن الغربية (بنتابوليس) . ويذكر يوسابيوس المؤرخ إسم باسيليوس أحد أساقفتها فى أيام ديونيسيوس الإسكندرى . ويستنتج « هرناك » من ذلك ومن وجود

عدد من الابرشيات فيها أن الكنيسة هناك كانت فى حالة منظمة فى منتصف القرن الثالث .

ويذكر أوسابيوس القيصرى تبشير بنتينوس فى الهند . ويظهر أن العلاقة بين الكنيسة المصرية والهند قد استمرت طويلا ، إذ يذكر كتاب تاريخ البطاركة مجىء كاهن هندى إلى مصر فى أيام البطريرك سمعان الأول فى أواخر القرن السابع يطلب منه سيامة أسقف للهند .

أما عن بلاد العرب فإن هرناك يستند إلى أوسابيوس فى تأكيد زيارة أوريجانس للبلاد العربية وقيادته لمجمع فى بُصرى .

أما عن الحبشة ، فقد دخلت إليها المسيحية على يد فرومنتيوس فى منتصف القرن الرابع الميلادى . وهو مصرى كان يتاجر فى صور ويجوب البحار شمالا وجنوباً . والاسم فرومنتيوس لفظ قبطى معناه رجل الله (افرومى — أنت — تيوس) .

وقد اعتنق المسيحية أولا ملك الحبشة وتبعه فى ذلك رجال البلاط . ثم أخذت المسيحية تنتشر بين أفراد الشعب . وكان دخول المسيحية الحبشة على هذه الصورة مخالفاً لما عهدناه فى البلاد الأخرى حيث كانت تجد طريقها إلى الشعب أولا ثم يعتنقها رجال البلاط فالملك .

ولما عاد فرومنتيوس إلى مصر ، طلب من الأنبا أثناسيوس بطريرك الأسكندرية أن يرسل أسقفا لرعاية المسيحيين فى أثيوبيا ، وبعد أن تشاور أثناسيوس مع مجمع الأساقفة الأقباط قرروا سيامة فرومنتيوس نفسه وأرسلوه إلى أكسوم عاصمة الحبشة فى ذلك الوقت .

وربما كان لقرارات مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ التى رفضها القائلون بالطبيعة الواحدة أثر فى هجرة كثير من الرهبان إلى مصر حيث وجدوا فى أديرتها المزدهرة ملجأ لهم ، ومنهم من أخذ فى الانتقال إلى النوبة ومنها إلى الحبشة ، تدفعهم غيرتهم على نشر الدين المسيحى بحسب مذهبهم، بين أقوام لم يتطرق الجدل الدينى إليهم ، وقد حدا بهم خوفهم من المذهب النسطورى الذى لم يكن له أتباع فى مصر أو الحبشة ، إلى ترجمة بعض الكتب فى معارضة النسطورية مثل كتاب كيرلس استعداداً للطوارىء .

وكان بين الرهبان الذين وفدوا إلى الحبشة واستقروا فى أماكن متعددة من مقاطعة التيجرى تسعة عرفوا « بالقديسين التسعة » هم رسل نشر المسيحية فى الحبشة الذين أسسوا الأديرة وثبتوا العقيدة .

وقد أخذت الأديرة فى الحبشة تزدهر فى القرنين السادس والسابع ، وأخذ الرهبان يتفرغون إلى دراسة الرهبنة وتفهمها معتمدين فى ذلك على ما يترجمونه من الكتب القبطية أو اليونانية الشائعة عند الرهبان الأقباط فى مصر .

ومنذ القرن الرابع والكنيسة المصرية ترسل مطرانا قبطياً كرئيس للكنيسة الأثيوبية ، وكان له فيها مكانة ممتازة .

فى السودان :

ذكر المؤرخ يوحنا الأفسسى إنه فى القرن السادس كان البطريرك القبطى ثيودوسيوس منفياً فى القسطنطينية . وفى هذه الأثناء أرسل

يوليانوس إلى النوبة لتبشيرها بالمسيحية وذلك بمساعدة الأمبراطورة تيودورة التى كانت تؤمن بمذهب الكنيسة المصرية ، على عكس زوجها الأمبراطور يوستنيانوس الذى كان شديد الاضطهاد لهـذا المذهب . فوصل يوليانوس إلى النوبة حوالى ٥٤٣ م وبشرها بالمسيحية فرحب به الملك والعظماء فعمدهم وعلمهم الكثير عن المسيحية وحذرهم من أخطاء مذهب حزب الأمبراطور ، فلما وصلت بعثة الامبراطور بعد ذلك لم يقبل ملك النوبة رسالتها ورفض بقاءها فى النوبة ، فعادت فاشلة.

وتوالت بعد ذلك البعثات التبشيرية قادمة من الكنيسة القبطية . وكان أشهر المبشرين الأقباط لونجينوس الذى خاطر بحياته وسار فى رحلة طويلة مع الجبال المحاذية للبحر الأحمر حتى وصل إلى مملكة علوة (عند ملتقى أنهار العطبرة والنيل الأزرق والنيل الأبيض وعاصمتها سوبا قرب الخرطوم الحالية) فبشرها بالمسيحية فآمنت بمذهب الكنيسة القبطية ،وقدحاول الامبراطور أن يجرهم إلى مذهبه بالقوة فلم يتبعوه.

وقد ظلت الكنيسة المصرية ترسل أساقفة وكهنة إلى النوبة وعلوة وكذلك إلى مملكة أخرى تتوسطها اسمها ماكرة (مقره) اتحدت فى القرن السابع مع النوبة وصارت مملكة واحدة عاصمتها دنقلة القديمة .

واستمرت المسيحية فى النوبة تابعة لكنيسة مصر حتى نهاية حكم المماليك.

(ب) فى الغرب :

واتسع أثر الآباء المصريين بفضل الكتاب الذى وضعه اثناسيوس

الرسولى بطريرك الاسكندرية فى القرن الرابع عن سيرة الأنبا أنطونيوس وكانت نسخة من هذه السيرة سبباً فى تجديد حياة القديس أوغسطينوس (أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس) أسقف مدينة هبو بشمال أفريقية، وهو يعد من أكبر فلاسفة الكنيسة الغربية . ومن ناحية أخرى حمل اثناسيوس التعاليم الباخومية إلى أوروبا الغربية فى رحلتين .

وجاء القديس باسيليوس الكبير (القرن الرابع) — وهو يونانى — إلى مصر وعاش عدة سنين فى أديرة باخوميوس بالصعيد ونقل نظامها، واسترشد بقوانينها فى الأديرة التى أسسها بجبل آتوس فى بلاد اليونان .

وفى سنة ٤٠٤ م قام القديس جيروم (هيرونيموس الإيطالى) بترجمة قوانين باخوميوس إلى اللاتينية ، فبادر الرهبان الإيطاليون إلى اتخاذها دستوراً لهم .

وبعد ذلك بسنوات قليلة كتب كاسيانوس (الراهب الفرنسى) تراجم الآباء المصريين وتعاليمهم والقوانين التى وضعوها ، وحاول جهده أن يطبق هذه القوانين الرهبانية المصرية على الديرين اللذين أنشأهما فى جنوب فرنسا (بالقرب من مرسيليا) . ثم إن نظام الديرية البندكتية (نسبة إلى القديس بندكت أى المبارك) مقتبس من نظام وقوانين باخوميوس . وعن طريق البندكتية انتشرت النظم الباخومية فى أوروبا انتشاراً واسعاً .

كما أثرت تعاليم باخوميوس فى حركة الاصلاح الكلونى ، تلك الحركة الكبرى التى كان لها أثرها الدائم فى توجيه المدنية فى العصور

الوسطى. كما تلتها الجماعات الرهبانية المعروفة بالديوية،وذلك فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر . وتبعتها فى عهد لاحق جماعات الفرنسيسكان (نسبة للقديس فرانسيس الأسيسى) والدومينكان . فليس من العبث ، القول بأن تلك السلسلة من أولها لآخرها يمكن اقتفاء أصولها ومنابعها فى وحى باخوميوس المصرى . وبالتالى فإن النهضة الأدبية الفكرية الأولى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، تلك النهضة التى تقترن بقيام العلوم الإنسانية ونشأة الجامعات فى العصور الوسطى إنما هى أثر من آثار تلك الهيئات الديرية التى يرجع تكوينها فى الأصل إلى عبقرية باخوميوس .

وقد وصل الرهبان والمبشرون الأقباط إلى سواحل فرنسا الجنوبية، وإلى بلجيكا حيث يصف « هرناك » كيف عمل الأنبا اثناسيوس وهو فى منفاه فى بلجيكا على نشر المسيحية وتأسيس كنيسة ناهضة هناك . وفى سويسرا فى مدينة زيورخ اشتهر شهداء أقباط ضمن الذين بشروا المدينة كما اشتهر فى سويسرا القديس موريتى (موريس) وأخته وارينا ، وهى التى وجهت اهتمام السويسريات إلى العناية بنظافتهن ، وما زالت تصور هناك حاملة مشطاً (فلاية)وإبريق ماء .

وفى ألمانيا استشهد سنة ٢٦٨ م حوالى ثلاثة آلاف من أبناء مصر العليا من فرقة طيبة ، ولا تزال قبورهم معروفة فى مدينة «ترير»

وفى جزيرة قبرص أسس الرهبان الأقباط على الجبال الشمالية بالقرب من قرية بلاتان ديراً أطلقوا عليه اسم دير القديس مقاريوس

وكان للأقباط هناك أسقف يمتد اختصاصه على قبرص ورودس ، كما ذكر « برمستر » فى بحث نشره بمجلة جمعية الآثار القبطية .

وذكر بتلر فى مقدمة كتابه « عن الكنائس القبطية القديمة » إن المبشرين الأقباط وصلوا إلى الجزر البريطانية وأنه يوجد إلى يومنا هذا ببلدة أوليدة ديزرت بايرلندة قبور سبعة من الرهبان المصريين لا تزال تذكر أسماؤهم فى الصلاة بكنيسة تلك الجهة .

فهـــرس

أسماء الأباطرة وحكام مصر وبطاركة الاسكندرية

من عصر ديوقلديـانوس الى دخول العرب

الأباطرة	الحـــكام	بطاركة الأسكندرية
الأباطرة الرومان		
ديوقلديانوس (دقلديانوس) ٢٨٤—٣٠٥	ماركوس أوريليوس بعد أكتوبر سنة ٢٨٤	ثيوناس (تاونا) ٢٨٢ — ٣٠٠
	ديوجينيس قبل مارس سنة ٢٨٦	
	فلافيوس فاليريوس أكتوبر سنة ٢٨٧	
	بمبيانوس ١٥ سبتمبر سنة ٢٨٩	
	إيميليوس روستيكانوس (نائب الحاكم) فى سنة ٢٩٨	
	إيليليوس بوبليوس ١٩ أغسطس سنة ٢٩٩	
	كلوديوس كولكيانوس ٢٨ فبراير سنة ٣٠٣ و ٢٩ مايو سنة ٣٠٦	بطرس الأول (خاتم الشهداء) ٣٠٠-٣١٠
جاليروس (جالاريوس) ٣٠٥—٣١١	أمونيوس ١٧ أغسطس سنة ٣١٢	أرخيلاس (أرشلاوس) ٣١٠ — ٣١١

الأباطرة	الحكام	بطاركة الأسكندرية
ماكسيميان (مكسيميانوس) ٣٠٥—٣١٣		الكسندروس الأول ٣١٢—٣٢٦
ليقينيوس (ليسينيوس) ٣١٣—٣٢٣		
أباطرة العصر البيزنطى أسرة قسطنطين		
قسطنطين الأول ٣٢٣—٣٣٧	يوليوس يوليانوس ٨ يونية سنة ٣٢٨ سبتيموس زينون ٦ إبريل سنة ٣٢٩ ماجنينيانوس ١٩ أبريل سنة ٣٣٠ فلورنتيوس ١١ أبريل سنة ٣٣١ هيجينوس ٢ أبريل سنة ٣٣٢ باتيريوس ١٥ أبريل سنة ٣٣٣ فلافيوس فيلا جريوس ٧ أبريل سنة ٣٣٤ و ٣ أبريل سنة ٣٣٧ فلافيوس أنطونيوس ثيودورموس سنة ٣٣٧ و ٢٨ مارس سنة ٣٣٨	اثناسيوس الأول (الرسولى) ٣٢٦—٣٧٣
قسطنطيوس الثانى ٣٣٧—٣٦١	فيلافيوس فيلاجريوس سنة ٣٣٨ و ٣٠ مارس سنة ٣٤٠	

الأباطرة	الحـــكام	بطاركة الأسكندرية
	لونجينوس ١٩ أبريل سنة ٣٤١	
	و ٢٧ مارس سنة ٣٤٣	
	بلاديوس ١٥ أبريل سنة ٣٤٤	
	نسطوريوس ٧ أبريل سنة ٣٤٥	
	و ١٩ أبريل سنة ٣٥٢	
	سبستيانوس ١١ أبريل سنة ٣٥٣	
	و ٢٧ مارس سنة ٣٥٤	
	ماكسيموس ١٦ أبريل سنة ٣٥٥	
	و ٧ أبريل سنة ٣٥٦	
	كاتافرونيوس ١٠ يونية سنة ٣٥٦	
	و ٢٣ مارس سنة ٣٥٧	
	هرموجينس بارناسيوس سنة ٣٥٧	
	و ٤ أبريل سنة ٣٥٩	
	إيتاليكيانوس سنة ٣٥٩	
	فوستينوس سنة ٣٥٩ و ٨ أبريل ٣٦١	
	جيرونتيوس سنة ٣٦١ و ٣١ مارس ٣٦٢	
يوليانوس (المرتد) ٣٦١ — ٣٦٤	أكديكيوس أوليمبوس يولية سنة ٣٦٢	
يوفيانوس (جوفيانوس) ٣٦٣ — ٣٦٤	و ١٥ سبتمبر سنة ٣٦٣	

الأباطرة	الحكام	بطاركة الأسكندرية
والنس (فالنس)	هيريوس ٤ أبريل سنة ٣٦٤	
٣٦٤—٣٧٨	ماكسيميوس سنة ٣٦٤	
	فلافيانوس سنة ٣٦٤ و ٢١ يولية ٣٦٦	
	بروكوليانوس بعد ٢١ يولية سنة ٣٦٦	
	وأول أبريل سنة ٣٦٧	
	فلافيوس يوتولمبوس ١٣ سبتمبر	
	سنة ٣٦٧ و ٢٩ مارس سنة ٣٧٠	
	أوليبيوس بلاديوس سنة ٣٧٠	
	و ١٧ أبريل سنة ٣٧١	
	إيليوس بلاديوس سنة ٣٧١ و ٣٧٤	بطرس الثانى
أسرة ثيودوسيوس (تاودوسيوس)		٣٧٣—٣٨٠
ثيودوسيوس	هدريانوس سنة ٣٧٩	تيموثاوس الأول
الأول (الأكبر)	يوليوس يوليانوس ١٧ مارس ٣٨٠	٣٨٠—٣٨٤
٣٧٩—٣٩٥	بلاديوس ١٤ مايو سنة ٣٨٢	
	هيباتيوس ٢٩ أبريل سنة ٣٨٣	
	و ٨ مايو سنة ٣٨٣	
	أنطونيوس سنة ٣٨٣	
	أوبتاتوس ٣ فبراير سنة ٣٨٤	ثيوفيلوس
	فلورنتيوس ٢٠ ديسمبر سنة ٣٨٤	(ثاوفيلس)
	و ١٦ يونية سنة ٣٨٦	٣٨٤—٤١٢

الأباطرة	الحكام	بطاركة الاسكندر
	يوسيبيوس سنة ٣٨٦	
	يولينوس ٣٠ نوفمبر سنة ٣٨٦ وسنة ٣٨٧	
	فلافيوس أوليبيوس أديتريوس ٣٠ أبريل سنة ٣٨٨	
	الكسندروس سنة ٣٨٩ و ١٨ فبراير ٣٩٠	
	أواجريوس سنة ٣٩٠ و ١٦ يونية سنة ٣٩١	
	هيباتيوس ٩ أبريل سنة ٣٩٢ و ١٢ أبريل سنة ٣٩٢	
	بوتاميوس ٥ مايو سنة ٣٩٢ و ٣٠ يولية سنة ٣٩٢	
	أواجريوس سنة ٣٩٣	
أركاديوس	جيناديوس ٥ فبراير سنة ٣٩٦	
(أرقاديوس)	ريميجيوس من ٢٠ - ٣٠ مارس سنة ٣٩٦	
٣٩٥—٤٠٨	أرخيلاوس ١٧ يونية سنة ٣٩٧ و ٢٦ نوفمبر سنة ٣٩٧	
	بنتاديوس ٤٠٣ — ٤٠٤	
	يوثاليوس ٤٠٤ — ٤٠٥	

الأباطرة	الحكام	بطاركة الأسكندرية	
		أقباط	ملكانيون
ثيودوسيوس الثانى ٤٠٨ — ٤٥٠	أوريستيس سنة ٤١٥ كاليستوس ٧ سبتمبر سنة ٤٢٢ كليوباتر ٢٩ يناير سنة ٤٣٥ خرموسينوس ٢٥ يونية ٤٤٣	كيرلس أول (الكبير) ٤١٢ — ٤٤٤	
مرقيانوس ٤٥٠ — ٤٥٧	ثيودوروس سنة ٤٥١ فلوروس ٤٥٢	ديوسقورس الأول ٤٤٤ — ٤٥٤	برو تيريوس ٤٥١ — ٤٥٧
أسرة ليو (لاون)			
ليو الأول ٤٥٧ — ٤٧٤ ليو الثانى ٤٧٤	الكسندروس ١٩ أغسطس سنة ٤٦٨ وأول سبتمبر سنة ٤٦٩	تيموثاوس الثانى ٤٥٧ - ٤٦٠ و ٤٧٥-٤٧٧	تيموثاوس ٤٦٠ - ٤٧٥ و٤٧٧-٤٨٢
زينون (المغتصب) ٤٧٤ — ٤٩١	بويثوس سنة ٤٧٦ انثيميوس سنة ٤٧٧ ثيوكتيستوس حوالى ٤٧٧ — ٤٧٨ ثيوغنوسطوس سنة ٤٧٩و٤٨٢ برجاميوس سنة ٤٨٢ ابولونيوس سنة ٤٨٢ ارسينيوس سنة ٤٨٧	بطرس الثالث ٤٧٧ — ٤٨٩ اثناسيوس الثانى ٤٩٠ — ٤٩٦	يوحنا ٤٨٢

الأباطرة	الحكام	بطاركة الاسكندرية	
		أقباط	ملكانيون
انسطاسيوس أول ٤٩١ — ٥١٨	يوسطاثيوس سنة ٥٠١ ثيودوسيوس سنة ٥١٦	يوحنا الأول ٤٩٦ — ٥٠٥	
أسرة يوستنيانوس		يوحنا الثانى ٥٠٥ — ٥١٦	
يوستينوس الأول (يوسطانيوس) ٥١٨ — ٥٢٧	ديوسقوروس حوالى سنة ٥٣٥	ديوسقوروس الثانى ٥١٦ — ٥١٧	
يوستينانوس الأول (يوسطنيانوس) ٥٢٧ — ٥٦٥		تيموثاوس الثالث ٥١٧ — ٥٣٥	بولس التبايسى ٥٣٧ — ٥٣٩
	رودون سنة ٥٣٨ ليبريوس حوالى سنة ٥٣٩ — ٥٤٢	ثيودوسيوس الأول (تاودوسيوس) ٥٣٥ — ٥٦٦	زويلى ٥٣٩ — ٥٥١
يوستينوس الثانى ٥٦٥ — ٥٧٨	يوحنس لاكساريون سنة ٥٤٢ هيفيستوس		ابوليناروس ٥٥١ — ٥٧٠

الأباطرة	الحكام	بطاركة الاسكندرية: أقباط	ملكانيون
طيبريوس		بطرس الرابع	يوحنا الثانى
(طيباريوس)		٥٧٦ — ٥٧٨	٥٧٠ — ٥٨١
٥٧٨ — ٥٨٢		دميانوس	
	يوحنس	٥٧٨ — ٦٠٥	
موريقيوس	بولس		
(موريسيوس)	يوحنس (للمرة الثانية)		افلوغلوس
٥٨٢ — ٦٠٢	قسطنطينوس		٥٨١ — ٦٠٧
	ميناس سنة ٦٠٩		
فوقاس (فوقا)	بطرس بوستينوس سنة ٦٠٢-٦٠٣	انسطاسيوس	
٦٠٢ — ٦١٠	يوحنس سنة ٦٠٩	٦٠٤ — ٦١٦	يودوروس
		اندرونيكوس	٦٠٧ — ٦٠٩
أسرة هرقل		(اندروتيقوس)	يوحنا الثالث
هرقل الأول	نيقيتاس سنة ٦١٠	٦١٦ — ٦٢٣	٦٩٩ — ٦١٧
٦١٠ — ٦٤١			جيورجيس
			٦٢١ — ٦٣١
	قوروس ٦٣١ وسنة ٦٤٠	بنيامين الأول	
		٦٢٣ — ٦٦٢	
هرقل الثانى	ثيودوروس سنة ٤١٦		قوروس
٦٤١			سنة ٦٣١
هرقليون ٦٤١			

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة



مطبعة دار العالم العربى
٢٣ شارع الظاهر بالقاهرة
تليفون ٩٠٦٧٠٦